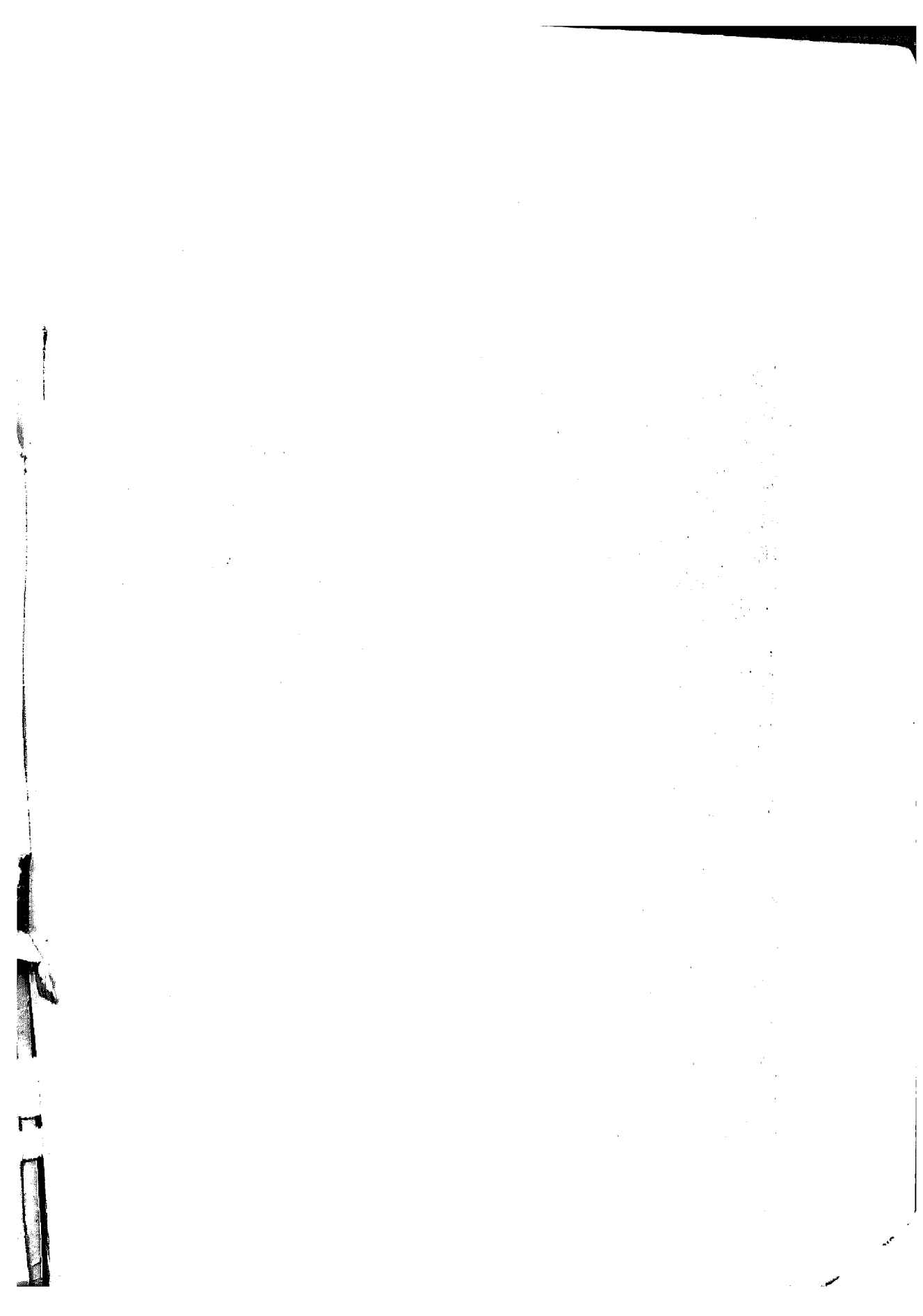


هوامش المقرئ

مكايات من مصر المجموعة الثانية



صلاح عيسى





هوامش المقرير

صكايات من مصر

المجموعة الثانية

صلاح عيسى

الطبعة الأولى : دار القاهرة للنشر والتوزيع

١٩٨٣

الخلاف للفنان : صلاح عيسوي

الخطوط للفنان : محمد بغدادى

وكم فيك يا مصر من كاتب
فلا تعذليني لهذا السكوت
أعجبني منك يوم الوفاق
وكم غضب الناس من قبلنا
أمور تمر وعيش يمر
فهذا يلون بقصر السفير
وهذا يصيح مع الصائحين

اقبال اليسراع ولم يكتب
فقد ضاق بي منك ما ضاق بي
سكوت الجهاد ولعب الصبي
لسلب الحقوق ولم تغضبي
وتهن من اللهو في ملعب
ويطنب في ورده الأمدب
على غير قصد ولا مأرب

« حافظ إبراهيم - ١٩٠٤ »

بیتکو ویا وایسویا وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای

بیتکو ویا وایسویا وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای
وای وای وای وای وای وای وای

۲۰۶۱ - ویا وای وای وای

الى صديقي مصطفى بهجت يدوي ..

رمز لعديدين من أبناء هذا الشعب العظيم .. مدوا الي
اليدين ظننت - وأنا اعانق الوحدة والوحشة - أن هذا الضحام
لا احد :

فعلوا ذلك .. يوم كان الاختيار هو الركوع أو الجوع ،
فأعانوني على ضعفى البشرى ، دون أن يصلوني شيئا .. أو أن
يوافقوا على صحة ما اجتهدت واجتهد فيه .. حبا .. وتقديرا
واعترافا بالجميل .

« صلاح عيسى »

١٧ يونيو ١٩٧٦

The number of...

... ..

... ..

...

...

مقدمة :

هامش على هذه الهوامش

لهذه المجموعة الثانية من (حكايات من مصر) - كما كان لمجموعتها الأولى - حكاية ، بيد اننى - وقد بدأت الكتابة فعلا - ما زلت متوردا في روايتها ، وقد ينتهى الأمر فيمزق ترددى ما صوف اكتب ، ويصدر هذا الكتاب بلا مقدمة ، ودون حكاية ، وعندئذ يكون عذرى اننى لا اود ان اشغل القارئ بمسائل شخصية في بعض جوانبها . فاذا لم يدمر التردد هذه « المقدمة / الحكاية » فليكن شفيعى في كتابتها ان كثيرين من الاصدقاء الازهاء الذين الحوا في صدور هذه المجموعة ، اعتبروا حكايتها جزءا منها . ولولا ذلك ما تحولت من ذكريات أتندر - ويتندرون - بها ، الى مقدمة لكتاب يسمى الى قارئه .

وهذه المجموعة الثانية تتفق مع سابقتها في ان موضوعهما واحد ، فهما تتقصيان تلك الجزئيات الصغيرة التي تصب في مجرى التاريخ ، وتتبلور فيها قرانين تطوره ، لكن المجموعتين تختلفان بعد ذلك من حيث الشكل ، فقد اختارت المجموعة الأولى لحظات اكثر تفجرا واطول نمبيا . بينما تلتقط الثانية ، ومضات تاريخية ، قصيرة ومركزة ومكثفة ، تبرز بسرعة ، ولكنها لا تنلغى قبل ان تضىء عقل من يقرأها - بوحى - بكل دلالات عصرها .

ولست اذكر بالتحديد متى نشأت فكرتها في ذهنى ، لكنها على الأرجح واكبت التفكير في انجاز هذا المشروع المتكامل من « حكايات من مصر » ولعلها تولدت من متابعة لصحافتنا المصرية والعربية ، منذ بدأت « الأهرام » - قبل

سنوات - تقلد الصحف الأوربية فى نشر باب يتضمن مختارات مما كانت تنشره فى سنوات صدورها الأولى ، وانتقل هذا الى صحف ومجلات عديدة فى أنحاء الوطن العربى . فقد تابعت وقتها باهتمام تلك الأبواب ، راضيا فى أحيان قليلة ، وساخطا فى معظم الأحيان ، وأخذت عليها دائما أن من ينقلون ويقتطفون مما نشر فى الماضى ، يفعلون ذلك بلا عقل يختار وينسق ويقسر ويحلل .

ولأننى أقرأ كثيرا فى الأدب ، وأتجاسر أحيانا فلاكتب فيه ، فإن عالمه الخاص ، وهو جزئى وحسى ومباشر ، كان يجعلنى أتوقف طويلا فيما أقرأه من مراجع التاريخ ، عند جزئيات قد يمر عليها كثيرون فلا يهتمون لها ، وكنت أشغل عقلى كثيرا بتفسير دلالات تلك الجزئيات ولا يعسر على أن أجدها متناسقة مع الظاهرة التى أحاول فهمها أو الكتابة عنها أو تحليلها . وأصبحت شغوقا بالبحث عن تلك الجزئيات والتفكير فيها ، ويوما طمحت أن أختار منها ما يمكن أن أقدمه لنوع من القراء ، يعرفه ويحرص عليه كل من يسعى لكى تكون الكتابة « دورا » وليست صراعا للحصول على مكانة اجتماعية ، أو درجة علمية ، أو استثمارا تجاريا ، ذلك الذى يشمونه أحيانا بالقارئ العام ، من يعتمد أساسا على الصحيفة والمجلة فى تكوين معارفه ، والذى ينفر منهما ومن غيرهما - إذا عسر عليه أن يتفاعل مع اللغة ، أو إذا غمت عليه الأفكار - وتعالقت عليه الرؤى والمناهج .

وكننت أقول لنفسى : إن غاية المراجع التاريخية لا تقع عادة الا فى يد المتخصص فى التاريخ ، أو القارئ الذى يملك الصبر عليها ، وهذه الومضات التاريخية تنشده من يجردها ليقدمها لهذا القارئ العام ، الذى هو القاعدة الحقيقية لسوق القراءة فى وطن عربى تنتشر فيه الأمية كالمرض الطفيلى الثابت والمقيم ، وما أظن إلا أن التواصل مع هذا القارئ العام كان وما يزال ، على رأس هموم الذين يسعون لكى تكون للكتابة دورا مؤثرا وفاعلا فى الصراع الاجتماعى والسياسى الذى يشهده الوطن والمعمورة التى نساكنها ، وليس خطأ تماما أن نضع الشباب ضمن تنويعات هذا القارئ العام ، وقد كان جهله بهموم أمته التاريخية ، وما يزال ، واحدا من مبررات قلقى المستمر ، لذلك حلمت أن تسعى إليه هذه الومضات ، تفتح معها قابليته لفهم عالمه ، كما تسعى - أيضا - للمثقف الذى لا يدخل التاريخ فى إطار تخصصه ، فتتكامل بقدر الطاقة معارفه .

وبدرجة ما ، أدركت أن هذه الومضات لا تستطيع أن تؤدى دورها بدون تراكم كمى مستمر فتطالع قارئها كل يوم ، تشده اليها بتركيز وتكثيف دائمين ، وتستدرج خطاه الى عالم التاريخ المصرى الرحيب ، خريصة على الا تقع فيما أخذته على غيرهما ، فتنتقل أو تقتطف من حوادث الماضى بلا عقل يختار أو يتسوق ويقسر ، ان لو فعلت لتحولت الى وسيلة يدافع بها القارئ عن

نفسه ملل الحياة ، ولأصبحت طرائف والغاز وأحاجى وحكما ومواعظ ، وذلك ما كرهته دائما فيما قرأت من محاولات سابقة تأخذ نفس الشكل ، أو تعالج ذات الموضوع ، لذلك فإن هذه « الومضات » تسعى الى قارئها بهدف محدد وصريح ، هو أن تستقيم خطاه على درب العطاء للوطن وللشعب وللأمة ولكون كله .

ولست فى حاجة الى أن أكرر ، أننى فيما اجتهدت فى فهمه من ظواهر التاريخ المصرى والعربى كنت بقدر الطاقة موضوعيا ، لكنى لم أكن أبدا محايدا ، وذلك ما كان واضحا أمامى وأنا أختار تلك الومضات ، فقد حرصت على أن أروى الواقعة كما حدثت بقدر ما تسعبنى المقارنة بين الروايات المختلفة للحدث الواحد ، وتلك هى الموضوعية كما أفهمها ، لكننى رجحت دائما ، تلك الروايات التى تقف مع الشعب - بمفهومه التاريخى - فى صراعه الأزلى والدائم ضد أعدائه ومستغليه ، فالحياد بين الشعب وبينهم ، كان دائما - فى منظورى - خيانة قبيحة وصريحة .

وحين تكاملت فكرة هذه المجموعة الثانية من « حكايات من مصر » ظلت حبسية درج مكتبى كمشروع الى أن شجعتى حماس صديقى « رجاء النقاش » لمجموعتها الأولى حين كان رئيسا لتحرير مجلة « الإذاعة والتليفزيون » فدفعت اليه ببعض حكايا هذه المجموعة فاذا بها تلقى نفس الحماس ، وتنشر ضمن باب بعنوان « أنابيش مصرية » لكنه لم يستمر سوى أسبوعين أو ثلاثة ، فقد هجم اليمين المصرى بكل أثقاله على المجلة ، واستنحب معه التفاهة والغثاثة ، فغادرها « رجاء النقاش » ، ومعه كل ما هو جاد أو مفيد ، وكان من بينها حكاياتى وأنابيشى .

وفى بدايات العام ١٩٧٢ عادت الفكرة تلح على وكنت قد التحقت - بعد خمس سنوات من البطالة الاجبارية - بأسرة تحرير جريدة « الجمهورية » وقت كان الأستاذ مصطفى بهجت يدوى يرأس تحريرها ومجلس ادارتها ، وأذكر أننى فى أحد أيام الربيع الباكر من ذلك العام قد سحبت ورقة كتبت عليها فكرة هذه الحكايات ، وأقترحت أن تخصص « الجمهورية » زاوية يومية تنشر لقطعة مركزة من التاريخ المصرى على شكل أقصوصة متناهية القصر ، لا تزيد عن خمسمائة كلمة ، وقدمت فى مذكرتى تلك المبررات الصحفية التى تجعل فتح هذه المنافذة على صفحات « الجمهورية » ضرورة .

كان قارئ الصحيفة اليومية ، هو نفسه ذلك القارئ العام الذى أسعى اليه ، وكان قد سقط طوال سنوات بين براثن الصحف الرسمية ، فانهمكت تخرب عقله ووجدانه ، وتسطح وعيه وتهرب به مما كان يواجهه من هموم ومهام ، وحتى بعد أن انهارت الأبنية المزيفة التى ظلت هذه الصحف نفسها تؤسسها وتدعمها على امتداد السنوات التى سبقت نكسة يونيو

(حزيران) ١٩٦٧ ، عادت الصحف تمارس نفس دورها القديم ، واحتلها - الا فيما ندر - المهرجون والمشعوذون والكذبة والفريسيون ، وحررها لابعوا الكرة ، ومانسون ، وجاكليين كنيدي ، وأشباههم يسعون كل صباح الى القارئ المسكين - غير المحصن الا بفطرتة - بسخافات العالم ومحتويات أمعائه الخليطة : الشذوذ والانحطاط والعبث والملاجدوى والجرائم والادعاءات الرسمية التي تفج بخرا وتنشر بهتاناً .

ولأن تكويني كان يفتقد منذ البداية لتلك المواهب العظيمة ، ولأن المناخ العام لم يكن يشجعني - أو يسمح لي - أن أكتب في السياسة ، فقد كانت الهوامش - وهو العنوان الذي اقترحتة لهذه الحكايات - هي خلاصتي الحقيقي ، لذلك سعدت حقاً عندما وافق عليها مجلس تحرير « الجمهورية » (بعد مقاومة طفيفة انطلقت من قوانين الصراع المهني ، لم أكن أقدر خطورتها حينذاك) وهكذا قدر لهذه « الحكايات / الهوامش » أن تنشر بشكل مستمر بين ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ الى مارس (آذار) ١٩٧٥ . وخلال تلك السنوات الثلاث أثارت من الضجة والضجيج ما يتجاوز في رأيي قيمتها وأهميتها ، وسببت لصديقي مصطفى بهجت بدوى - رئيس تحرير الجمهورية أيامها - مشاكل وازعاجات ، بل واعتبرها البعض أحد أسباب قليلة فقد بسببها منصبه في ربيع ١٩٧٥ ، إذ دخلت في لعبة السياسة على الطريقة المصرية ، تلك التي تمارس بأقذر الأساليب وأكثرها تدنياً وتخلفاً وانحطاطاً ، لأن أحد أطرافها - وهو اليمين المصري وخاصة في الصحافة - لا علاقة له أصلاً ، لا بالفكر ولا بالصحافة ، ولا حتى بصفات البشر .

.....
.....

كانت الهوامش صلاة في معبد مصر الشعب ، طموحة الهدف بصرف النظر عن صلاحيتها للقيام به ، ولعلها قد جاءت في أكثر الأوقات ملاءمة ، أيامها كانت مصر تعيش مرحلة ما اصطلح على تسميته « بالاسلم واللاحرب » . توقفت المقاومة العسكرية للغزو لأن الحماس للحشد الجماهيري سياسياً وعسكرياً وتنظيمياً ، كان منذ البداية مجرد ديماجوجية اتقنتها البرجوازية المصرية على اختلاف مراحل ثورتها . . . فقد وجد الشعب نفسه مستنداً بظهره للجدار . . . وأن لنكسة ١٩٦٧ أن تطرح ثمار المرارة ، فتسللت الى الروح المصرية نبرات من اليأس الفاجع ، واختلطت كل الأشياء ، انمحت الحدود بين الشجاعة والحماسة ، وبين التضحية والغباء ، واستوت الظلمات مع النور ، ولم يعد ثمة فرق بين الأعمى والبصير ، ولا بين الظل والحرور . . . وغم الأمر على كثيرين من الناس .

وعلى جبهة الثقافة والفكر والصحافة ، بدأت الهزيمة تفتح بخرها ، وأن للذين زرعو الأثم أن يحصدوا النفاق . . . وخرجت أشباح الموتى من الطبقات والأفكار تفتنن الفرصة السانحة وتخرب وجدان شعب كانت البندقية هي خلاصه الحقيقي ، يستعيد بها ثقته بالنفس ، ويفرض بها إرادته على الحاضر ، ويمتلك بها المصير .

وكنت بحكم الظروف أقرب الى فهم المثقف المصرى ، ذلك النمط الاجتماعى الذى أنتمى اليه وأملك أحيانا الفرصة لتأمله واستبطانه ، وهى رحلة كنت أعود بعدها مجهدا ممتلئا بالشجن ، ومرة رصدت بذهول ، أنه حتى فى الانتاج الأدبى والفنى ، طرح المثقف المصرى احساسا طاغيا بكرائية الكلمة ، وابتدع يقينا جديدا ، بأن عالم الكلمة بارد يفتقد لدفع الينادى ، وأن عليه ، وهو المثقف ، أن يتوارى فى الظل ليتقدم المقاتل ، وأن على فرسان الكلمة أن يتركوا مكانهم لفرسان السلاح . فلم يعد ثمة مكان الا للمقاتل : سويرمان العصر وبطله ونموذجه المصفى ، ورافع أعلام المستقبل .

وكان طبيعيا أن تفرز الأوضاع المصرية مثل تلك الأفكار ، فالمثقف العربى عموما ينتمى الى النمط العاطفى ، تنوء رأسه بالأفكار الزراعية ، فيصبح بذلك شديد القابلية للتطرف بمفهومه النفسى ، يتقلب فى المواقف بلا أى رابط ، ولا يرى العالم الا من أقصى أطراف الجهات الأصلية . والمثقفون من هذا النمط لا يعرفون من الألوان الا الأسود الحالك والأبيض الناصع ، والناس عندهم اما أيطال أو خونة ، أنبياء أو شياطين ، والبندقية عكس الكلمة ، والمقاتل هو نفى المثقف ، ولأن هناك كلام لا معنى له ، فلتسقط كل الكلمات ، وليحى الجهل مع الجدعنة .

وكانت الدنيا زحاما خانقا ، بحيث عسر على الانسان أن يقول أن هذه الرؤية خاطئة على طول الخط ، فالمقاتل سويرمان حيث هو يؤمن بقضية ويحميها ويدافع عنها الى درجة الاستشهاد . ومعظم الشعوب التى خاضت حروب تحرير وطنية اعتمدت فى بنائها من جديد بعد خراب الحرب المادى والروحى على الكوادر التى بنت نفسها وهى تحارب . أنها لم تعتمد على القوة المطلقة التى يحوزها المقاتل ولكن على الوعى الذى تحقق له خلال القتال ، وهذا الوعى هو نتيجة تفاعل الانسان مع البندقية وفهمه الصحيح للقضية التى يقاتل من أجلها ، وهو الذى ينتهى عادة بإيمان الانسان بفاعليته وبقدرته على السيطرة على حاضره ومستقبله .

إن « وعى » المقاتل هو نوع من الثقافة بلا شك ، وبقدر وعيه تتحقق فاعليته ، ذلك أن الوعى هو الذى يقود الأصبع للمضغط على الزناد ، كما أنه أيضا - فى مجرى القتال من أجل قضية - ينطلق من فوهات الينادى ، والمقاتل السويرمان هو حصيلة عملية معقدة وجدلية بين الوعى والممارسة ، وهو

عندئذ نموذج نفى ومبلور للثورى الحقيقى ، والفرق بين « المقاتلين » فى فيتنام و « المقاتلين » من جنود الياكى الأمريكيين ليس مجرد حرف ، ولكنه فرق بين الذين يعون قضيتهم العادلة وبين الذين يقتلون فقط وأحيانا دون أى قضية .

ان الكلمة والبنديقية وحدة واحدة والثقف والمقاتل ليسا نقيضين فعلى كل المثقفين أن يقاتلوا وعلى كل المقاتلين أن يتثقفوا وربما بسبب افتقاد المثقفين لهذه الوحدة الجدلية انتشرت هذه النغمة الفاجعة فى أعمالهم وكتاباتهم ، وهى تعبير عن أزمة ضمير لدى شرائح متكاملة من المثقفين ، هؤلاء الذين شغلوا خلال العقود السابقيه ، ببناء مستقبلهم الفردى بينما كان كثيرون يطحنون فى المعركة . وقد كرسى الظروف التى سادت مصر - قبل يونيو (حزيران) ١٩٦٧ - هذا الانفصال المرعب بين « الكلمة » و « الفعل » وبين « الوعى » و « الممارسة » ، فمعظم الذين كانوا يبنشرون بحماس شديد فى كتاباتهم بالاشتراكية وبالعدل الاجتماعى كانوا يسعون بنفس الحساس للمتمايز الاجتماعى ويجرون وراء شبق الاستهلاك ويخططون حياتهم العملية على أساس السلوك البرجوازى الصرف بدءا بهوموم السيارات وانتهاء بالمدارس الخاصة وحفلات أعياد الميلاد لأبنائهم ، والسعى وراء الوجاهات الاجتماعية بكل أشكالها ، والخضوع المزى لقانون التنافس البرجوازى سعيا وراء الصعود والكسب . وقد عاش هذا الانفصال أيضا بعض الذين يدافعون عن القيم الدينية بحماسة تصل الى التعصب ، وهم فى حياتهم الخاصة أبعد الناس عن الايمان ، لا يصلون ولا يصومون ويرتكبون من الخطايا ما يتعفف عنه حتى هؤلاء الذين يجترئون على الأديان .

ولأن حياتهم كانت خاطئة من البداية فان فهمهم يصبح انتقالات سريعة ، ولكن فى الاتجاه الخاطىء نفسه ، وهو نفى وحدة العالم وجدل الظواهر ، لذلك كانوا أسرع الناس بعد حرب أكتوبر لاعلان انتهاء زمن الثقافة وزوال عصر الفكر .

وصحيح أن هناك من الكلمات ، ما لا معنى له ، لا يضيف كثيرا ولكنه يلتهم الورق - الذى غلا سعره - محققا خسارة مادية ، لكن هذا لا يعنى أن كل الكلام تافه ، أو أن كل شىء هو « فلسفة ورغى ووجع دماغ » وكنت - وما زلت - أرى أن مهمتنا الأولى هى أن نتطهر من هذا الانقسام بالنقد الذاتى وليس بالاستمرار فى لعبة تقسيم الظواهر ، ذلك أن معظم ما تحقق فى حياة البشرية كان فى الأصل كلاما وكتبا ، سواء فى ذلك الرسائل السماوية أو الدعوات الاجتماعية التى كانت كلها استجابة لحاجة انسانية واقعية فكلاما فممارسة ، وهكذا !

وربما كان عسيرا على الانسان أن يحقق هذا التطابق التام بين الكلمة والفعل ، لكن التاريخ يشهد بأن كثيرين ماتوا دون كلمتهم ، ويشهد أيضا

أكثر منهم ماتت كلمتهم دون اطماعهم ، وأن الأغلبية العظمى وازنت هذا
بعمليات نقد قاسية تجاه الذات قبل أن تكون تجاه الآخرين ، فحققت أكبر قدر
مممكن لتلاؤم الانسان ، ووحدة وعيه وسلوكه فى ضوء الظروف المحيطة به ،
وهى غالبا قاسية وضارية .

وتحقيق هذه الوحدة بين « الوعى » و « الفعل » وبين الكتاب والبندقية
رهين باتاحة أوسع الفرص للمثقفين لكى يعبروا عن أحلامهم ويعيشوها وسط
الناس ، وكان هذا يعنى دائما أن يموج مجتمعنا بالزهور المتفتحة ، وليس
بالحلفا والصبار ، ساعتها سيتحقق هذا الدمج بين الكلمة والفعل ، وسط
جحافل الناس ، وسوف نتظهر كلنا لنصبح ذلك المقاتل : سوبرمان العصر
ويطله ونموذجه المصفى ورافع أعلام المستقبل .

تلك واحدة من ظواهر عدة أفرزتها الهزيمة ، بعد أن وجدت فى مرحلة
الاسلم واللاحرب مناخها الحقيقى لكى تتحقق تحققا كاملا ، فتعطى ثمارها :
قحطا وغبا وديماجوجية وابتذالا .

•• وكان المزعج حقا أن المثقف المصرى ، وهو الكائن الذى ما يزال
يلعب دورا متزايدا فى بلد تنتشر فيه الأمية كالوباء ، ويشندى وعى شرائحه
المؤهلة لاستكمال الثورة الى ما تحت الصفر ، هذا المثقف قد فقد كثيرا من
جسارته الروحية ، فحتى جيلنا ذلك الذى ورث عالم ما بعد الحرب العالمية
الثانية ، وقد أفلست خلالها كل الأفكار الرجعية ، وكل الدعاوى السلفية ،
وانقضحت فيه الحضارة الأوربية الرأسمالية ، وتعرى لحمها ، فكشف عن
تخاعيد الزمن •• هذا الجيل الذى كان مؤهلا - أكثر من غيره - لأن يكون
عقلانيا ومستنيرا ، فقدت أقدام شرائح عريضة منه الطريق ، فوجدت نفسها
تغرب الى الماضى ، تنتمى اليه ، تذوب فيه عشقا وتعيش فى يوتوبيا رجعية ،
تحلم خلالها أن يعود العالم الى مكانه الطبيعى ، بل ان عناصر منه امتشقت
السلاح بالفعل لكى تدمر تلك الحضارة الضخمة التى أنشأها الانسان ،
باعتبارها الأب الشرعى للتعاسة والشقاء ، وكما افتقد هؤلاء الوعى بأن
اغتراب الانسان فى ظل الحضارة الرأسمالية ، هو طبيعة ملازمة للبنية التطبيقية
لتلك الحضارة ، فان المتقدمين أو بعض شرائحهم قد حولوا يوتوبيا الغد الى
وثن يغتربون اليه هم الآخرين •• وهكذا خاصموا الواقع خصاما مؤلما ،
وفقدوا الطموح الحقيقى للتأثير فيه ، وجلسوا ينتظرون عالم الفرح الآتى
وفاتهم أن اردتهم الفاعلة هى جزء من تحقيق أية فرح •• وان بناء العالم
الجديد ، لا يتم بخصام القديم ، أو اشاحة الوجه عنه ، ولكنه يتم بالاشتباك
معه •• والجدل وانيه ••

ومن المؤكد أن تأمل مثل تلك الأوضاع لم يكن مصدر متعة لأحد ، وقد
عانيت حصارا ذهنيا هائلا ، عندما تخلقت أمامى المأساة ، فاذا كانت

المشرايح الأكثر وعيا من الشعب قد انفلتت بهذه الصورة ، فكيف يكون الأمر بالنسبة للآخرين ، هؤلاء الذين لا يفرقون بين الألف وكون الذرة أو الذين يفرقون بينهما ، ولكنهم مع هذا يعجزون عن فهم ظواهر العالم فى تشابكها وتعقدها . وبرغم أن ظواهر عديدة برزت على صعيد المثقفين أنفسهم . فقد كانت هناك ضرورة لكى تتوحد جهود كثيرة من أجل الحفاظ على وجدان أمتنا من التمزق والتبدد . . والضياع .

وفى هذا المناخ سعت « الهوامش » الى الشعب ، ترضع فى يده بندقية هى الرعى بذاته والثقة بتاريخه ، وتتغنى بذكريات ماضى عظيم ، تستخلص منه قانون التطور الذى لا مفر منه : ان الشعوب لا تهزم ولا تفنى ، وان الشعب يأتى من الأزل ويبقى الى الأزل .

كنت أريد لها أن تكون كالشعب : حنونة وقاسية ، رقيقة وعنيفة .

ولأن موضوعها كان تاريخ مصر ونضال شعبها ، فقد كانت تعود - فى كل مرة تخفقى فيها - قوية وصلبة . . هذا شعب كان دواما قويا وصلبا تستلمه « الهوامش » بعض قوته ، وبعض صلابته ولا تستطيع الا أن تكون كذلك .

شعب مرت الأحداث كلقى هزيمة ووجهه وضاء وثغره باسم ، هزم غزاة ، وحطم طغاة ، صعد أبناء له فى عمر الورود درجات المشانق ، وهم يهتفون باسم وطنهم ، وترك ضباط وجنود من أبنائه المستشفيات العسكرية - ان هم جرحى - ليواصلوا القتال . . وخرج مجاورو الأزهر ومشايخه وفتوات بولاق والحسينية وصناع القباقيب فى تحت الربيع وطولون ، ليحاربوا فرنسا ان هى أقوى دولة أوربية ، وليجبروا « الجنرال اللنبى » - بطل الشام فى الحرب الأولى - على التراجع أمام لحمهم الحى .

شعب يضحك وهو ينزف ، يحارب جائعا ، اتهموه بالجهل كثيرا ، وبالبلالة حينما ، لكنه فى كل مرة يؤكد لهم ، أنه فى صمته أكثر وعيا ، وفى جهله أبلغ علما ، وعندما يغم الأمر على كثيرين ، فان الفقراء منه ، يختارون ببساطة ودون تحذلق ، الزنازين الرطبة المظلمة الموحشة ويصعدون الى المشانق وهم يهتفون بحياة الوطن !

وكانت لحظات التفجر والغليان فى تاريخ الشعب المصرى تغريبنى نواما بالوقوف عندها طويلا . . ان كانت تبدو لكثيرين - وربما لى أنا نفسى - كأنها مفاجأة متوقعة ، نبتت من العدم ، وكثيرا ما كان يشوقنى ذلك الذى حدث فى مارس ١٩١٩ - على سبيل المثال - فقد تغيرت مصر فجأة ، وبشكل بدا مفاجئا ، بل ومذهلا لكل الذين يحتلونها ، وما كان أكثرهم .

تفجرت الثورة فغيرت كل شىء : نمط الحياة وشكل الشوارع ، وملامح الرجال والنساء ، وذهل المحتلون ، كانوا يظنون ان كل شىء قد انتهى بعد

أربعين عاما من الاحتلال مكنوا لأنفسهم خلالها ، بدأوها بتدمير الجيش العرابي العظيم ، ثم سيطروا بالقهر وصيد الحمام وتحكموا باقتناص المناضلين وأسروهم فى معتقلات طرة والقلمة والجماميز أو منافى كريت ومالطة وسيلان .

أيامها - كما ظنوا - كانت مصر هادئة تماما :

كانوا قد ضحكوا علينا . قبل قرون جاء الغزاة ليقولوا لنا : أنتم مصريون . مهمتكم صنع الحضارة . ازرعوا . تفننوا . ابتكروا . لكن دعو الحرب لنا . صدقنا اللعبة . وجدنا فى أيدينا الفأس وفى أيديهم البندقية . قالوا : أنتم تبنون الحياة ، ولكننا نحطمها فأرضوا عن أنفسكم وتفاخروا بنبل ما تصنعون . سرقوا عرقنا . عاشوا نيابة عنا . متنا بالبلهارسيا والانكوستوما والبلاجرا والدودة الشريطية وعرقنا الجوع الحقيقي . فى الظلام كنا نهتف : يا رب يا رب يا متجلى اهلك العثماني . أو يا رب يا عزيز تأخذ الانجليز .

قبل أن تنشب الثورة ، وربما فى الثانية الستين ، كان القانون الامبريالى لتقسيم الأدوار مطبق بدقة : المصريون يعملون فى المصانع والمزارع والمكاتب ، والانجليز يحملون السلاح . اذا أصيب مصرى بلوثة « وعى » فان أدوات الغيبوبة منتشرة ومتوفرة : انتشرت الخمارات الصغيرة كالوباء ، ونبتت بيوت البغاء وبؤر الكوكايين ، كل المفريات التى تفقد الناس الرغبة فى أن يخاطروا بحياتهم ، وتجعلهم أكسل من أن يفكروا فى شىء خارج حواسهم . فى قتامة حجرات المدرس كان أبناء المدارس يعيشون فى أحلام متدنية : أن يخرجوا حيث يبنى كل منهم مستقبله الفردى فى اصرار يباعد بينه وبين الآخرين . بل ويدفعه للصعود فوق جثثهم لو استطاع .

وفجأة تندلع الثورة . فيلغى قانون تقسيم الأدوار الامبريالى ، ويتغير كل شىء حتى رائحة الحياة العفنة . تضرب المومسات عن العمل وتغلقن بيوتهن . ويكف الناشلون عن السرقة وتتحول علب الليل فى شارع عماد الدين ، الى مسارح ثورية تتغنى بمصر وتهتف لها ويختفى فيها الثوار المطاردون .

ويكف البلطجية والفتوات عن نشاطهم ، وينتقلون الى صفوف المناضلين ، ويدرك علماء الأزهر أن الله لا يمكن أن يعبد - كما يليق بجلاله - فى وطن مستنزل مقهور ، فيهجروا أعمدتهم ويحملوا المسدسات والقنابل فى جيوب قفائطهم مع المصاحف ، ويخرج القسس الى الأزقة والحوارى يقودون المظاهرات ويترنمون بالمجد لله فى الأعلى وبالمسرة للناس .

ويغادر أولاد المدارس قتامة الحجرات والمكاتب ، الى دفاء الناس فى المصانع والورش . ويذهل المحتلون وهم يرون شيانا فى عمر الزهور يواجهون الرصاص بلحمهم الحى ، فينتصرون عليه ، وتحملهم سيارات الاسعاف

مضرجين بدمائهم ، فيرفعون ستائر السيارات ويجد بعضهم - برغم جراحه البليغة - القوة التي تمكنه من أن يهتف وهو الجريح :

- نموت وتحيا مصر ..

وتختلط الأصوات التي ترد عليه : المرض وسائق السيارة ، وبقيّة الجرحى ، ومظاهرة تشتبك فى معركة ، وبنات محجبات خلف المشربيات ، وصعاليك لا يملكون من أرض مصر شبرا واحدا ، لكنهم يملكون شجاعة للموت فى سبيلها ، وتمضى عربة الاسعاف تاركة على أرض الميدان قطرات من الدم تعلن عن الغاء قانون تقسيم الأدوار الأمبريالى .

وكان منطقيا أن يذهل المستعمرون ، ذلك أن العقل الأمبريالى ، كان قد وصل الى فرضية تقول أن الشعب المصرى قد قطع صلته بأمور الحرب والقتال قبل زمن طويل ، وأن مصر التي عاشت بلا جيش نظامى قرونا طويلة - ومنذ تحطمت دولتها المستقلة - قد فقدت مجرد شجاعة حمل السلاح ، فما بالك بمواجهته .

وعندما تفجرت الثورة ، ذهل الاستعماريون ، لأن المصريين لم يملكوا فحسب شجاعة مواجهة سلاح انجلترا - أقوى دولة فى عالم ذلك الزمان - بل أنهم واجهوه - عزلا وبلا سلاح - وانتصروا عليه بلحمهم الحى وحده .

وبالرغم من أن العقل الأمبريالى كان قد تلقى عديد من الضربات التي تؤكد خطأ فرضيته فإنه ظل مستمرا عليها بغباء نادر يحسد عليه . فعندما كانت حكومة « الديريكتور » الفرنسية ترتب لحملتها على مصر بنت تقديراتها على أساس تقرير كتبه « ثاليران » وزير الخارجية ، ومما قاله فى هذا التقرير أن أهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد وهم عزل بلا سلاح ، وإذا أعطاهم المماليك سلاحا بهدف الدفاع عن البلاد من أى غارة أجنبية ، فإن المصريين سيحاربون المماليك بهذا السلاح ، فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الأهالى .

وقبل مرور عقد واحد من القرن التاسع عشر ، جاءت حملة فريزر الانجليزية فى عام ١٨٠٧ ، وفى ظلها أن الشعب المصرى خارج الحلية تماما . وأنه ليس عاملا مؤثرا فى الموقف وأن الحملة مضمونة النجاح لأنها جاءت متواطئة مع المماليك ، القوة العسكرية الوحيدة فى مصر .

وفى كلا المرتين تعلم الاستعماريون أن المسألة بالنسبة للشعوب تختلف ، هرب المماليك أمام الغزاة وسعوا للاتفاق معهم مقابل مشاركتهم فى السلطة ، ولم يتحركوا ضد حملة « فريزر » لكن الشعب أخذ المبادرة فى المرتين ، وتصدى للغزو ، وهزمته فقلب حسابات الغزاة ، وصدّم العقل الاستعمارى فى أعنى مسلماته ، وجعله يعيد التفكير فى الأمر كله .

ولأن الاستعماريين أبناء عمومة ينتمون لأرومة واحدة ، فان خطتهم احتفظت بملامح متشابهة واتبعت خطى متماثلة ٠٠ ومنذ فقدت مصر استقلالها بالغزو اليونانى وهدف الغزاة واحد : أن يخرج المصريون من حلبة الصراع ، فنقطع أيديهم قبل أن تحمل قطعة سلاح .

على امتداد قرون الغزو ، صاغ الغزاة أيديولوجيتهم حول تقسيم الأدوار بالمنطق الامبريالى : ان على شعب مصر أن يتفرغ لبناء الحضارة ، أن يزرع ويصنع وينجب ويفكر ، فيتمتع الغزاة بكل هذا ، ولا يناله الا الفتات ٠٠ أما الحرب والقتال ، فهي مهمة ينبغي أن تترك لهم ، أما المصريون فانهم مجرد بناء حضارة .

وصحيح أن المصريين بناء حضارة ، بنوها فى طفولة التاريخ ، فلم يسبقها مثيل ولم يلحقها شبيهه ، فكانت كما يقول البروفيسور توينبى : حضارة فذة « لم تلد ولم تولد » ، لكن ما تعمد العقل الامبريالى نسيانه حتى ننساه نحن أيضا ، هو أن هذه الحضارة بنيت بالقتال والصراع .

ويفسر البروفيسور « توينبى » الحضارة المصرية ، بأنها وليدة التحدى الشرس مع الطبيعة ، والاستجابة الشجاعة من المصريين ، فعندما انتهى عصر الجليد ، حدث تحول طبيعى خطير فى مناخ جزء من قارتى آسيا وافريقيا ، وأحدث هذا التحول ارتياكا عنيفا فى حياة القبائل التى تعيش فى هذه المناطق ، ووقفت أمام اختيارين صعبين : الأول أن تبقى ، سواء احتفظت بأسلوب حياتها - وهو الصيد - أو غيرته ، والثانى : أن ترحل ، سواء الى مكان يتواءم مع أسلوب حياتها ، أو الى مكان بعيد تبتكر فيه أسلوبا جديدا للحياة .

واختار المصريون أصح وأشق الاستجابات لهذا التحدى الطبيعى القاسى : قرروا أن يغيروا موطنهم ، وأسلوب معيشتهم فى عملية واحدة هى أشجع وأعظم مبادرات تاريخ ما قبل التاريخ ، وهبط هؤلاء الرواد - كما يقول الأستاذ شفيق غريال - بدافع الجراءة واليأس الى مستنقعات قاع البوادي ، وأخضعوا طيش الطبيعة لارادتهم ، وحولوا المستنقعات الى حقول تجرى فيها القنوات والجسور ، وهكذا استنفذت أرض مصر من برائث الطبيعة .

وأثبت التطور التاريخى أن الاختيار المصرى ، كان أفضل الاختيارات ، فالذين استسلموا لتغير الطبيعة فنوا أو انقرضوا ، والذين بقوا مكانهم وغيروا معيشتهم أصبحوا مجرد رعاة . أما المصريون فانهم لعبوا - كما يرصد توينبى - دور « القلة الخالقة » بالنسبة لكل الشعوب التى عانت قسوة عصر الجفاف .

وهكذا تشكل الانسان المصرى خلال أرقى أشكال الصراع ، وأنقى أنواع القتال : الصراع من أجل تطويع الأرض للانسان ، من أجل الغذاء

والكساء والبناء والرفاهية . وهذا هو مصدر السمات النفسية الراقية التي يتميز بها المقاتل المصرى ، إذ تقل لديه نوازع العدوان على الآخرين ، بينما تزداد شجاعته فى دفع أى عدوان على جهده ، الصبور فى صنع التقدم ، فهو نموذج نقى للمقاتل المتحضر ، الذى يشن الحرب للدفاع عن الحياة وليس لتدميرها .

لقد تجاوز المقاتل المصرى نفسية الانسان البدائى المتوحش فى فجر التاريخ ، وحقق المصريون بانتصارهم على الطبيعة مجتمع الوفرة ، ويقول « فان لون » : ان انسان ما قبل التاريخ كان مضطرا لانفاق ستة عشر ساعة كل يوم سعيا وراء طعامه ، أما المصرى فان الخير الذى حققه لم يعقه عن اكتشاف الأديان والفلسفات ، ووضع أول أبجدية فى التاريخ .

وكان المقاتلون المصريون هم أول من جاوزوا فردية الكائن البدائى ، واكتشفوا نبالة العمل الجماعى ، إذ أنهم فى صراعهم مع النيل ، تعلموا كيف يعطون معا ، فشقوا معا قنوات الري ، وبنوا الجسور ، وأصبح القتال لديهم جهدا جماعيا متحضرا لصنع التقدم وحمايته ، وليس توحشا فرديا عدوانيا يسعى لاقتناص واغتصاب الآخرين .

وإذا كان صحيحا أن الانسان المصرى صانع حضارة ، فإن ما ليس صحيحا أن هذه وحدها مهمته ، وما يتعمد العقل الامبريالى نسيانه ، هو أن بناء الحضارة والدفاع عنها ، وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما : وقد كشفت خرافة هذا التقسيم عن وجهها الحقيقى ، عندما تدهورت الحضارة المصرية وسقطت لأن حمايتها لم يكونوا هم أنفسهم صناعها ، فالشعب المتحضر هو وحده الذى يعرف قيمة ما يصنع ، وهو وحده القادر على صيانة ما يبتكر .

ويبدو التطبيق العملى لفكرة تقسيم العمل واضحا فى القرون الخمسة التى سيطرت فيها الشراذم المملوكية والعثمانية على مصر . خلال هذه القرون سيطر الغزاة بالتطبيق الحاد لقانون تقسيم العمل ، ان المصرى هو (حامل الفأس) ، أما المملوك أو العثمانلى فهو (صاحب السيف) وكان التقسيم من العمق ، بحيث كان المصرى يدفع رأسه ثمنا بسيطا إذا دارت بتلك الرأس فكرة استبدال الفأس بالسيف . أما العثمانلى فهو يأنف من العمل ، ويرفض أن يمسك فأسا ، لكنه بالطبع لا يحرم نفسه من اقتناص ثمرات العمل ، وكل كتب تاريخ العصور الوسطى حافلة بصفحات سوداء لما كان يرتكبه حملة السيوف من جرائم فى حق الفئوس ، وكان من عادة أى عثمانلى - كما يروى الجبرتى - أن يختار أى دكان من دكاكين الحرفيين المصريين فيعلق سلاحه على بابيه ، ويسحب كرسيه فينام عليه طوال اليوم . ثم يصحو عند المغرب فيطالب صاحب الدكان المصرى بنصف إيراداته .

وأخطر تحول حدث فى تاريخ مصر الحديث هو الغاء هذا التقسيم الاستعمارى للأدوار .. وصحيح أنه طوال قرون السيطرة الاستعمارية ، لم يكف الشعب المصرى عن المشاغبة والمقاومة . لكن التحول الحاسم فى هذا حدث عبر حركة المقاومة الشجاعة التى صدت الغزو الفرنسى ، والتى أثبتت أن النفس المصرية التى تربت فى التصدى الشرس لمستنقعات الوادى ، ما زالت تحتفظ بمقوماتها الأساسية .

وهكذا أخذ « الجعيدية » و « الزعر » و « الفتوات » و « أوباش الناس » - وكلها تعبيرات للجبرتى يصف بها جماهير أولاد البلد - المبادرة فى الغاء ذلك التقسيم الجائر للأدوار ، وفى مجرى القتال تعلم الشعب كيف يقاتل ، واكتسب خبرة جعلته يتفوق على محترفى أقوى جيش أوربى فى ذلك الوقت . وببساطة أصبح الحرافيش والجعيدية جنرالات يرسمون خططا عسكرية ناجحة ، ويقاتلون ، وينتصرون ..

وهكذا اختلطت الألقاب ، وتداخلت الأدوار ، وسمعنا عن الجنرال / الشيخ عمر مكرم ، والجنرال / المعلم مصطفى البشتيلى ، بائع الزيت الشهير ببولاق ، والجنرال / الحاج أبو شعير قائد معركة كفر عشنا الباسلة .

ولدت يقظة مصر الحديثة من الغاء هذا التقسيم المزيف للأدوار . وهى اليقظة التى شهدت مدها العظيم خلال العقود الثمانية الأولى من القرن التاسع عشر ، وكان طبيعيا أن يكون بناء الجيش المصرى الحديث هو النتيجة الطبيعية لتحرك مصر من جديد على أرض القومية وفى ظل اعلامها .

ومع أن اتجاهات محمد على العثمانية جعلته يعزف عن تجنيد المصريين ، عندما فكر فى بناء الجيش حرصا على قانون تقسيم الأدوار ، فإنه اضطر أخيرا الى الاستعانة بهم ، فقد رفض جنوده من الباشبوزق - أو المرتزقة - الخضوع لتقاليد بناء الجيش النظامى ، وثاروا ثورة عنيفة لجرد أن مدريهم أرادهم أن يسيروا فى طوابير منظمة ، وكادوا يخلعونه .

وبتجنيده للمصريين ، اكتشف محمد على أن الجوهر الحقيقى للفلاح المصرى هو جوهر المقاتل القديم ، الذى طوع مستنقعات وادئ النيل الزهية فى نهاية عصرالخليد ، وأن زوحهم الجماعية الراقية تطبعهم بطابع النظام ، وتجعلهم يخضعون لنظام التسلسل القيادى فى الجيش ، ومع ذلك فإن (محمد على) لم يتوسع فى تجنيدهم الا عندما تقلصت العناصر العثمانية فى خروبه الأولى العدوانية ضد الجزيرة العربية والثورة اليونانية والسودان .

وهكذا لم يشترك المقاتل المصرى - بشكل حقيقى - الا فى حرب تتواءم مع طبيعته المتحضرة ، وهى حرب تثبت الاستقلال ، وخلالها جرد الجيش المصرى الشام كلها وسوريا ولبنان وفلسطين من أسر السيطرة العثمانية ،

وشطر جيش الفلاحين المصريين الامبراطورية العثمانية الى قسمين ، وأعلن استقلال مصر عن تركيا ، وواصل تقدمه فتخطى حدود تركيا نفسها ، ودارت الحرب في الأناضول وعلى مبعده خمسة أيام فقط من ضفاف البسفور .

أدى قيام الجيش المصرى بتبعه حروب تثبيت الاستقلال - كما يقول الاستاذ صبحى وحيدة - الى عودة المصريين الى صنعة السلاح بعد أن هجروها ، وأدى انشاء الجيش الى تكتل المصريين والتقاءهم فى ميدان القتال بالشعوب الأخرى ، فشعروا بشخصيتهم ووحدتهم واختلافهم عن غيرهم .

وربما لهذا السبب تحركت الدول الأوربية فى هجوم عسكري شرس ، حطم جزءا هاما من قوة مصر العسكرية ، فى محاولة لاعادة قانون تقسيم الأدوار الى العمل . . . وهم ظل يقود محاولات القوى الاستعمارية ، ودفعها الى تحطيم محاولة احمد عرابى الرائدة لالغاء السيطرة التركية المملوكية على الجيش ليضمن توحد التيار القومى داخله . وبعد هزيمة الجيش بالخيانة والتآمر ، ظن الاستعماريون أن القانون قد عاد للعمل ، ولهذا دهشوا وذهلوا وهم يرون ما حدث فى مارس ١٩١٩ .

ولكن المناخ المصرى أيامها - ١٩٧٢ - كان مثقلا - بل ومتخما - بأفكار بالغة التشويش ، وكنت وما زلت أرى أن مشكلتنا كانت اننا لا نعرف أى حرب نريد . كان البعض يطالب بالثأر ، وكان آخرون ينظرون للأمر كله باعتباره استرداداً لقطعة أرض مفتصبة . وكان قليلون يرون أنه ليس بالأرض وحدها يتحرر الشعب ، ويصرون على أن ما نريده هو حرب تحرير شعبية .

ولعلى كنت من الذين يرون أن حروب التحرير ليست ثأرا ، انها ليست استعادة عدد من أمتار الأرض طالت أو قصرت ، اتسعت أو ضاقت ، وهى ليست شيئا للتدمير والفتك أو حيا فى الولوغ فى الدم . انها شئ أهم وأرقى من هذا كله ، هى ببساطة : استرداد انسانية الانسان ، وتحصير طاقاته الخلاقة والمبدعة ، من أسار القهر والتخلف والتبعية .

والاستعمار ظاهرة بلا ضمير أو عقل . . . انه آلة عنف هائجة متدنية المشاعر والملكات ، ومعه لا فائدة من مخاطبة العقل ، ولا أمل فى ايقاظ الضمير . فقبل هذا أو ذلك لابد أن يرفع يده ، وأن يتحطم عنقه الاستعمارى الدموى ، يعنف ثورى دموى ، يتطهر به المستعمر كما يتطهر به الذين يناضلون من أجل حقوقهم . . . والتجربة الانسانية كلها تقول أن الاستعمار لا يرفع يده الا والسكين فى عنقه . والوجه الآخر لهذه المقولة الصحيحة هو أن الشعوب المستذلة والمقهورة لا ترفع قامتها المنحنية والمستذلة ولا تسترد انسانيته الا اذا كانت يد كل فرد من أفرادها تمسك السكين وتلامس بسنها الحاد الجلد الناعم الغليظ لرغبة الاستعمار .

فى وهج حرب التحرير ، تتطهر الشعوب المقهورة من رجس
الاستعمار .. تختفى الخلافات الطائفية والقومية .. وتنقى المشاعر
الاجتماعية والملكات الفكرية من كل العناصر غير العقلية ، ذلك أن العنف
الثورى ، مصفاة تسقط من ثوبها ظواهر كثيرة ، ولا يبقى على سطحها
الا بشائر التقدم ، وجحافل الزحف نحو المستقبل ، فالعنف لا يسترد فقط كل
الأرض .. بل أيضا كل النفس .

* * *

وتجربة شعينا مع كل المستعمرين ، تكشف عن نصيبهم من الضمير ،
فحتى الدين الذى يصوغ الضمير بمعناه المطلق ، يتحول عندهم الى العوبة
تبرر استنزافهم للشعوب وفى الوقت المناسب ، يتكشف مدى حرصهم عليه
وإيمانهم به .

كان العثمانيون مسلمين ، تحملت الشعوب الاسلامية حكمهم الغبى بكل
ضراوته ، لأنها صدقت زعمهم بأنهم يدافعون عن الرسالة المحمدية .. فتحول
العالم الاسلامى ببشره وموارده الى بحر ينزحون منه ما يمولون به قصورهم
المكتظة بالحريم والصبيان المرذ والجواسيس والمعتقلات ، وكل مظاهر
الكفر بالله .

وفى كل مرة يشهد فيها شعبنا معركة ضد الاستعمار الأوربى ، أو
يشتبك فيها معه ، يثبت العثمانيون أنهم يعرفون جيدا لمن ينتمون ، ويؤكدون
أن اختلاف الدين بين المستعمرين لا يفرقهم ، فالاستعمارى للاستعمارى كالبنيان
المرصوص ، يشد بعضه بعضا .

وهكذا تحالف العثمانيون مع دول أوربا الاستعمارية لتصفية نظام
« محمد على » ، برغم أن جيوشه قد وقفت فى المرحلة الأولى من حربها ضد
تركيا عند حدود قومية ، لا تتضمن عدوانا على الأراضى التركية ، بل أن
« محمد على » اعترف فى معاهدة كوتاهيه بوجود صلة بين مصر المستقلة
وبين السلطنة العثمانية .

واستمر الحلف الاستعمارى يحرض السلطان العثمانى على نقض
المعاهدة فيضغط على « محمد على » ليمنعه من اعلان استقلال مصر استقلالا
كاملا من الناحية الأخرى ، ليس هذا فقط ، بل أن السلطان شارك دول أوربا
فى تحريض الشعوب العربية التى حررها « محمد على » من نير الاستعمار
التركى على الحكم المصرى ، مستغلا بعض الأخطاء الطفيفة ، ومركزا على
أن « محمد على » عاص .. خرج على « خليفة رسول رب العالمين .. خاقان
البحرين وسلطان البحرين .. وحامى حرمين السلطان محمود » .

وهكذا تحرك « الضمير الاسلامى » للمستعمر العثمانى ، ليستخدم ضد ثورة مصر الاستقلالية ، وهو ما فعله « السلطان عبد الحميد » بعد ذلك عندما خان « عرابى » وطعنه فى الظهر ٠٠ وكان « عرابى » قد تبادل رسائل سرية مع السلطان ، أكد له فيها مولانا الخليفة أنه يؤيده فى دفاعه عن مصر ، وأنه لا يثق بالخدويو « توفيق » ٠٠ وفجأة و « عرابى » فى خط النار يستعد للمعركة الفاصلة ، صدر منشور العصيان الشهير من قلب قصر يلدز ، وبين سحائب دخان النرجيلة ، ورقص الجوارى ، وتهريج المضحكين ٠٠ طبعت مئات الألوف من نسخ هذا المنشور الذى يقول أن « عرابى » خارج عن دين الاسلام ، لأنه خرج عن طاعة ولى الأمر الشرعى « الخديو توفيق » ، وعلى هذا فان من يموت تحت رايته يموت كافرا ٠ وحتى آخر لحظة ظل « عرابى » يرفض أن يصدق أن « خليفة رسول الله » هو الذى أمر باصدار هذا المنشور ، حتى انه رفض اقتراحا « للنديم » بطبع المنشور والرد عليه ٠٠ بينما كان عملاء الخديو يوزعونه بغزارة على ضباط الجيش المصرى وجنوده ، أما المخابرات البريطانية فقد طبعت منه ملايين النسخ ووزعتها فى شبه الجزيرة الهندية ، وبلاد العرب ، وعلى كل المسلمين الذين كانوا يساندون بالمشاعر والتحرك السياسى محاولة الشعب المصرى النبيلة لتحرير نفسه ٠

ولا يختلف الضمير السياسى للمستعمرين عن ضميرهم الدينى ٠٠ وتجربة شعبنا معهم تؤكد هذا ٠٠ لقد جاء « نابليون » الى مصر بعد عشر سنوات من اندلاع الثورة الفرنسية الكبرى ٠٠ جاء وهو يحمل ضميرها السياسى : نائر كورسيكى قاد الثورة فى جزيرته واندمج فى عالم باريس الثائرة المتفجرة بشعارات الحرية والاخاء والمساواة ٠

وأثبت الثائر الكورسيكى القادم من طرف « فرنساوية البنى على الحرية والتسوية » أن ضميره السياسى حى جدا ، فعلى الرغم من أنه وعد أعضاء الديوان بالعفو العام عن كل من اشترك فى ثورة القاهرة الأولى ، وراج عنه وقتها هذا التسامح النبيل ٠٠ فقد كشفت وثائق الحملة بعد ذلك عن أنه - كما قال - كان يعتبر الرأفة فى ذاتها « فضيلة تافهة حقيرة » ، لذلك أصدر أمرا سريا الى الجنرال برتية « بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين قبض عليهم ويدهم السلاح ، فليؤخذوا الى شاطئ النيل ٠٠ ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس فى النهر » ٠

وبسرعة وعى حرافيش القاهرة درس الاعتماد على ضمير المستعمرين ٠٠ الذين أعدموا الثوار دون محاكمة قانونية ، وخرقوا أبسط القواعد فى معاملة الخصوم السياسيين معاملة متحضرة ٠٠ وفى ثورة القاهرة الثانية رفض الحرافيش لقاء السلاح ، وكذبوا كل وعود العفو التى جربوها ، وكان منطقهم بسيطا - وعظيما - أنت مع المستعمرين لا تتعامل مع ضمير ٠٠ أنت

معهم أما شهيد أو منتصر أو مقتول غدرا .. ولا داعى أبدا لهذا الاحتمال
الثالث .

وخلال معارك شعبنا الضارية والمستبسلة ضد الاستعمار ، اكتشف الشعب أن المستعمرين لا يستعيدون ضميرهم الا عندما يسيل دمهم ، وأن القتال هو الوسيلة الوحيدة لا لتحقيق نصر فحسب ، ولكن لانقاذ الحضارة من الظاهرة الوحشية المنافية لجوهر الانسان : الاستعمار . وأيضا فإن القتال هو الوسيلة الوحيدة للتطهر من أدران ما يصيب الشخصية القومية من مثالب وعيوب .. وأن الوعى ينطلق من فوهات البنادق ، أكثر مما ينتشر من ثمرات المقاهى .

قبل الحملة الفرنسية كانت مصر منقسمة على نفسها قوميا .. وأى مراجعة سريعة لتاريخ الجبرتى ، تنتهى بحصيلة وافرة من حوادث الصراع الضارى بين العريان والفلاحين ، بحيث لم يكن يمر يوم دون معركة على مشارف المدن : يهجم العريان على الفلاحين فيسرقون البيض والدجاج ، وينهبون كل ما جاء الفلاحون يبيعونه فى أسواق المدن .. وخلال حرب التحرير اختفى هذا كله ، ترك العريان مضاربهم ، واختلطوا بالفلاحين ، ووضعوا خبرتهم العسكرية فى خدمة المعركة ، وشنوا معا حربا ضارية ضد الغزو ، ومعظم قبائل العريان التى توطنت وادى النيل والتحمت به قوميا ، قد فعلت ذلك فى تلك المرحلة بالذات .

ومن يراجع تاريخ المرحلة ، بين هزيمة الثورة العرابية وتفجر ثورة ١٩١٩ ، يكتشف بأسى ومزارة أن الخلافات بين المسلمين والأقباط ، وصلت الى الذروة ، وفى لحظات ، وعندما بدأت لغة الدم والعنف ذاب كل هذا .. ودهش الاستعماريون لهذا التبلور القومى السريع ، الذى جعل الهلال والصليب شعار الثورة ، وكانا يتقاتلا قبل سنوات قليلة ، فأصبحا يقاتلان معا .. وأصبحت مصر هى المعنى الذى يموت ويسجن وينفى ويشرد من أجله كل الأقباط وكل المسلمين ، وهذا التبلور القومى - بما يعنيه من تأكيد علمانية الدولة وديموقراطية الحكم - هو الابن الشرعى لمواجهة العنف الاستعمارى بعنف مثله ، ذلك أن نفى الاستعمار من الواقع بقوة السلاح هو نبضه داخلنا .. والانقسامات القومية والطائفية لا تحدث ، لأن الاستعماريين يطبقون شعار « فرق تسد » فقط ، بل أساسا لأنهم خلقوا وضعا يجعلنا نستجيب لهذه المؤامرة . فعندما يكون الشعب مستذلا محبطا يشعر بالقهر ، لا يستطيع أن يواجه المستعمر أو يرد على عنفه وتجبره بعنف مثله ، يقوده كل هذا الى عنف مرتد الى الذات .

والاستعماريون يعيشون بذلك الشرطى الذى يزرعونه داخلنا ، فيشلنا عن التفكير ويمزقنا من الداخل .. وتدرجيا نصدق أنهم كائنات علوية ..

وأنا كائنات دونية ٠٠ وأصغر تصرفات المستعمر تتعمد تأكيد هذا التقسيم ٠٠ حتى أن « اللورد كرومر » - وهو من أهم مهندسي الاستعمار البريطاني لمصر - كان يفخر بأنه لم يسمح لأى مومس انجليزية بالعمل فى مصر ، وبينما كانت مصر مليئة بشرانم أوربية ممن يبتدلون الجسد المصرى ، ويحولون بنايات البيوت المستورة الى غايات ، فان اللورد أعلن فخره لأنه لا يسمح لأشياء مصرية أن تلامس الجسد الانجليزى المتفوق ٠٠ حتى ولو كان جسدا مبدولا لمن يدفع الثمن .

ومرة انتقد « الخديو عباس حلمى الثانى » أسلوب المدرسين الانجليز العاملين فى الجيش المصرى ، فأثار « اللورد كرومر » أزمة سياسة حادة ، لأن « شىء مصرى » قد جرؤ على انتقاد بريطانيا العظمى ، ولم تحل الأزمة الا بعد أن أجبر خديو مصر على الاعتذار رسميا فى الوقائع المصرية ، منحيا بذلك رأس مصر كلها فى الرغام أمام التجبر الاستعمارى .

وبعد الحرب العالمية الثانية كان « أمين عثمان باشا » يجمع شباب مصر ليقول لهم بعربية متكسرة :

- انجلترا غلبت المانيا فى الحرب . فيه ناس مجانين بتفكر تحاربها .

ولأن هذا هو التعبير المركز لايدولوجية التجبر والاستذلال ، فان الرد الوحيد الذى استحقه أن انقض عليه عدد من المجانين « فأسكتوه الى الأبد » واثبتوا أن انجلترا ممكن غلبها .

وفى كل مرة خاض فيها شعبنا تجربة العنف ضد المستعمر تظهر من أشياء كثيرة . وتفجر الوعى من فوهات بناذقه ، ومن رطوبة الخنادق التى حفرها . وكان اختلاط الدم المصرى بالدم الاستعمارى ، هو الوسيلة الوحيدة لتطهيرنا من كل أدراننا الفكرية والاجتماعية ولتطهير المستعمر ذاته ، واعادته الى الجوهر الانسانى .

وكل فترات اليقظة التى ارتجفت بها مصر ، كانت ابنة العنف فى مواجهة الاستعماريين : حدث هذا خلال اليقظة التى قادها « محمد على » ٠٠ وخلال التحدى العظيم الذى قاده « عرابى » ٠٠ وبعد ثورة ١٩١٩ .

من هذا العنف ولدت مصر الديموقراطية والمتحررة . وتفجرت بالفن والفكر والابداع . وترقت الصراعات بين أبنائها ٠٠ من صراعات متخلفة بين المسلمين والأقباط أو العربان والفلاحين الى صراعات فكرية وسياسية تنتمى لقضايا العصر وتسمع نبضه .

ان حرب التحرير الوطنية ، تعنى ببساطة أن تحمل كل يد السونكى أو السكين ، وتلامس بنصلها الحاد الجلد الناعم الغليظ لرقبة الاستعمار ٠٠

بهذا نسترد كل الأرض ٠٠ وكل النفس ونساهم فى تحطيم حضارة الاستعمار
وبناء حضارة الانسان .

.....
.....

كان الجهر بأفكار مثل هذه فى تجردها وعموميتها قد أصبح مزعجا
للكثيرين ، ولم تكن المشكلة مشكلة هؤلاء الذين تعالى صراخهم فيما بعد
- بما كانوا يهمسون به أيامها - اعتراضا على ما سموه بـ « الفلسفة »
و « النظريات » وينعتونه بمقالات « الطوب والزلط » يعنون به كل كتابة أو كلام
تعجز عقولهم القاصرة عن فهمه أو استيعابه ، يخدمون بذلك فى المدى القصير
- والبعيد - كل الذين يهتمهم أن يتسطح وعى الشعب . وأن تظل الظواهر
كلها أمامه غير مفهومة أو مبررة أو مترابطة .

لم تكن المشكلة هؤلاء وحدهم ، ولكن الشعب نفسه كان قد مل كلاما
كثيرا سمعه طويلا ، وتبين له أنه كذب صريح وقبيح ، وكانت نكسة يونيو
(حزيران) قد حطمت كل الأوثان ، وربما كانت تلك فضيلتها الوحيدة وكان
لا بد أن يمر بعض الوقت قبل أن يستعيد الناس ثقتهم بأن الكلام الذى استخدم
للضحك عليهم ، ليس هو المسئول عما حدث ، وأن الذين هزموا الوطن قد
لوثوا - بالعبث والتهريج والديماجوجية - قيما عديدة كالفكر والخزية
والاشتراكية .

كان لا بد من العودة الى الينابيع ، ليستعيد الناس ثقتهم فى أن كل شىء
ليس وهما ، وكانت محاولة مستمرة قد نجحت فى تشويه التاريخ ، بحيث
بدا لكثيرين من الناس أن الاستشهاد سخف ، والبطولة حماقة ، وتقديس
مهرجون أو شبه مهرجين ، بينما اختفت كل رموز المقاومة والتحدى .

وفى عام ١٩٦١ مرت خمسون عاما على ذكرى وفاة « عرابى » ، فلم
يلتفت اليها أحد ، ولم يعن بها كاتب ، ولم تتحدث عنها جريدة ، وبعدها مرت
مناسبات تاريخية متعددة ، لقيت نفس الاهمال : ذكرى عمر مكرم ومحمد كريم
والنديم والبارودى . وتحكم قانون التنافس البرجوازي فى أحط صورته
وأكثرها ابتذالا - مواصلا بذلك دورا قديما لعبته البرجوازية بعد ثورة ١٩١٩ -
عندما تحكم الانقسام الحزبى فى المناسبات القومية التى كانت الأحزاب تحتفل
بها ، فلم يحتفل الوفد مثلا بذكرى « عرابى » أو « مصطفى كامل » أو
« النديم » . ولم يحتفل الحزب الوطنى بذكرى ثورة ١٩١٩ ، والغريب أن
تلك الأحزاب كلها كانت تحتفل بذكرى « محمد على » وشاركت فى مهرجان
مرور خمسين عاما على وفاة « اسماعيل » ، فضلا عن حماسها الدائم والمستمر
للاحتفال بأعياد الجلوس والميلاد الملكية .

وبعد ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ أصبح الإهمال كاملا ، والصمت تاما ، ولم يكن لذلك من معنى الا أن يوقر في نفس الشعب ، ان الذين كافحوا مع « مصطفى كامل » أو الذين قتلوا في ثورة ١٩١٩ وضحوا بحياتهم ، يتساوون مع من ماتوا في مشاجرة عابرة في الطريق .

في عام ١٩٦٦ توفى المناضل المصرى « وسيم خالد » وتصادف أنه توفى في الاسبوع نفسه أو بعده بقليل لاعب كرة مصرى شهير هو « رضا » وصحيح أن بعض أصدقاء وسيم قد كتبوا عنه ، ولكن المساحات الهائلة التي خصصتها صحفنا لرضا - رحمه الله - زادت عما كتب عن « وسيم » عشرات المرات . ولم يكن لدى أحد اعتراض على تكريم ذكرى « رضا » باعتباره مواطنا أظهر تفوقا في ميدان من الميادين . ولكن الأمور كان ينبغى أن توضع في مكانها الصحيح ، فنحن عندما نحتفل بذكرى مواطن نوكد قيما معينة . اننا نقدم لشبابنا وأطفالنا « البطل » كما نتصوره وعندما نهمل ذكرى مناضل مثل « وسيم خالد » ونقدم عليها ذكرى لاعب كرة . فنحن نقدم الكفاح ضد الاستعمار والتخلف والرجعية كقيمة أقل مكانة وأدنى من قيمة الكرف في الملاعب والفر في المباريات !

لكن أحدا فيما يبدو لم يكن يعنيه كل هذا . على العكس من ذلك ، تملك الحساسية المرضية كثيرون ممن كانوا يملكون أن يقولوا فيستمع الآخرون لما يقولون تجاه كل ذكريات الماضى ففرض حصار اعلامى على أسماء رجال مثل : مصطفى النحاس ومكرم عبيد ، وجيل ما بين الثورتين (١٩١٩ - ١٩٥٢) ولم يدرك الذين فعلوا هذا أنهم يضربون الشعب فى الصميم ، مهما زعموا أنهم يقفون فى صفه .

وفيما بعد ، وفى ضوء الرماد الذى تخلف من تحطيم المعابد والأوثان ، بدأ المفلسون البحث فى دفاترهم القديمة . وهكذا شهدت سنوات ما بعد النكسة ، الاحتفاء - البالغ فيه أحيانا - بالذكريات الوطنية ، فى عام واحد - هو ١٩٦٩ - احتفل رسميا بذكرى مرور خمسين عاما على ثورة ١٩١٩ وعلى وفاة محمد فريد ، وبعدها بقليل احتفلت الصحافة بمرور تسعين عاما على الثورة العربية ، وكان ذلك كله خيرا . . . لكنه جاء متأخرا جدا .

.....
.....

ولست أزعم أنني كنت واعيا بذلك كله عندما قررت أن أطالع القارىء بهوامشى تلك على صفحات جريدة الجمهورية كل صباح ، توثق صلته بتاريخ وطنه وأمته ، وتكشف الرماد الذى يغطى شعبا كجمرة النار لا ينطفئ

حماسه ٠٠ لكنى على الأقل كنت أنطلق من المناخ الذى أعيش فى ظله ، والذى كان يفرض على كل من يعيه أن يفعل ما يظن انه الصواب لكى يحافظ على معنويات كان ضروريا الحفاظ عليها باعتبارها الذخيرة الحقيقية لمواجهة ذلك الذى حدث فى حزيران ٠

ريما كانت الهوامش - اضافة الى كل ما قلت - آنذاك ضرورة لى أنا نفسى ، فبرغم ادراكى أن عملا مثل هذا قد لا أكون أفضل من يتقنه ، ومع أن عديدين من أصدقائى ، كانوا مجاملين عندما طالبونى بأن أوجه جهدى الى ما يسمونه بـ « الدراسات الثقيلة » أو « الاستراتيجية » لكنى بشيء قريب من الالهام الفنى ، كنت أشعر بضغطه على برغم وجهة ما قاله الأصدقاء ، ولكن فكرته ظلت مشروعا غير قابل للتنفيذ ، لأنه كان يحتاج وسيلة النشر التى تتواءم مع هدفه ، فيصل الى أعرض الناس ، ويكون تراكما فكريا وزادا معنويا يوما بعد يوم ، فلم يكن تأليف كتاب هو هدفى ، ولكن الالتقاء اليومي والمباشر بقارئ ما زال يؤرقنى أن تواصلنا معه ، ليس حميما بالدرجة التى نرجوها ٠

وهكذا سعت الهوامش الى قارئها لأول مرة ، صباح يوم ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ ، وفى الوقت نفسه سعت الى المشاكل ٠

ولعل الترتيب الزمنى لنشر هذه « الهوامش » هو ابلغ الأدلة على المناخ الذى كتبت فيه ، والذى كان قاسيا بدرجة لا تحتمل ، وقد لاحظت وأنا أعد هذه المجموعة منها للنشر ، اننى على امتداد الفترة بين ١٩ يونيو (حزيران) ١٩٧٢ ، ٣١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٧٤ قد توقفت عن كتابتها ثلاث مرات ، لفترات تتراوح بين ثمانية أشهر ، وثلاثة أسابيع ٠

فقد استيقظت ذات صباح لأجد اسمى فى قائمة بأسماء عدد من الكتاب والشعراء والصحفيين تقرر فصلهم من عضوية الاتحاد الاشتراكي العربى ، وصدر القرار من شيء ما كان يسمى أيامها « لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكي » ، وتضمنت مذكرته التفسيرية ما يفيد بأن ذلك يستتبع فصل هؤلاء من عملهم الصحفى ٠ وكان الأمر مضحكا جدا لى ، واستكمالا للمهزلة أرسلت برقية للمرحوم الدكتور حافظ غانم - وكان أميننا أول للاتحاد الاشتراكي - نصها :

« أحتج على فصلى من الاتحاد الاشتراكي الذى لست عضوا فيه » ٠

وهكذا اختفت الهوامش لمدة تسعة أشهر كاملة بين ٤ فبراير (شباط) و ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٧٣ ٠

وفى صيف ١٩٧٤ وأبان تفجر معركة مجلة « الكاتب » واشتداد الصراع داخل مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر ، أوقفت عن كتابتها لمدة ستة أسابيع

كاملة ، ارضاء للمرحوم الأستاذ يوسف السباعي ، الذي اتهم « الهوامش » بأنها هاجمته بضرارة من خلال اسقاطات تاريخية على شخصيات تحمل اسم يوسف ، وكما أوقفت فجأة عن الكتابة ، دعيت فجأة للعودة ، وعدت .

واستيقظت ذات صباح آخر ، لأجد فوق رأسي ضابطين وثلاثة مخبرين ، قادوني الى تخشيبية قسم السيدة زينب ، ثم الى سجن القلعة ، فسجن طرة ، متهما فيما سمي آنذاك بقضية التنظيمات اليسارية ، لأظل أربعة أشهر في انتظار واقعة واحدة تيرر هذا المزاج الثقيل ، وعندما لم يقدموها للقضاء ، اضطروا أسفين للافراج عني .

طوال هذه الفترات ظلت الهوامش يتيما تبناه عدد من الأصدقاء ، لكنه وقبل أن أسترد حريتي بأيام قليلة ، غادر « مصطفى بهجت بدوي » « الجمهورية » وجاء الأستاذين « محسن محمد » و « ابراهيم الورداني » فكان أول ما فعلاه قبل أن يستقرا هو الغاء « الهوامش » بين زوايا أخرى كثيرة لم تعد منذ ذلك التاريخ الى صفحات الجمهورية ، وتركت مكانها لأبواب مثل « سوق السيارات » و « سوق الأوراق المالية » وجرائم من نوع « شقيق يتزوج شقيقته » .

وقد انزعجت فعلا وأنا أقلب قصاصات هذه الهوامش مما سببته لي ، ولصديقي « مصطفى بهجت بدوي » من مشاكل ، وأشهد أن الرجل كان ودودا وصبورا ، وأنى لأدين له بأفضال كثيرة ، فقد مد الى يده ، بعد خمس سنوات من البطالة الاجبارية ، في وقت كان الجميع يصرون فيه على أن أمثالي ينبغي أن يموتوا من الجوع ، فأكد ثقتي التي لم أفقدها يوما - رغم كل شيء - بأن وطننا - على طول القهر وبشاعة التخويف - لم يفقد عناصره النبيلة والوطنية .

وما أظننى مبالغا حين أقول أن هذه « الهوامش » قد سببت لي من التوتر والضيق ، واستنزفت - على بساطتها - جهدا عصبيا وعقليا ضخما ، لكن ما يدهشنى وأنا أتذكره الآن لأكتب بعضه ، كيف تحملته ولماذا ؟

دخلت « الهوامش » لعبة الصراع بين اليمين واليسار على الطريقة المصرية ، وفوجئت منذ أول يوم لنشرها ، بحملة معادية لها بين صفوف محررى الجمهورية أنفسهم ، ولأننى لم أكن قد درست جيدا قوانين الصراع المهنى ، فقد دهشت لذلك ، ثم عرفت أن من « تقاليد المهنة » أن الزوايا والأبواب - يومية أو اسبوعية - تتعلق بالأقدمية لا بالكفاءة ، وبما أئنى - آنذاك - طائر جديد على الوسط الصحفى ، فقد أزعج كثيرين أن أحوز « شرف » كتابة زاوية يومية ، رغم أئنى رفضت أن أتقاضى عنها مكافأة اضافية ، كما رفضت أن أوقعها باسمى الصريح . واخترت اسما مستعارا هو « المقريزى » .

وأخذت الحملة شكل التشكيك فى أمانتى العلمية ، وأصبح من الأحاديث الصباحية فى « الجمهورية » أن يقول واحد أو أكثر أن هامش اليوم يتضمن خطأ فى ذكر تاريخ أو واقعة . ثم تبدأ حملات الاستفزاز والتشهير ، وكان ما يبعث على الضحك حقا أن أصحاب هذه الأقوال كانوا أغبى من أن يخفوا حقدهم ، الذى قادهم - فى معظم الأحيان - الى الكشف عما يتميزون به - وحق التسمية للصديق الشاعر أحمد فؤاد نجم - من « جهل عصامى » نادر المثال .

وعندما تكسرت نصال هذه الحملة ، وفشل وقودها ، جددت وقودها بالصراع السياسى الذى كان كامنا ، ثم بدأ يشتعل من جديد على ضوء أحداث الأسابيع الأولى من عامى ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ عندما بدأت الانتفاضات الطلابية تفرض نفسها على الاهتمام العام ، وقد طرحت هذه الحرب الباردة نفسها على صحيفة « الجمهورية » حيث قوانين الصراع المهنى محرك أساسى ، يتقنع غالبا بأرضية سياسية ، ولست أدرى ما هى الحكمة الخفية ، فى أن اليمين المصرى قد انطلق بهذه الكثافة والوقاحة بل « الفجر » بعد حرب أكتوبر ؟

لكن ما حدث أننا فوجئنا ذات صباح من أواخر عام ١٩٧٣ بقرار ادارى يعزل الأستاذ « عبد العزيز عبد الله » ، رئيس تحرير الجمهورية التنفيذى عن منصبه ، ليحل محله الأستاذ « ممدوح رضا » ، وكان مديرا لتحرير العدد الاسبوعى ، وقيل أن ذلك تم بتوجيه شفهى من الدكتور « عبد القادر حاتم » - وكان أيامها نائبا أول لرئيس الوزراء - ولم يكن نمط الأستاذ ممدوح الانسانى غريبا على ، فقد كنت أعامل قبلها معه معاملة لم تخل من توتر : كنا نمطين بشريين مختلفين نفهم الصحافة بمنهج مختلف ، وكان لابد أن تتوتر معاملاتنا ، وأن تنقطع أحيانا ، فى حدود القانون العام الذى يحكمها وهو أنها علاقة اجبارية ، لكنى لم أسمح أبدا لأحد أن يمارس على صلاحيات منصب لم ينتخب صاحبه انتخابا ديمقراطيا ، لهذا قاومت محاولات دائبة منه لتشويه ما أكتب ، بالاختصار أو بالتغيير ، بما يخرج آرائى على غير ما أريد لها .

وبعد أيام قليلة من توليه مهام منصبه الجديد ، اتضح لى أن جهة ما أوصته بالهوامش خيرا ، وأذكر أنه استدعانى يوما وأغلق علينا مكتبه ، وفى حديث ناعم وطويل بدأه بمدحى أئبائى أن الاتحاد الاشتراكى غير راض عن الهوامش ، وأنه - أى الأستاذ ممدوح - يفضل أن أكف عن الكتابة فى التاريخ وأن أحول « الهوامش » الى باب يتناول انتصارات أكتوبر . قلت موضحا : ان للباب وظيفة محددة ، واهتمام محدد ، وان تطبيق قاعدته تلك يعنى الغاء كل أبواب الجريدة وتحويلها الى الحديث عن انتصارات أكتوبر ، وقلت أنه

لا مانع لدى من أحداث ما يطلبه - أو ما نذكر لى أنه طلب منه - إذا ما تم تحويل صفحة الرياضة وصفحة التسلية وصفحة الجريمة الى صفحات اكتوبرية . فعاد يؤكد لى أن أحد أعضاء الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى قد أبدى له عدم رضاه عن هامش كان قد نشر قبل أيام ، يتحدث عن صحفى تافه الشأن خدم الملوك ولعق أذيتهم ، وابتكر صحافة الجنس والاثارة ، هو كريم ثابت . ودهشت لأن الاتحاد الاشتراكى يغضب للهجوم على كريم ثابت ، الذى حوكم أمام كل أنواع المحاكم ، والذى كان باعترافه أحد قوادى صاحب الجلالة الملك وصاحبة الجلالة الصحافة . لكنى ما كدت أغادر مكتب الأستاذ ممدوح رضا حتى وجدت مفاجأة فى مكتبى : رسالة حملها الى البريد من الدكتور « محمد سالم » الأمين العام للاتحاد الاشتراكى بكفر الشيخ وقتها ، وعضو الأمانة العامة ، تضمنت كلمات رقيقة عن الهوامش ، وأضاف : أن ما نشر بها عن كريم ثابت وعن المهلباوى قد أثار لديه بعض نكريات كتبها . وببساطة ، كتبت هامش ذلك اليوم عن خطاب محمد سالم ، وقدمته للاستاذ ممدوح رضا ، فاستدعانى بعد قليل ، لأجده قد افتقد نعومته المعروفة وبرودة أعصابه ، وقد اعتبر اننى بما كتبت ، أتهمه بالكذب ، ان قدمت له ما يؤكد أن الاتحاد الاشتراكى ليس معاديا للهوامش .

وما أظن أن الأستاذ « ممدوح رضا » كان قليل الثقة بذكائى الى تلك الدرجة ، فلم يكن الأمر مما يعسر ادراكه على من يملك حدا أدنى من الذكاء ، فمشكلة الهوامش أيامها ، أن كثيرين قد وجدوا فيما تنشر من حوادث تاريخية ، ما اعتبروه اسقاطا على الواقع السياسى الذى كان قائما آنذاك ، واعتبرها آخرون تعليقا سياسيا تاريخيا ، على ما كان يجرى فى مصر فى منتصف الحقبة الساداتية ، وجاملنى كثيرون اعتبروها - رغم انها كانت تاريخيا محضا - أفضل التعليقات السياسية فى الصحف المصرية .

وكانت دعوى الاسقاطات السياسية مشكلة تقليدية من مشاكل الهوامش ، ولكن الجهر بها بدأ فى هذه المرحلة ، عندما اندفعت جحافل من اليمين المصرى الغبى والجهول تستظل من هجير الصراع الفكرى بسحابات ثقيلة وقوية بما يمكنها من الهجوم الضارى وغير الأخلاقى على كل القيم التى كانت قد استقرت فى ثقافتنا الوطنية بعد سنوات من النضال المستبسل والاستشهاد النبيل .

كانت الشهور التى تلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، قد شهدت - للعجب - مدا يمينيا جارفا ، وبدأت الحرب على جبهة الثقافة التى كانت بطبيعتها أكثر حساسية لمواضعات وأشكال الصراع الطبقي . واندفعت جحافل اليمين طوال الصيف تمهد لمواسم الهجرة الى منافى الصمت . وتلج فى استدعاء السلطات ضد كل من يخالفها فى الرأى أو الاتجاه ، وكان الأمر مزعجا لتدنى

أساليب الصراع ، بعد أن تدهور اليمين المصرى ليصبح مجرد افرزات الأمعاء الغليظة لبرجوازية السبعينات ، مما جعل الناس يتحسرون على أيام كان اليمين فيها « لطفى السيد » و « هيكل » ، والمؤسف حقا أن هذا اليمين الجهول ، كان يطنطن بشعارات ديمقراطية رنانة ، فى وقت كان ضيقه واضحا بأى صوت غير صوته ، وكان التبشير بالفاشية هو جوهر دعوته .

ومع التعديل الوزارى الذى ذهب بالدكتور حاتم وأتى بالدكتور عيد العزيز حجازى نائبا أول لرئيس الوزراء « تغيرت القيادات الصحفية » وكان التغيير عن رغبة فى احداث توازن يعطى الوسط بعض الفرص للتأثير ، ويركز وجود التيار المتعاطف مع المغرب - وخاصة الولايات المتحدة - فى مؤسسة صحفية واحدة ، بحيث لا تختل التوازنات بين التيارات السياسية فى مصر بافتراض أن اليسار - الماركسى بالذات - تيار مرفوض .

وجاء اختيار « احمد بهاء الدين » لرئاسة تحرير الأهرام - وقتها - وتثبيت « مصطفى بهجت بدوى » كرئيس لمجلس ادارة الجمهورية ، تدعيما لتيار الوسط ذى النزعات الاصلاحية والراديكالية ، بظن أن هذا التيار مقبول من كل القوى . وقد شملت تلك التغييرات أيضا البدء بتصفية جهاز « د . عبد القادر حاتم » فى الصحافة ، وفى أجهزة الاعلام المصرية بعد أن ترك منصبه كوزير للاعلام . ففشلت محاولته لابقاء أصدقائه فى مناصب قيادية فى الصحافة المصرية ، إذ شملت التغييرات الصحفية - وقد جرت فى ربيع ١٩٧٤ - فقد اثنين من أقرب أتباعه اليه منصبيهما ، هما الأستاذين ممدوح رضا وابراهيم الوردانى - الذى كان قد عين عضوا بمجلس الادارة بتوجيه شفهي من د . حاتم - كما فشلت محاولة ضارية بذلها لطرد « مصطفى بهجت بدوى » من رئاسة تحرير الجمهورية ورئاسة مجلس ادارة دار التحرير .

وبرغم أن اليمين كان يملك مناير قوية فى دار الهلال ودار أخبار اليوم ، فان الأيديولوجية الرأسمالية الطفيلية التى كانت تلح وتضغط لكى يتم الزواج الكاثوليكي بين مصر والغرب - الأمريكى بالذات - قد رفضت هذه التغييرات وبدأت تقاتل بضراوة من أجل طرد « احمد بهاء الدين » و « مصطفى بهجت » ، وركزت هجومها عليهما باعتبارهما شيوعيين ، وهو ما كانت تعلم أنه كاذب تماما ، لكن ما كان اليمين الجهول ينقمه عليهما ، انهما لا يضطهدان الشيوعيين - واليساريين عموما - فى الصحافة ، كما أنهما كانا متحفظين لدرجة ما ، فيما يتعلق بالهجوم على عبد الناصر ، حيث يمثل ذلك انتهاؤهما الفكرى الحقيقى . هذا فضلا عن أنهما لم يغرقا فى التشبيب بالولايات المتحدة الأمريكية ، وتحفظا على جلافة التعبير اليميني عن الخلافات التى نشبت بين مصر والاتحاد السوفيتى ، ولم يكن للهجوم الشرس الذى تعرض له مصطفى بهجت بدوى وأحمد بهاء الدين ، من دلالة سوى أن كل من لا يعلن أمريكيته ،

وكل من لا يضطهد الشيوعيين أو الناصريين ، هو في مفهوم هؤلاء السادة شيوعيا .

أيامها كانت مشكلة الحريات الديمقراطية تفرض نفسها على الإلحاح العام . . على جبهات متعددة . كان النقاش يدور على جبهة السياسة حول ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكي التي كانت تجذب الاهتمام كما طرحت فكرة تعدد الأحزاب نفسها بالحاح من قوى متعددة ، وساندها اليمين الذي كان يتصور انه قوى ، وان الجماهير في صفه ، وان انشاء الأحزاب سيقود الجماهير الى أشرعته الممزقة ، كان غائبا عن الوعي فيما يبدو ، فلم يدرك طبيعة التغيير الذي أحدثته النظام الناصري بكل عيوبه في البنية الاجتماعية المصرية ، وبمجرد أن شعر اليمين أن الكتل العريضة من اليسار تسعى لانقزاع حقوقها الديمقراطية في الاستقلال ، حتى كشف عن فاشيته ، وبدأ يتحدث عن حريات تمنح فقط لمن يؤمنون بمصر وحدها لا من يستوردون الأفكار ، ولأن جبهة الثقافة والفكر بطبيعتها أكثر حساسية لمواضعات وأشكال الصراع الطبقي ، فقد اندفعت جحافل اليمين الجهول الشرس تركز بفاشيتها .

وكما يحدث في القصص الخرافية تماما ، فان مجموعة تعد على أصابع اليد الواحدة من محرري جريدة « الجمهورية » شكلوا تجمعا سريرا سموه « الصحفيون الوطنيون بدار التحرير » وبدأ هذا التجمع يصدر سلسلة من المنشورات السرية ركزت الهجوم على مصطفى بهجت بدوى باعتباره ، كما قالت هذه المنشورات ، زعيما خطيرا لتنظيم شيوعي يعمل في جريدة « الجمهورية » ويتقاضى مرتبا ثابتا من السفارات الشيوعية . وتضمنت هذه المنشورات هجوما على عدد من كتاب الجمهورية من مختلف فصائل اليسار هم : محمد عودة وكامل زهيرى وحسين عبد الرازق وعبد العزيز عبد الله وفتحى عبد الفتاح ومصطفى كمال والمرحوم عبد الحميد عبد النبى ، وعبد العال الباقورى ، ومحمد أبو الحديد وصلاح عيسى .

كان واضحا أن المنشورات تطبع في حماية جهة ما ، تستطيع ان تمنح حمايتها لمن يمارسون عملا يعاقب عليه القانون المصرى بقسوة بالغة ، خاصة أن تلك المنشورات بدأت تتجه الى عمال الطباعة بدار التحرير للطبع والنشر - التي تصدر عنها الجمهورية - زاعمة لهم أنهم لا يتقاضون حقوقهم الاقتصادية - ومنها بدل طبيعة العمل - لأن ميزانية الدار منتهية في شكل مرتبات مرتفعة ، تمنح للكتاب الشيوعيين الذين تنتهى كتاباتهم بتدهور توزيع الجمهورية ، وتكبيد الدار خسائر فادحة لأنهم ليسوا صحفيين ، ولا يعرفون كيف يجذبون القارئ . ومع أن المنشورات كانت بهذه الصيغة تتجه لتحرير مباشر على المتمرد فان الصحفيين اليمينيين الذين كانوا يصدرونها ويوزعونها ، استمروا في ذلك ، وهو ما بدا غريبا أن يصدر عن عناصر افتقدت طوال

عمرها أية شجاعة حقيقية ، ولم تقم يوما بعمل مخالف للقانون - مهما، ضؤل -
الأمر الذي أكد بلا جدال أنهم يحتمون من هجير القانون بسجابات شتاء : ٠
حر أغسطس .

وقد يفيد أن أقدم هنا نصا كاملا لأحد هذه المنشورات ، أنقله عن كتاب
« مذكرات رئيس تحرير » الذي كتبه الأستاذ مصطفى بهجت بدوى ، وهو
وثيقة بالغة الأهمية ، ومرجع أساسى لكل من يريد أن يدرس المكارثية على
الطريقة المصرية أو العربية عموما ، ومن قلم لا يستطيع أحد أن يتلهمه فى
نزاهته أو صدقه ، وفى الكتاب اشارات متعددة لوقائع تتعلق بهذه الهوامش ،
ويمكن لمن يريد أن يعود إليه ، ولكن استكمالا للمناخ الذى كانت تلك الهوامش
تصدر فيه أكتفى هنا بنص كامل لأحد المنشورات السرية التى كان الصحفيون
الوطنيون يدار التحرير يصدرونها ، وكان العثور عليه قد أعيانى إلى أن
نشره الأستاذ مصطفى بهجت فى كتابه (ص : ٢١٢) :

جريدة الجمهورية •• قاعدة للحزب الشيوعى الجديد :

« تسيطر على صحف دار التحرير مجموعة من العناصر الشيوعية هم :
بدر الديب - محمد العزبى - محمد عودة - كامل زهيرى - فتحى عبد الفتاح -
صلاح عيسى - عبد الحميد عبد النبى - مصطفى كمال - حسين عبد الرزق
ويساندهم العميل عبد العزيز عبد الله • وتردد هذه المجموعة الآن أن
التوجيهات قد صدرت من القيادات الشيوعية فى رومانيا وبلغاريا إلى
مصطفى بهجت بدوى ، خلال زيارته أن يجعل صحف دار التحرير منبرا
لليسار فى مصر • ويؤكدون أن هذا المنبر سوف يتحول إلى حزب شيوعى
جديد فى الأسابيع القادمة • ويردون فشلهم والعجز المسالى المتضخم فى
المؤسسة ، بأن المنابر العقائدية لا يجب أن تستهدف الكسب بل يجب أن تعان
من الدولة شأن ما يجرى فى الدول الشيوعية •

ومن الغريب أن مجموعة الشيوعيين المسيطرة على « الجمهورية »
تتصرف الآن على أساس حزب ، وهم يتخذون مواقف سياسية واضحة ضد
القيادات والعناصر الوطنية وكبار المسئولين فى مصر ، ويستخدمون الأبواب
والمنابر المختلفة فى صحف الدار للترويج لما يريدون •

ولعل أبرز مثال يمكن أن يقدم فى هذا المجال « هوامش المقريرى »
بجريدة الجمهورية ، الذى يتبادل كتابته مصطفى بهجت وصلاح عيسى ،
والذى نشر فيه خلال الستة أسابيع الأخيرة مجموعة مقالات تهاجم الحرمات ،
وعندا كبيرا من الوزراء وكبار المسئولين والكتاب الوطنيين فى مصر •

ودعما لمواقفهم وخطتهم فى تكوين حزب شيوعى جديد هم على صلة
بجهات خارجية تصدر صحفا مشبوهة فى بيروت منها ، جريدة « بيروت »
وجريدة « السفير » ومجلة « بيروت المساء » ومجلة « البلاغ » وهم ينشرون
مقالات تتضمن هذه الآراء والسومم التى تنشر فى الصحف المصرية واللبنانية
المشبوهة ، فى وقت واحد .

ومراجعة جريدة « الجمهورية » ومجلة « الكاتب » مع الصحف اللبنانية
خلال الأسبوعين الأخيرين تؤكد ما نقول وتثبتته ، بقى أن نقول أن هذه
المجموعة الشيوعية تتلقى دعما خارجيا يصل الى بعضهم فى صورة مرتبات
شهرية تنشر اليوم فقط جانبا منها : كامل زهيرى ٥٠٠ جنيه استرلينى
شهريا ، محمد عودة ٥٠٠ جنيه استرلينى شهريا ، محمد العزبى ٢٠٠ جنيه
استرلينى شهريا ، صلاح عيسى ١٥٠ جنيه شهريا ، عبد الحميد عبد النبى
١٥٠ جنيه شهريا ، فتحى عبد الفتاح ١٥٠ جنيه شهريا .

اننا نثق فى يقظة القيادة المصرية ونؤمن بأنها لن تسمح باستمرار هذه
المهازل .

« الصحفيون الوطنيون بدار التحرير »

والغريب أن بعض ما تضمنته تلك المنشورات ، بدأ يظهر فى مقالات
مكتفة فى صحف دار الهلال ودار أخبار اليوم - وكان يرأس مجلس ادارة
الأولى وقتها الاستاذين فكرى أباظة وصالح جودت والثانية الاستاذ على أمين -
بل وحتى فى صحيفة الجمهورية نفسها التى كان اليمين يمارس فيها ابتزازا
واضحا فى حماية من لا أعرف بالتحديد ، تتحدث عن سيطرة الماركسيين على
دور الصحف فى مصر ، لأنهم يقودون ويوجهون ثلاثة دور صحفية هى
« الأهرام » أحمد بهاء الدين - « والجمهورية » مصطفى بهجت بدوى -
و « روزاليوسف » عبد الرحمن الشرقاوى .

ورغم أن تلك كانت أكذوبة واضحة الافتراء ، الا أنها أكدت شيئا
واحدا ، هو أن الوسط أيضا أصبح غير مقبول ، وأن اليمين المصرى
لا يرضى الا بديموقراطية ديكتاتورية ، تتيح له أن يتكلم وحده ، بعد أن يجمت
الجميع ، وأنه مفلس فكريا بدرجة ينزعج فيها من أى تصد له ، ويخشى أن
تؤدى أية مواجهة الى تعريته أمام الجماهير بما يعزله تماما عن التأثير .

ووصلت الحملة الى درجة من الانحطاط ، أصبحت فيها المنشورات
تستعدى السلطة علنا مطالبة بشنق الصحفيين والمثقفين اليساريين ، وخصصت
جانبا كبيرا منها لـ « هوامش المقرئى » مكتشفة بذكائها البتذل والرخص
أنها تتضمن « اسقاطات » على هذا وذاك من المسئولين ، وانها تنقدم بتلك
الاسقاطات مستخدمة التاريخ كراء تنقع خلفه وتتوارى وراء ظهره ، وبدا

ذلك مضحكا ومدعاة للسخرية ، فاليمين المصرى الذى يدعى أنه كان فارس الدفاع عن الحريات الديمقراطية يوم أهدرت هذه الحريات يطبع منشورات سرية لينبئه الحكومة الى أن هناك من ينقدها (!!) .

ويبدو أن مصدرى تلك المنشورات كانوا يتصورون أن « الهوامش » تهمة تقضى على من تلصق به ، لذلك حرصوا على التأكيد بأن الهوامش يتبادل كتابتها مصطفى بهجت بدوى وصلاح عيسى ، ولم يكن ذلك صحيحا بهذا المعنى ، إذ لم تتجاوز عدد الهوامش التى كتبها مصطفى بهجت بدوى عشرون أو ثلاثون ، عندما كانت ظروف طارئة تضطرنى الى عدم الكتابة ، أو عندما تعترض الرقابة - وكانت مفروضة أيامها على الصحف - على الهامش فى آخر لحظة قبل الطبع ، لكن الاصرار على تأكيد تلك الأكذوبة كان ينطلق من رغبة لدى من ألفوا هذا الغناء ، لشفاء صدورهم من أحقاد كانت تملأها على الرجل الذى لم يكن - حقيقة - يصارعهم ، ولكنه كان بأخلاقه وصدقه وشرفه ، يكشف كم هم أقزام وتافهين وكذبة وفريسيين . ودخلت الحملة فى آفاق غريبة ، عندما حط على القاهرة الصحفى المصرى المهاجر « محمد جلال كشك » ، ولست أدري حتى الآن من الذى استورده ، ومن الذى أملى عليه ما عاد ليكتبه متضمنا هجونا ضاريا على « الهوامش » ومعتادا التفسير الذى تقدمه المجموعة التى تسمى نفسها بـ « الصحفيين الوطنيين بدار التحرير » .

لم يكن وراء تلك الحملة شىء سياسى بشكل حقيقى ، وكان هذا هو المزجج فى الأمر كله ، فما حدث ، هو أن قرار تعيين الأستاذ « ممدوح رضا » رئيسا لتحرير « الجمهورية » كان توجيهيا شفهيًا ، من الدكتور حاتم ، وجاءت القرارات التى أصدرها رئيس الجمهورية بعد ذلك بتشكيل مجالس ادارات الصحف ، ولم تعتمد هذا القرار الشفهي ، وظن الأستاذ ممدوح رضا أن مصطفى بهجت كان وراء فقده لهذا المنصب الهام ، وهكذا تولدت المشاكل والصراعات وتكونت مجموعة الصحفيين الوطنيين بدار التحرير ، التى نفى الأستاذ ممدوح رضا فى أكثر من اجتماع على صلته بها .

ولم يكن الأمر رغم سخفه ، من المسائل التى يمكن أن يأخذها الانسان بشكل جدى ، وكنت قد نقدت مرة الأستاذ « ابراهيم الوردانى » فى جلسة ضمت عددا من محررى الجمهورية وقلت أنه يهاجم من اصطلاح - آنذاك - على تسميتهم بمراكز القوى ، ناسيا أنه كان أحد الذين مدحوم وشببوا بهم ، وقبل أشهر قليلة من أحداث ١٥ مايو (آيار) ١٩٧١ وصف شعراوى جمعة - وزير الداخلية الأسبق - بأنه خفير مصر القومى ووصف السيد ضياء الدين داود بأنه « ضياء مصر » ، وقلت أن ذلك كله يمكن قبوله - على مريض - لو أن الاستاذ الوردانى لم ينقلب فجأة بعد ١٥ مايو ليهاجم هؤلاء ، ويقول فيهم

ما لم يقله مالك فى الخمر ، ويدعى أنهم اضطهدوه وعذبوه وعذبوا مصر كلها معه ، فلا يمكن أن يتغير رأى الانسان فى الآخرين بهذه السرعة .

وانكر أن الأستاذ معدوح رضا رفض لحظتها ما قلته ، وقال بالحرف الواحد :

- وفيها ايه ؟ مش كانوا بيحكموا مصر ؟ وماله لما يمدحهم !!

وقلت اننى لا أعترض على المدح فى ذاته ، ولكنى أعترض على التقلب السريع فى المواقف بسرعة ، ورد الأستاذ معدوح :

- مافيهاش حاجة .

ولم يكن نمط الأستاذ معدوح غريبا على ، لكنه كان كفيلا بالآخذ الانسان ما يقوله ماخذ الجد ، أو أن يعتبر أية معركة يكون طرفا فيها معركة سياسية . ولم تكن الأمور تختلف كثيرا بالنسبة للآخرين .

واشتبكت خيوط معركة « الجمهورية » بخيوط أزمة مجلة « الكاتب » التى تفجرت فى نفس الفترة تقريبا ، وشاءت الظروف أن أكون قاسما مشتركا فى المعركتين ، وقد أصبحت معركة الكاتب معروفة التفاصيل الى درجة الاملال ، لكنها - وهذا هو المهم الآن - كانت وجها آخر لذلك الذى يجرى على صعيد الصحافة ، وكذلك الذى يجرى على غيرها من الأصعدة ، وقد بدأ الأستاذ يوسف السباعى - وكان أيامها وزيرا للثقافة - ضيق الصدر سريع الاستثارة ، ولكثرة ما أدلى به من أحاديث حول أزمة « الكاتب » بدأ ثرثارا كثير الكلام ، وعصبيا مهتاج الأعصاب ، لكنه لم يفقد القدرة على رؤية هدفه بوضوح ، كان باختصار يعير عن ضيق عارم بكل ما هو يسارى ، ولم يكن فى ذلك سوى مستقبل جيد لمناخ من رفض اليسارية ينتشر فى الأبنية الفوقية المصرية كالوباء . وبرغم ثرثرات كثيرة قبلت عن الديمقراطية أيامها ، فقد بدت لى ، اللقيط الذى ينكر الجميع أبوته .

ولا شك أن الأستاذ يوسف السباعى مناور ذكى ، يدعو لاعجاب من تفتنهم مثل تلك الصفة ، ان كان هدفه منذ اللحظة الأولى أن يبعد اليسارية عن « الكاتب » كصفة مذمومة لا يرضى عنها ، ويثق أنه ليس وحده الساخط عليها أو المصارع ببسالة ضدها . وهكذا اندفعت جوقة اليمين تركب هجومها على تلك الصفة الرديئة فى الكاتب ، عبر مقولات « ديمقراطية » بالغة « الفكاهة » تلك هى أن « الكاتب » مجلة تنقد نظام الحكم . كأن الديمقراطية هى مدح نظام الحكم ، والتشبيب به ، والنفاق لمن يتولون أمره « وفيها ايه ؟ مش بيحكموا مصر ؟ » كانت حملة مضحكة ، تورط فيها عدد ممن كنت الى فترة قريبة أقدرهم ، حتى أن ناقدا محترما ، ذو تاريخ ، هو مصطفى عبد اللطيف

السجرتى قال فى مقال له : أن احدى مقالات « الكاتب » ضد الحكومة وأن كاتبها يهاجم فيها الرأسمالية وختم مقاله بقوله : أنه مع « الحرية » ولكن « الحرية المقيدة » ، وهى عبارة تدعو لضحك كالكباء ، انها تساوى تماما الاشتراكية الرأسمالية و « الأبيض الأسود » و « الفاشية الليبرالية » (!!)

ولم يكن هذا البلاغ البوليسى المضحك ، الذى توج به الأستاذ السجرتى حياته كناقذ سوى ترديد لبعض المنشورات التى أصدرها الصحفيون الوطنيون بدار التحرير ، والتى تحدثت عن التنسيق بين « الكاتب » و « الجمهورية » كجزء من مؤامرة دولية ، ومع ان الأستاذ يوسف السباعى هو الذى بدأ الهجوم على أسرة الكاتب ، بمقال نشرته له « الجمهورية » نفسها جاء متخما بالمعلومات الخاطئة ، المطرزة بالفاظ من السباب العلنى ، الذى يعاقب عليه القانون ، فقد أزعجه أن « مصطفى بهجت بدوى » سمح للدكتور « محمد أنيس » ولصاحب هذه السطور ، بالرد على الوزير ، وبدا واضحا أن ديمقراطية الاستاذ السباعى تعنى أن نسكت نحن ليشتمنا هو ، حتى لو اتهمنا بالخيانة . و « تحرك » الصحفيون الوطنيون بدار التحرير يتحدثون عن الكاتب والجمهورية ويرون فى هامش كتبته عن وزير مملوكى اسمه « يوسف البباوى » ، اسقاطا على كبار المسئولين فى وزارة الثقافة .

فى مواجهة تلك الحرب الشرسة والأخلاقية تحركه الكتاب اليساريون فى دار التحرير فى محاولة لتحديد المسئولية عن هذه الحملة . وفى لقائين متتاليين جرى أولهما مع د . احمد كمال أبو المجد - كان وقتها وزيرا للإعلام - وجرى الثانى مع السيد ممدوح سالم - وكان وقتها نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية - تساءلنا :

— ماذا يجرى بالضبط ؟ هل هناك جهات رسمية تضيق الى هذا الحد بصحفيين وكتاب يساريين محدودى العدد ، ويخضع كل ما يكتبونه للمراجعة قبل أن ينشر . والى أين تتجه الديمقراطية فى مصر الساداتية ؟

وبدا الدكتور كمال أبو المجد رجلا طيبا ومتفهما . قال أنه راجع قوائم المرتبات والعلاوات فى الجمهورية ، وتأكد له أن أهل اليمين كذبوا عندما زعموا أن مصطفى بهجت بدوى يغدق الأموال على كتاب اليسار ، وان القوائم أكدت أن اليساريين فى الجمهورية يعملون ، بينما يحصل اليمينيون على العلاوات والمرتبات .

وفيما بعد أثبتت تطورات الأحداث أن د . كمال أبو المجد رجل طيب ونبيلا حقا لكنه يعيش فى زمن لا يقدر تلك الصفات الطيبة حق قدرها .

وفى حين اتفق « د . أبو المجد » مع « ممدوح سالم » على نفى أن هناك رضاء رسميا عما يفعله من يسمون بالصحفيين الوطنيين بدار التحرير ، فان

ممدوح سالم شخص المشكلة تشخيصا بدا غريبا ، فقد نظر اليها باعتبارها مشكلة « أمن ونظام ، وضبط وربط » ، لذلك كان كل ما اهتم له أن هناك شغبا في « الجمهورية » وأن هذا « الشغب » يدور بين عشرين من محرريها نصفهم من أهل اليمين والباقي من أهل اليسار . فيجب أن يتوقف لأن هناك ٢٠٠ محرر آخر ليسوا طرفا فيه ، ويؤثر على أعمالهم .

في زحام المناقشة معه ، ضاعت فكرة بأن العدل يفترض تحديد المسئول عن الشغب ، وأن هناك تفرقة ينبغي أن توضع في الاعتبار ، بين المعتدى والمعتدى عليه . لكن الجو كان قيظا أيامها ، ولذلك بدا السيد ممدوح سالم ضيق الصدر ، وأن كان قد ذكر بثقة أن أجهزة الأمن بوزارة الداخلية ستصل الي من يصدرن تلك المنشورات أيا كانوا ، وأن سيادة القانون سوف تطولهم أيا كانوا ومنهما كانوا . وهو وعد لم يتحقق ، فبعد شهور قليلة ، جاءت حملة يناير ١٩٧٥ ، وكنت أحد ضحاياها .

في كل ذلك كانت « الهوامش » قميص عثمان الذي يرتديه كل فاشستي يطنطن بالديمقراطية ، وكل فاشسل يحاول أن يخفي فشله المهني بأردية سياسية ، تكأكا عليها المزورون والأفاقون والمأجورون ، وأحاط بهم الحقد والصغار والتفاهة والجهل ، وهدف الجميع هو أن تتوقف النافذة التي تطل كل صباح على الناس ، تحمل فصولا من تاريخ وطن عظيم عانى كثيرا ، وتعب كثيرا ، ربما بسبب ذلك النوع من الناس .

بيد أن الأمل الشريير لم يتحقق واستمرت « الهوامش » تنشر كل صباح برغم أنها كانت قد تحولت الى مصدر ازعاج لي ولصديقي مصطفى بهجت بدوى ، وأصبحت مصدرا لاستنزاف جهدى وعقلي ، ففي الفترة التي كان الاستاذ ممدوح رضا يتولى رئاسة تحرير الجمهورية ، كنت أكتب سبعة « هوامش » أسلمها له في بداية الاسبوع وبعد يومين يتوقف النشر بدعوى أنني لم أسلمه سوى اثنتين ، وتكرر الأمر بصورة استنزفتني عقليا ، إذ كنت أكتب ثلاثين هامشا في الاسبوع ، لينشر منها خمسة أو ستة ويذهب الباقي الى حيث لا أعرف حتى اليوم .

وجاء صباح ..

صدرت التغيرات الصحفية ، وذهب « مصطفى بهجت بدوى » كاتبها في « الأهرام » ، وجاء محسن محمد وإبراهيم الورداني ادارة الجمهورية . أيامها كنت في سجن ليمان طرة ، وكنت أقرأ « الهوامش » ، التي كان يكتبها آنذاك صديقي الاستاذ عبد العال الباقوري ، حفاظا على غيبتى ، وانتظارا لأوبتى ، وفي اليوم التالي ألغيت صفحة الرأى ، وحلت صفحتا الرياضة محل اليوميات في الصفحة الأخيرة ، واختفت الهوامش ليحل محلها ما يكتبون من غثاء .

ومن وقتها وأنا أفكر فى إصدارها فى كتاب .

كنت قد وعدت القارىء بأن يكون لحكايات من مصر مجموعة ثانية ، ولكن الشهور مرت وأنا لا أجد وقتاً أتفرغ فيه له . وعندما طال الزمن ، فكرت فى أن أستجيب لطلب بعض الأصدقاء فى أن تكون « الهوامش » مجموعة ثانية وثالثة من هذه الحكايات . وذلك ما فعلته فى هذا الكتاب .

وعندما جمعت ما نشر ، لاحظت أن كثيراً مما كنت أكتب ، كان يتغير عند النشر بالاختصار أو التعديل أو الخطأ الطبعى المقصود . الخ . من أساليب الحرب القذرة التى يتقنها من يريد ما . كما أن أصول كل ما كتبت قد ضاعت ، ومكثت أراجع هوامشى المهشمة ، محاولاً أن أعيدها - بقدر الامكان - الى الأصل الذى كتبتة ، وما أظننى نجحت ، وأعدت ترتيبها زمنياً ، واخترت أن تتوقف تلك المجموعة الأولى منها عند ثورة ١٩١٩ ، وأرجو أن تتاح فرصة قريبة لتصدر المجموعة الثالثة من « حكايات من مصر » متضمنة هوامش المرحلة بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ .

ولست فى حاجة فى النهاية الى أن أقول ، ان هذه المجموعة الثانية - كما كانت الأولى - هى صلاة صوفية فى معبد الأم الشجاعة التى تعلمنا على يديها الحب والصبر والكبرياء .

صلاح عيسى

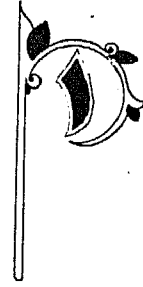
Handwritten text at the top of the page, possibly a header or introductory paragraph.

Second paragraph of handwritten text, continuing the narrative or discussion.

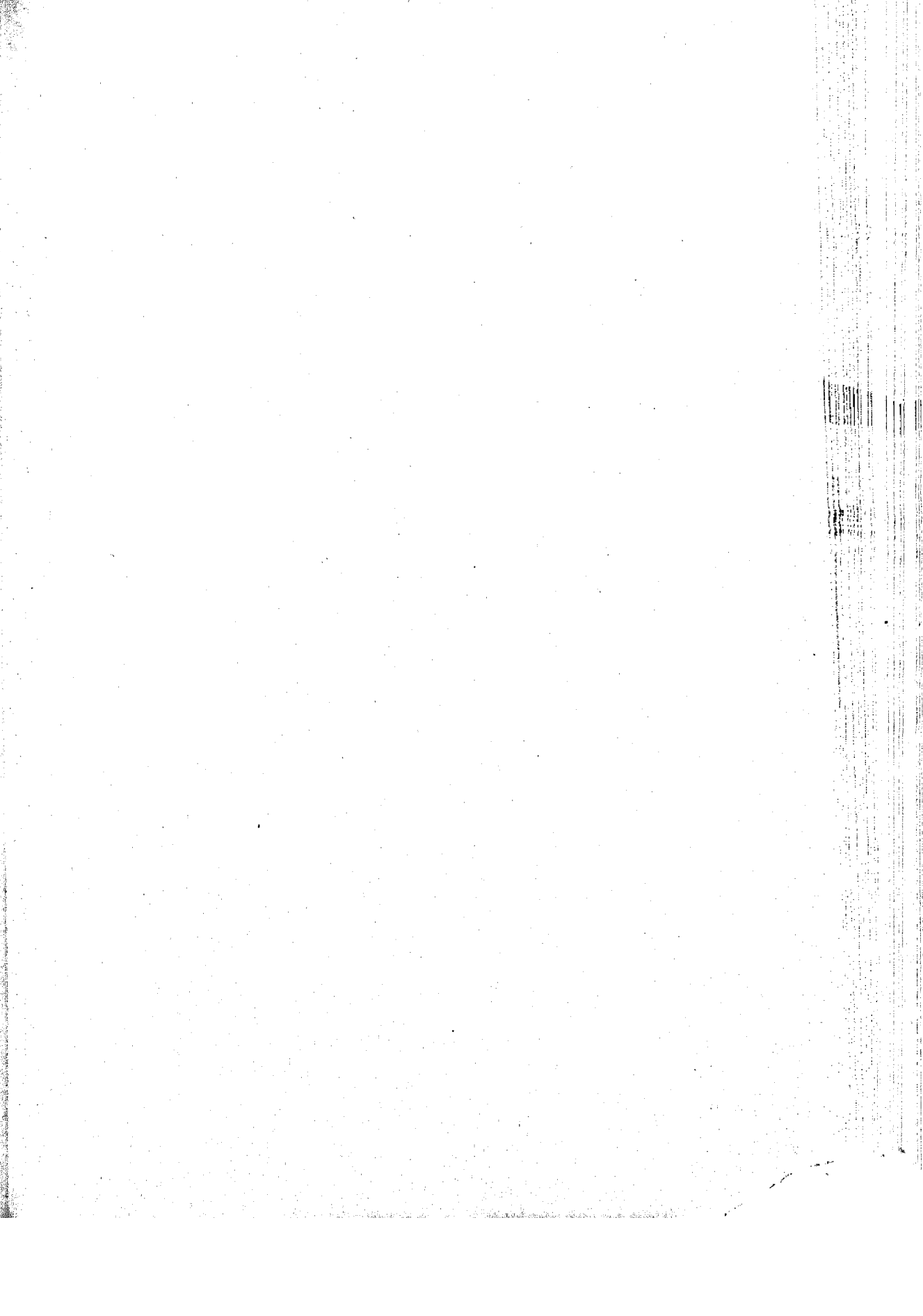
Third paragraph of handwritten text, appearing to be a concluding statement.

Handwritten signature or name located in the lower right quadrant of the page.

قبل الفجر الأول



- كشف السيئات - العجة والبصارة - آفة الذهب - العاقل والجاهل -
- بآية حال عدت ؟ - اعزاز دين الله - سماط الأحران - السلطة فى المزاد -
- خاطر السلطان - الشيخ الاقصرائى - بين الزفر وشنيعة - عظمة السلطان
- قلة - ضحك كالبكاء - زمن بلا قلب - ريمة المملوكية - الاسلام والسلطان -
- اولاد الناس - السلامونى والمنافقين - الواعظ المجهول - عن النجوم والقمر -
- اللعبة والمساة - اللعب بالسيف - الشيخ ابو السعود - الجسد فى المشنقة -
- الباشا والشيخ - الأمير خاين بك - المجناكارقا المصرية - العيال على العرش -
- يحكمون بالأكذوبة - مرة واحدة فى العمر - صانومة الدجال - السؤال
- الغريب - الجنرال فرط الرمان - قلب الطاغية الحنون - كم قهرت جبابرة -
- الأمير والبقرة - الشعر قبل الموت - تهمة الاتحاد القديمة •



كشَف السِيئات

قتل آخر الولاة الأمويين على مصر لأن ملك النوبة رفض أن يجيره
وأبى أن يحمى ظالما سرق الشعب ونهبه وكبده العذاب ، أو ما هو شر من
العذاب .

كانت الدولة الأموية قد سقطت وانتقل الحكم الى العباسيين ، وأرسلوا
الى المشام يطلبون آخر من بقى من ولاة بنى أمية . . ولما سمع « عبيد الله بن
مروان الحمار » الوالى الأموى على مصر ذلك أدرك أن دوره قد حان فدخل
الى خزائن أمواله ، وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهبيا وحملها هى وأمتعة
غالية على اثنى عشر بغلا ، واصطحب جماعة من العبيد والغلمان ، وخرج
من القاهرة هاربا غايته بلاد النوبة فى جنوب مصر . فنزل فى قصر مهجور
فى طريقه ، وفرشه ببعض ما كان معه من ريشا فاخر ، ثم أرسل الى ملك
النوبة يطلب منه أمانا على نفسه .

ولما علم ملك النوبة بحلوله فى أرضه ، أرسل اليه أنه قادم للقاءه ،
وأصر عبيد الله - رغم أنه حاكم مخلوع - على أن يبدو فى نظر ملك النوبة
مهيبا ، فأمر بأن يفرش القصر المهجور بما معه ، وجعل فى صدر المكان
وسادة ليجلس عليها الملك اذا قدم ، ووقف فى شرفة القصر ينتظره ، وراه
من بعيد ، رجلا أسود طويل القامة نحيف الجسد ، وحوله عشر حراس فقط
فاستصغر أمره ، واحتقره . لكن ذلك لم يدم طويلا .

فما أن جلس ملك النوبة حتى فوجيء به الوالى المخلوع ، وهو يستجوبه
استجوابا قاسيا .

سأله الملك :

- كيف سلبتم ملككم وأخذ منكم ، وأنتم أقرب الناس الى نبيكم ؟

ورد عبيد الله :

- ان الذى سلب منا ملكنا أقرب الى نبينا منا .

واندفع ملك النوبة يعدد للوالى المخلوع ما كان يرتكبه من مظالم :

- فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم ، وأنت لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصيد ، وتكلف أهل القرى ما لا يطيقون ، وتفسد الزرع ، وتجبر الأهالى على تقديم الأطعمة والهدايا لك ولحاشيتك ، وكل هذا من أجل أن تصيد طائرا لا تزيد قيمته على دراهم قليلة ؟

وطأطأ الوالى المخلوع رأسه وهو يستمع الى عريضة اتهام طويلة .. وكشف حساب لسيئاته التى لا تعد ولا تحصى .. وهو صامت لا يتكلم بحرف واحد .

وقال ملك النوبة فى ختام حديثه :

- لقد استحللتكم ما حرم الله عليكم .. وسمتم رعاياكم عذابا لا يطاق ، فلماذا سلبكم الله ملككم ، وأخذ منكم ، وأوقعكم ، نقمة لم تبلغ غايتها عنكم ، وأنا أخاف على نفسى ان أنزلتكم عندى ، فتحل بى تلك النقمة التى حلت بكم ! .. فارحل عن أرضى بعد ثلاثة أيام والا أخذت ما معك من الأموال وقتلتك !

فلما سمع الوالى الهارب ما قاله ملك النوبة ، خرج من أرضه فى يومه ، وعاد الى القسباط فقبض عليه الوالى العباسى ، وكانت تلك نهايته !

العجة والبصارة

عرفت مصر فى العصر الفاطمى لونا من الحكام كانوا استمرارا لعذابها الطويل ، لكن الشعب المصرى كان يملك دائما نكاء لم يفقده لحظة ، وقدرة على السخرية لم تفارقه أبدا ، وبهذا لم يستطع الفاطميون معه حيلة ، فكلما أغلقوا بابا للكلام فتح الشعب نافذة ، وكلما أوصدوا شباكا حفر لنفسه طاقة فى الجدار .

كان المصريون قد اعتنقوا المذهب السنى منذ دخلوا فى الاسلام ، وجاء الفاطميون ليفرضوا عليهم مذهبهم الشيعى ، ولأنه فرض من أعلى فان أشكال مقاومتهم له تعددت ، وتنوعت بالتالى أشكال القهر واللوانه ، وكان لابد من الاحتجاج على ذلك ، وهكذا تحول خطباء المساجد الى معلقين سياسيين يتحدثون فى أحوال الدنيا ، بكلمات تبدو بريئة المظهر ، وكأنها عظة عادية مما يقال كل صلاة ، بينما هى فى جوهرها تعليق سياسى ساخن على ما يجرى بين المصريين وحكامهم .

وفى كل جمعة كان الخطيب يقف ليتحدث عن شىء من سيرة النبى أو أصحابه أو التابعين ، وبعد لحظة يكتشف المستمعون أن الخطيب يتحدث عن الحاضر بلغة الماضى ، وأن ما يرويه ليس عظة عادية ، ولكنها طاقة يفتحها فى جدار الصمت ، وتمضى فترة ، يكتشف خلالها الحاكمون لعبة خطباء المساجد فتصدر الأوامر اليهم ، صريحة وواضحة ، بالكف عن تناول موضوعات معينة من سيرة الصحابة والتابعين ، وبعدم استخدام الماضى للحديث عن الحاضر .

فى أحد مساجد القاهرة وقف خطيب الجمعة ، وبعد أن بسم الله وحمد الله وصلى على الرسول الذى قال « ان المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » ، استطرد مفسرا الحديث قائلا انه يعنى أن على المؤمنين أن يكونوا أقوياء ، وواصل الخطيب كلامه قائلا :

– والطعام مصدر من مصادر القوة .. والبصارة يا عباد الله من أفضل الأطعمة لتقوية المؤمن وهى تصنع من فول مجروش تشرب ماء ، ثم دق فى ماجور أو سحق فى رحى .

واستمر الخطيب يتحدث عن طرق صنع البصارة ، والفرق بين الطريقة المصرية والطريقة الشامية فى طهيها ، وبين طبائع أهل دمياط وأهل الصعيد فى تناولها .. ودهش المصلون وظنوا خطيب مسجدهم أصيب بلوثة .. لكنهم بعد دقائق أدركوا أن الخطيب المشاغب قد أمر بالكف عن الكلام .. وأنه لم يجد وسيلة ليقول لهم ذلك الا أن يتحدث فى موضوع ليس موضوعه .. موضوع يجعله يبدو هازلا .

وفى الجمعة التالية كان الأمر قد صدر للمخيطب بعدم الكلام عن البصارة
أو العجة أو أى طعام آخر .

أفة الذهب

نكبت مصر المملوكية بحكام كان منهم المجنون والسفيه والطاغية ،
أضحكها البعض وأبكاها الآخرون ، وعذبتها هؤلاء وأولئك .

وكان الأمير « خمارويه » هو أشهر حكام مصر فى سفهه وتبذيره ، كان
يحب الخيل فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاصطبلات السلطانية ، وكانت
لها أنساب مثبتة فى دواوين القصر السلطاني كأنساب الناس المعروفة ، وكان
مولعاً بالعمارات وغرس الأشجار ، لدرجة أنه أنشأ ميداناً بالقرب من جامع
أبيه - « احمد بن طولون » - فنقل إليه الأشجار من سائر البلاد الهندية
والشامية ، حتى من خراسان ومن مكة ومن اليمن ، فكان به سائر الفواكه
وسائر الرياحين وأنواع من الزرع لم تدخل مصر قبله .

وبلغت به الهواية حدا جعله يزرع أنواعاً من الرياحين ويجعلها
كالسطور تقرأ ، فبعضها يكتب آيات قرآنية أو حكم ، وبعضها الآخر يكتب
شعارات تمجيد لشخصه الكريم .

ووصل به الأمر أنه عين لهذه السطور المزروعة أكثر من بستاني بأيديهم
مقصات من الذهب والفضة ، ليصلحوا بها ما يفسد من الأوراق ، ويخرج
عن قالب الاعتدال فى الأحرف حتى يستقيم الكلام فى معناه . . . ليس هذا فقط
بل أنه غطى جذوع الأشجار الضخمة بالنحاس الأصفر المطلى بالذهب ، فكانت
الشمس اذا طلعت على تلك الأشجار لا يستطيع أحد أن ينظر إليها من شدة
اتقاد ذلك النحاس الموه بالذهب . . . وكان يسحق المسك والكافور وينثره
على تلك الرياحين الكابية .

فى وسط ذلك البستان الخرافى أنشأ « خمارويه » بحيرته الشهيرة التى
ملأها بالزئبق ووضع على سطحها فراش من جلد أفعى من الحرير ، وكان
يملاً ذلك الفراش بالهواء ، وينام فوقه على الزئبق وسط مهرجان من الأضواء
والعطور . . . ويقال - والعهد على المؤرخين - أنه كان يشكو من الام فى
المفاصل لا يستطيع معها أن ينام الا بهذه الطريقة الملوكية .

ومما يروى عن سفيه أنه خرج مرة يتنزه فلقى اعرابى فأخذ بعنان
فرسه ، وأنشد شعرا يقول :

إن السنان وحسد السيف لو نطقا
لحدثا عنك فى الهيجاء بالعجب
أفنىت مالك تعطيه وتبذله
يا آفة الفضة البيضاء والذهب

وأعجبت الأبيات « خمارويه » وأراد أن يؤكد للشاعر أنه فعلا آفة الفضة
والذهب ، فالقى إليه بكل ما معه ، وكل ما مع رفقائه .

فى زحام التاريخ اختفى « خمارويه » ، ولم يترك سوى حكاية ابنته
« قطر الندى » التى زوجها جدها الى الخليفة « المعتضد بالله » ، وأرسلها
فى موكب لم يشهد له التاريخ مثيلا ، قطع المسافة بين القاهرة وبغداد فى
سنة أشهر ، وترك أيضا من مآثره أعجوبة النوم على فراش من مطاط فوق
سطح من الزئبق !

وترك أيضا أغنية مليئة بالشجن ، لا ندرى أهى فرح أم حزن ، أهى
زغرودة زفاف أم ترنيمه عزاء ، لعل المصريون أعادوا توزيعها موسيقيا لتدل
على حالهم مع الأمير آفة الذهب . أغنية تقول : « يا للحنة . . يا للحنة
يا قطر الندى » .

العاقل والجاهل

تولى « محمد بن طغج الإخشيد » ولاية مصر ، وأسس بها ملكا ودولة
عاشت أكثر من عشرين عاما ، وأصر قبل أن يموت أن يتركها لخدمه ، بسبب
شخصيته الغربية . . ونفسيته المريضة .

كان الإخشيد متقلب المزاج ، شديد البخل ، سوداوى الطبع ، يعاوده
فى الحين بعد الحين صرع يهيج به فيخرجه عن طوره ، ويدفعه الى العنف
بمن رفق به ، والغلظة مع من عاملهم بالحلم ، ومن أحواله التى يرويها
التاريخ ، أن اثنين من قضاة الشرع فى هذه ، اختلفا فى بعض مسائل

انفقه وشاع خلافهما فاستدعاهما ليتناظرا فى المسألة التى اختلفا عليها أمامه وفى مجلسه ، وظل طوال الجلسة يتابع الحوار بين القاضيين مستمتعا ، وفجأة استنفزه ارتفاع صوت القاضيين ، فأمر بأخذ عمامتيهما ونزعهما عن رأسيهما وطردهما من المجلس .

ومن أطواره الغريبة أنه كان يحب العطور وخاصة العنبر ، وكان يلزم الناس بأن يهدوه اليه ، ليس هذا بل أنه احتكر بيعه ، فيخرجه من خزائنه ويبيعه للتجار بثمن غال ، ثم يتلقاه منهم هدية . وكان يكره أن يكون هناك نظير له ، ولهذا لم يقرب الا الأسافل ، ولم يترك رجلا ذا وجهة أو قيمة الا حطمه ، ليظل وحده الكبير والقوى .

وضاق المصريون به ، وكرهوا حكمه ، واستعانوا عليه بالسحرة والمشعوذين ليذهب عنهم . وفى أحد الأيام ، وجد منشورا مكتوبا فى رقعة ورق بغرفة نومه ، قال فيه كاتبه أن الناس يدعون عليه وأن دعاءهم سيجاب ، لأنه خرج - كما قال المنشور - « من قلوب قرحتموها ، وأكباد أحرقتموها ، وأجساد عذبتموها ، ولو تألمتم لعلمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل لما وصل إليها الجاهل » وأضاف صاحب المنشور يقول : « أن الناس تمنى وتنتظر زوال ملككم ، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم ويبقى المنتظر به فافعلوا ما شئتم ، فانا صابرون ، وجوروا فانا بالله مستجيرون » .

ولشدة وساوسه كان يتصور دائما أن هناك من ياتمر به ، فكان يكثر من الحراس والعييد ، حتى ليبلغوا الآلاف ، فاذا خرج للصيد ضاعف أعدادهم وتأكد من يقظتهم .

وحدث أن جلس يوما يتفرج على فيل وزرافة ، ورفع عينيه فجأة فاكتشف أن كل عبيده وحراسه قد انشغلوا بالفرجة وغفلوا عنه ، الا واحدا فقط هو خادمه « أبو المسك كافور » الذى كان يعلق بصره به ، وليس بالفيل والزرافة ، فقال :

— والله لا يرث دولتى الا هذا العبد (!!) .

ومات الاخشيد حريصا على ألا يتركها لصاحب شأن ، يعلو ذكره بعده ، فتركها لكافور الذى وصفه بعض المؤرخين بأنه كان خادما موقفا ، أكثر منه قائدا ناجحا .

وتحقت كلمة المصرى المجهول « تركها العاقل فوصلت للجاهل » .

بأية حال عدت ؟

كان للعيد مع « أبو المسك كافور الاخشيدي » نوادر . . بل وقصائد أيضا .

وكافور نموذج من الكائنات الغربية التي تعذبت بها مصر ، وشقى بها شعبها ، فتحملها صابرا ، حتى ذهبت غير مأسوف عليها . هبط مصر عبدا لا يعرف أحد له أصلا ، بيع فى سوق العبيد ، فاشتراه تاجر من تجار الزيوت ، على ما به من عيب ، إذ كان دميما مشوه الخلقة ، بطيئا ثقيل البدن .

ولقى كافور من العذاب ما يلقاه أمثاله ، حمل الأواني على عاتقه ، وأدار المعاصر ، وجر العجلات بديلا عن الدواب والماشية ، وانتقل من سيد الى آخر ، حتى ملكه أحد أصدقاء « الاخشيد » - حاكم مصر - وأرسله يوما الى الحاكم فأعجبه قوته واشتراه من صديقه بثمانية عشر دينارا لا غير .

وحكم « كافور » مصر من وراء ستار ومولاه يعيش . ثم حكمها عامين بعد وفاة « الاخشيد » ، ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهدا أسود كوجهه ، تعرضت سلطنة مصر فيه للهجمات العسكرية ووقعت زلازل مروعة ، وشبت نيران دمرت ١٧٠٠ منزل بالفسطاط ، وانتشرت الأوبئة حتى مات من أهل مصر نصف مليون ، وعجز الناس عن تكفين الموتى ودفنهم ، فكانوا يلقون بجثثهم فى النيل لكثرتها .

وبرغم كل الهيبة التى زعمها لنفسه فان طبيعته غير الوقورة كانت تغلبه ، ومما يروى عنه أنه كان جالسا فى قاعة عرشه يوم العيد ، فدخلت عليه طائفة من أهل الغناء والطرب ويدهم طبول ومزامير ، فلما رقصوا بين يديه طرب السلطان ، ونسى نفسه وحرك كتفيه متراقصا بصورة رآها كل الجالسين ، فكانت فضيحة مدوية فى يوم عيد ، وأراد « كافور » تغطية موقفه فزعم أنه مصاب بمرض عصبى تهتز معه أكتافه ، وظل منذ ذلك التاريخ يهز كتفيه فى كل جلسة ، لينفى عن نفسه أنه تراقص وهو سلطان .

حاول « كافور » أن يجمع قلوب الناس بالعطايا والمنح والرشاوى ، فتجمع حوله المنافقون والمسترزقون ، وتقاطر الشعراء على مصر يمدحونه ويقبضون وهو سعيد ، لكن حظه العاثر كان ينتظره يوم العيد ، فقد انتهى كل هذا المهرجان ، عندما هجاه المتنبى يوم عيد فمضى تاركا أقسى قصائد الهجاء فى تاريخ الشعر العربى :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد
لا تشتر العبد الا والعصا معه
ان العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة
أقومه البيض أم ابأؤه الصيد ؟

اعزاز دين الله

وصل الاندماج بين المسلمين والمسيحيين فى مصر ، الى الدرجة التى تحولت معها بعض الأعياد الدينية الى أعياد قومية ، يبتهج لها الجميع ويحتفلون بها ، ويمارسون طقوسها ، دون تفرقة . بل وأصبحت أيضا من الأعياد الرسمية التى تحتفل بها الدولة .

ومن تلك الأعياد « عيد الغطاس » وهو يقع فى الحادى عشر من شهر طوبية من كل عام ، وفيه يحتفل المسيحيون بذكرى تعميد السيد المسيح فى نهر الأردن على يد « يوحنا المعمدان » . ويذكر المؤرخ الاسلامى « المسعودى » ، أن ليلة الغطاس كانت من الليالى ذات الشأن العظيم عند أهل مصر لا ينام فيها الناس .

وقد وصف فى تاريخه طقوس الاحتفال بها فى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) فى زمن الدولة الاخشيدية ، فقال ان السلطان أمر فأوقدت المشاعل بين مصر القديمة والجزيرة ، حتى وصلت الى ألف مشعل ، هذا غير ما أسرجه أهالى مصر نصارى ومسلمين أمام بيوتهم ، وفى الشوارع العامة وأمام الحوانيت والوكائل .

وعلى سطح النيل وعلى شاطئيه تجمع المصريون فى الزوارق واحتشدوا على الدور المطة على النهر ، وأخذ معظم الناس يغطسون فى النيل ، ويأكلون

معا ، ويشربون ، والمدينة ساهرة طول الليل . ومن المعتقدات الشعبية لدى المسلمين والنصارى فى مصر ، أن الغطس فى النيل ليلة التعميد يقى أمن الأمراض ويشفى كل الأدواء .

وبعد هذا التاريخ بخمسة عشر عاما ، وفى « ليلة الغطاس » أمر الخليفة « الظاهر لاعزاز دين الله » ، بأن توقد المشاعل والنار فى الليل ، وأكثر شراء الفواكه والضأن وأتاب الخليفة عنه « متولى الشرطة » فى حضور الاحتفال ، فضرب خيمة على شاطئ النيل ، وحضر منها الاحتفال ، أما الخليفة فقد انتقل ومعه حريمه الى أحد القصور المطلة على النيل ، ليشهد منها الاحتفال .

وكان من رسوم الدولة فى أيام الفاطميين ، أن يوزع الخليفة منحا على كبار رجال الدولة بمناسبة الاحتفال بعيد الغطاس ، وغيره من أعياد الأقباط ، فى « خميس العهد » - الذى يسميه العامة خميس العدس - توزع دار الخلافة عشرة آلاف دينار على أرباب الرسوم ، وفى « عيد الغطاس » توزع عليهم النارج والليمون وأطنان من القصب والسمك البورى ، وهو ما كان يحدث أيضا فى عيد الميلاد إذ كانت دار الخلافة توزع الحلوى والأسماك احتفالا ومشاركة من « الدولة » فى الاحتفال بذكرى ميلاد أنبياء الله .

وفى ليلة الغطاس ، كان القسس والرهبان ، يخرجون فى موكب مهيب يحملون صلبانهم ومشاعلهم ويتلون صلواتهم وترانيمهم طوال الليل ، وتختلط أصوات أجراس الكنائس بأصوات المؤذنين وترانيم القسس بتكبيرات المشايخ . ويقوم « الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله » ليصلى .

سماط الأحزان

فى السابع من رمضان عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) ، افتتح الجامع الأزهر للصلاة لأول مرة .

وفى عيد الفطر من العام التالى ، ركب « المعز لدين الله » أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، عقب مقدمه الى عاصمة ملكه الجديد بقليل ، الى الجامع

الأزهر لصلاة العيد ، وألقى خطبة بليغة أبكى فيها الناس . . . وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمي بالجامع الأزهر ، ولم يكن قد مضى على قدومه مصر سوى أشهر قلائل .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الجامع الأزهر مكانته باعتباره المسجد الرسمي للدولة الفاطمية ، يخطب فيه الخليفة بنفسه طوال أيام الجمع في رمضان ، وتعقد فيه الاحتفالات الدينية في المناسبات الرسمية للدولة .

ومن الاحتفالات الفاطمية التي كانت تقام فيه : الاحتفال بيوم الأحران في العاشر من المحرم ، أو يوم « عاشوراء » ، وهو اليوم الذي استشهد فيه الإمام الحسين - رضى الله عنه - في كربلاء ، واستشهد فيه معه ، معظم آل بيت الرسول ، وهو ما جعل الفاطميين يعتبرونه من أسود الأيام في التاريخ .

وفي ذلك اليوم كان الخليفة يحتجب عن الناس ، وفي الضحى يركب قاضي القضاة ونوابه وقد ارتدوا ثياب الحداد ، فيتوجهون إلى الجامع الأزهر ، ويتوجه إليه - بنفس الطريقة - الأمراء والأغنياء والعلماء ، وعندما يتكامل عددهم ، يأتي الوزير فيأخذ مكان الصدارة في المجلس ، ويقلو القراء القرآن ، ثم تبدأ المراثي ، فيلقى الشعراء قصائد في رثاء الحسن والحسين وآل البيت ، ولا يستطيع الحضور مغالبة دموعهم ، فينفجرون في البكاء والمعويل .

ويتوجه الجميع بعد ذلك إلى قصر الخليفة ، وقد أصبح قصرا آخر ، فترفع الأبسطة والسجاجيد الفاخرة ، وتفرش الأرض بالحصير ، ويستقبلهم نائب عن الخليفة ، حيث يبدأ الجزء الثاني من يوم الحزن ، بقراءة القرآن والبكاء والمعويل . وعند الظهر يدعى الجميع إلى المائدة ، وكانت تسمى « سماط الحزن » وتمد في القاعة الكبرى بالقصر ، ولا تحوى سوى العدس والألبان والأجبان ، وعسل النحل والخبز الأسمر ، ويدخل من يشاء لتناول الطعام فإذا انتهى القوم انصرفوا إلى دورهم .

في ذلك اليوم الحزين ، كانت الأسواق تعطل ، ويعتكف الناس حتى العصر ، ويعم الحزن والنواح ، كمظهر من مظاهر الندم على الحق الذي قتله الباطل متجبرا ، وقضى عليه مستهترا .

ولم يبق من تقاليد هذا اليوم سوى طبق عاشوراء الشهير أحد أطباق « سماط الحزن » .

السلطة فى المزاد

فى عام ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، بيع كل أمراء مصر فى المزاد بما فيهم نائب السلطنة .

حدث هذا فى حكم الملك الصالح « نجم الدين أيوب » ، وكان قد أكثر من شراء المالك ومنحهم امارة بعض الأقاليم ، وصاروا أصحاب الجاه والمنفوذ على المرعية ، لا يبالون فى ذلك بطشا ولا ظلما يقع على الناس ، وضج المصريون من مظالم المالك وسرقاتهم وتحكمهم الغيبى فى أمور السلطنة والسلطان .

وفى تلك الفترة وفد من دمشق الى القاهرة الشيخ « عز الدين بن عبد السلام » ، وكان فقيها خيرا ، بلغ من احترام الفقهاء له أن امتنعوا عن الافتاء مع وجوده ، وبالف السلطان فى اكرامه ، فولاه قضاء مصر والوجه القبلى ، وقبل الشيخ المنصب ، ووضع تقاليد رائعة له ، وأصر على أن تكون كلمة الحق لا سلطة القوة هى الفاصلة بين الحاكمين والمحكومين .

وعندما زادت مظالم أمراء المالك ، بحث الشيخ عبد السلام الأمر فقيها ، وخرج بفكرة غريبة تقول : ان هؤلاء المالك أرقاء للشعب المصرى ، ذلك أن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة ، وما زال حكم الرق ساريا عليهم فيحق لبنت مال المسلمين أن يبيعهم اذا ما شكى نقصا فى موارده ، واحتاج لثمنهم يسد به مطالب المسلمين ، وكتب الشيخ فتوى بها المعنى ، وانتهى الى ضرورة بيعهم وصرف ثمنهم فى وجوه الخير ومصالح الأمة .

وثار الأمراء ، وامتلأوا غضبا وغيظا ، وحاولوا أن يثنوا الشيخ عن فتواه ، فصمم عليها وأعلن أن هؤلاء المالك لا يصح لهم أى تصريف فى أمور الحكم ، فتعطلت مصالحهم وتوقفت أعمالهم ، قرفعوا الأمر الى السلطان ، فأرسل الى الشيخ يطلب منه العدول عن فتواه ، فأصر عليها ، وأعلن أنه سينفذها ، وإلا فسوف يعزل نفسه من منصب القضاء ويترك فتواه قائمة فى البلاد الاسلامية يعمل بها المسلمون ، ويتصرفون على أساسها ، وثار نائب السلطنة وهم بقتل الشيخ ، لكنه خشى ثورة العوام .

وسألوا الشيخ عن حل للمشكلة ، فقال لهم :

- سأعلن بيع الأمراء فى المزاد .

وهو ما فعله ، ان عقد مجلسا كبيرا من رجالات الدولة ، حضره السلطان والأمراء ، وأخذ قاضى القضاء ينادى عليهم واحدا بعد الآخر ، ويغالى فى ثمنهم ، لأنهم أمراء يزعمون أنهم ملوك الأرض ، ويتحكمون فى شعب اشتراهم بأمواله ، فظنوا أنهم اشتروه بأموالهم ، وتقدم السلطان

فاشتري أمراءه . ودفع أضعاف الثمن الذي اشتراهم به ، وقبض الشيخ
« عز الدين بن عبد السلام » المال ، وأعتق الأمراء . أما الثمن فقد صرفه
الشيخ على وجوه الخير ، ومصالح المسلمين .

وعاد الأمراء يتصرفون في أمور معاشهم ، بعد أن تلقنوا درسا جعلهم
يكفون - إلى حين - عن ظلم العباد .

خاطر السلطان

عندما تكون السلطة شخصية ، فلا قيمة للإنسان ، ولا معايير للصعود
واللهبوط أو للارتفاع والانخفاض .

وفي العصر المملوكي - وهو النموذج المركز لهذه السلطة الشخصية -
كبر رجال ، وارتفعوا وأثروا ، ثم حط بهم الهوان ، وافقروا ، دون أن يعرف
أحد السبب في الحالتين .

ومن هؤلاء القاضي « كريم الدين أبو السديد » وكان ناظرا لخاصة
السلطان « الملك الناصر محمد بن قلاوون » - أي مديرا لأمواله الخاصة -
مقربا إليه ، فارتفعت درجته في الدولة ، ونال من العز - كما يقول ابن آياس -
ما لم ينله جعفر البرمكي في أيام هارون الرشيد .

ومن مظاهر السلطة التي حازها ، أنه أصبح المتصرف في الخزائن
والأموال من غير حرج ، فكان الأمراء والأعيان يركبون في خدمته ، وينزلون
معه إلى بيته . وكان مسرفا إلى درجة غريبة ، فقد حدث مرة أن شفى من
مرض ، فجمع كل الورد من أشجاره بالقاهرة ، وفرش منه في داره ما قدر
عليه ، فعل ذلك حتى في دهايز بيت الخلا ، وفي الشوارع المحيط بالمنزل ،
وداس الناس منه ما داسوا ، وأخذوا منه ما أخذوا ، وجمع العبيد والغلمان
ما بقي منه فباعوه بخمسة آلاف درهم .

وفجأة أمر السلطان بعزله وصادر أمواله ، ولم يترك له لا قليلا ولا
كثيرا ، وصادر نساءه وغلمانه وحاشيته ، ثم نفاه إلى أسوان ، ولم يطق
« كريم الدين » الموقف ، فشنق نفسه في سجنه ومات منتحرا . أما السلطان

فقبض على ابنه وعذبه حتى أقر ببقية ما كان يخفيه من أموال فوجد لديه من الذهب مائتي ألف دينار أما التحف فكان عددها لا يحصى .
والغريب فى هذه الحكاية - التى كانت تحدث بمعدل كل شهر مرة فى العصر المملوكى - هو سببها :
ان السبب - فى كل مرة - كما يذكره المؤرخون « هو أن السلطان قد تغير خاطره على فلان » .

الشيخ الاقصرائى

عرف التاريخ المصرى عددا من « شيوخ الاسلام » الذين دافعوا بشجاعة عن آرائهم وقالوها فى وجه الخطر نفسه .

ومن هؤلاء الشيخ « أمين الاقصرائى » ، وكان شيخا للاسلام ، على عهد السلطان المملوكى « الأشرف قايتباى » ، وكانت هناك مناوشات على الحدود بين « السلطنة المصرية » ومملكة « شاه سوار » ، وعقد السلطان مجلسا كبيرا من العلماء والقضاة اجتمع بالحوش السلطانى بالقلعة ، وكان « الشيخ الاقصرائى » من بين من دعوا الى هذا الاجتماع ، لكنه تأخر فى الحضور .

وفى الجلسة تحدث السلطان ، فقال ان الغزاة يهددون البلاد السلطانية ولا بد من خروج تجريدة عسكرية لملاقاتهم ، وهناك مال كثير مع الناس ، يزيد عن حاجتهم . ولذلك فانه يطلب من العلماء الموافقة على فرض ضرائب جديدة على التجار واصحاب الاراضى والحرفيين ، وسائر اهل مصر قاطبة .

وكاد المجلس يهم بالموافقة ، لولا أن وصل « الشيخ الاقصرائى » الى مكان الاجتماع ، فلما علم بما دار ، ثار ثورة عارمة ، وخاطب السلطان علنا أمام الجميع ، فقال انه ليس من حقه أن يفرض ضرائب جديدة الا اذا نفد كل ما فى بيت المال ، عندئذ يأخذ السلطان ما يحتاج اليه من فائض القادرين والاثرياء وحلى النساء ، فاذا لم يكف ، نظر الى ما فى يد الناس فيأخذ تغير الضرورى ويترك الضرورى .

وخلال الحديث ارتفع صوت الشيخ الجليل ، وختمه مخاطبا السلطان :

- اننا نخشى أن يسألنا الله تعالى يوم القيامة : لم لا نهيتموه عن ذلك !

وخافه السلطان فعدل عما يريد ، وكثر دعاء الناس يومها له .

ومات الشيخ « الأقسرائي » بعدها بثماني سنوات ، وكان في الثمانين ، وصفه « ابن آياس » فقال : « انه كان ديننا خيرا قائما في الحق يخاشن الملوك والسلطين ، ويغلظ في القول ، ولا يخشى الا الله تعالى » .

وأكثر الناس خشية الله ، أكثرهم حبا للوطن !

بين « الزفر » و « شنيعة »

• ما أكثر المضحكات المبكيات التي شهدتها مصر في عصر الماليك .

واحدة منها ، أن السلطان المملوكي « خشقدم » في أواخر عهده عين « الشمسى محمد البباوى » وزيرا أول له ، وبمجرد أن سسع الصريون الخبر قالوا جميعا :

- الزفر تولى الوزارة بمصر .

ذلك أن « البباوى » كان طباحا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان أضله معاملا في اللحم ، أى جزارا ، وهو ما أوحى بأحد شعراء العهد أن يقول :

قالوا البباوى قند وزر
قلت كـلا لا وزر
الدهر كالدولاب لا
يسدور الا باليقـر
وقال آخر :

تجنب العليم والفضائل
ومل الى الجهل ميل هائم
وكن حمارا مثل البباوى
فالسعد فى طالع البهائم

وأقام « البياوي » بمقر الوزارة ببركة الرطل ، وأيد السلطان وزيره ، فأصبحت له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، لدرجة أن السلطان نزل الى المدينة يوما ، فأقام بمنزل وزيره الأول الى ما بعد العصر ، أما هو فقد سار في الناس سيرة سيئة ، وصادر الأموال ، واضطهد الشعب ، ولم يتعفف عن شيء ، حتى أن المؤرخين حكموا بأنه منذ تولى الوزارة انحط قدرها « وتهدل هذا المنصب للغاية » .

ولم يطل بالبياوي عهد الوزارة ، فبعد شهر من توليه المنصب نزل من بيته المثل على « بركة الرطل » وتوجه الى قنطرة بني مفضا على الخليج الكبير ، وبينما هو عائد انقلب به المركب عند فم الخليج ، ففرق ومن معه ، ولم يعثروا له على جثة ، كأنه - بتعبير ابن اياس - « من بقية قوم نوح ، اغرقوا فادخلوا ناراً » وفرح الناس لموته ، وقال شاعر :

لا تكرهوا الموت ان فيه
حصاد من طاب مع خبيث

بيد أن فرحة الناس لم تطل ، ذلك أن من خلفه في الوزارة ، كان « الزيني قاسم » وكان مشهورا عند العوام باسم « شنيعة » .

وكم ذا بمصر من المضحكات
ولكنه ضحك كالكباء !

عظمة السلطان قلة

« السلطان الأبله » نمط من الذين حكموا مصر ، وساموها العذاب ، بطيشهم وغبائهم ، وضعف مداركهم العقلية ، وفوق هذا وذلك بما يحوزون من سلطة شخصية ، تحصن أفعالهم الطائشة ، وقراراتهم الجاهل .

وكان « الملك الظاهر بلباي » واحدا من هؤلاء ، بدأ حياته مملوكا عاديا ، ثم ظل يترقى في السلك المملوكي الى أن تسلطن في عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) خلفا لسلفه السلطان خشقدم . وفي سلطنته تزايذ نفوذ الأمير خير بك ، وكان يتولى منصب « الدوادار الكبير » فتمكن من السيطرة على السلطان بحيث كان لا يتصرف في أمر الا بمشورته ، فدفعه الى اضطهاد

ممالك سلفه « خشقدم » فقبض عليهم ونفاهم الى السجن بالاسكندرية . .
وصار معهم - بتعبير مؤرخى العصر - « فى غاية البلية » .

وكان الأمير خير بك ، مستشار سوء ، أشار على « بلباى » بالتوسع فى نفقة العسكر ، فأعطاهم كل ما فى الخزائن ، فاضطريت الأحوال نتيجة لافلاس الخزانة بعد أن تسلط العسكر عليها يطلبون كل شهر زيادة نفقتهم وأحوال الناس تسوء ، ولما كثرت الفتن ، اجتمع الأمراء والقضاة ، فخلعوا بلباى ونفوه مسجوناً الى الاسكندرية ولم يستمر فى السلطنة سوى ٥٦ يوماً فقط .

يصفه « ابن اياس » بأنه كان « أرشل قليل المعرفة ، وكان عمره كله فى غلاسة هو ومماليكه ، وشكله كتدبيره سييء . . فجمع بين قبح الفعل والشكل » .

وقد كثر تندر الشعب المصرى عليه ، وأطلق عليه العوام العديد من الأسماء الهزلية ، وهى طريقة استخدمها المصريون دائماً لمقاومة حماقة الحكام وسوء تدبيرهم . . وقد تركزت السخرية من بلباى ، على غبائه ، وتبعيته المطلقة لدواداره الكبير ، وعجزه عن اتخاذ أى قرار منفصل دون أن يعود الى الدوادار ، حتى انه اذا سئل عن أمر من أمور المملكة يقول :

— ايش كنت أنا . . قل له !

أى قل لخير بك ، وقد سماه العوام لذلك « السلطان قل له » ثم حرفها اللسان المصرى الساخر والعظيم متعمداً الى « السلطان قلة » .

ضحك . . كالبكاء

فى العصر المملوكى ، وقعت مصر فريسة فى براثن مجموعة من المرتزقة والحمقى والمجانين ، ومن الظواهر التى انتشرت فى ذلك العصر « جنون السلاطين » التى تبدو لمن يتابعها ويقرأ قصصها فى مصادر تاريخ العصر المملوكى ، وكأنها ظاهرة طبيعية ورد فعل عادى لقسوة قلوبهم ، ودموية سلوكهم ، وأساليب حكمهم التى كانت تزيد من توخشهم ، وتذهب فى النهاية بعقولهم .

وكان الشعب يدفع الثمن سواء كان السلطان عاقلا أو مجنونا ، ففي
الحالتين تزداد قسوته وتتفجر دمويته ، غير أنها فى حالات الجنون كانت
تبدو قوعا من الكوميديا السوداء . فعندما مرض الملك « الأشرف برسباى »
وطال به المرض ، وحصل له « مالاخوليا » وخفة عقل ونزق ، فأمر بنفى
الكلاب الى الجيزة ، وانشغلت مصر كلها بالقبض على الكلاب وطردها الى
الجيزة ، وكان كل من ينفى كلبا يتقاضى بعض القروش مقابل عمله هذا .

ثم أمر السلطان بالناداة بأن لا تخرج امرأة من بيتها مطلقا ، فكانت
الغاسلة اذا أرادت التوجه الى مية تأخذ ورقة من المحتسب وتجعلها فى
رأسها حتى تمشى فى السوق . . . وبعد أيام أمر السلطان بالناداة من جديد
بالأيرتدى أى فلاح غطاء للرأس ، سواء كان كبير المقام أم لم يكن .

ثم تصاعد جنون السلطان ، وازدادت تصرفاته طيشا ، فتحولت من
نواذر مضحكة الى مأسى مفعجة ، فقد خطر له ان يخلص مصر من الاطباء ،
فأصدر أمرا بقتل كل الأطباء ، وبدأ فأمر السيف أن يطيح برأس اثنين من
أطبائه الخصوصيين . . . ودار السيف بعدها فى رؤوس أهل الطب .

واستمر السلطان يصدر كل يوم أمرا مضحكا . . . أو مبكيا . . . وينقضه
بعد قليل ، والمصريون يضحكون قليلا . . . ويبكون قليلا . . . ويصبرون دائما . . .

زمن بلا قلب

كان العصر الملوكى ، عصرا بلا قلب ، ويقدر ما تبدو ملامحه الآن
رومانتيكية ، بقدر ما كان واقعه شديد القسوة ، ميت القلب ، فقد تسلطت
على حكم مصر أيامها شرانم من الناس ، بلا ضمير وبلا أخلاق .

كان السلطان « المؤيد شيخ » واحدا من سلاطين العصر الذين لا حد
لقسوة قلوبهم ، وصلت قسوته الى الدرجة التى قتل فيها ابنه ، حتى لا يناقسه
على المحكم ، وكان الابن « ابراهيم » معروفا بالشجاعة ، لا يمل من الحرب
والقتال ، فمالت اليه قلوب الجنود ، فى الوقت الذى كان والده السلطان
يشعر بآلام الروماتيزم الحاد فى مفاصله ، مما جعله يشك فى أن ابنه يتآمر
عليه ليحذل محله ، وقد عمل القاضى « ناصر الدين ابن البارزى » على زيادة
شكوكه ، فقال له يوما :

• ان العسكر يقصدون خلعك من السلطنة ويولون سيدي ابراهيم .

• وببساطة شديدة قدم السلطان لابنه السم فى قطعة من الحلوى

وفى يوم الجمعة التالى ، خطب القاضى « ناصر الدين » فى المسجد ، قاصدا أن ينفى الاتهام الذى أشاعه الناس بأن السلطان قد قتل ابنه فى سبيل العرش ، فخصص الخطبة للحديث عن حزن الرسول لفقده ابنه ابراهيم ، واستشهد بقوله :

• ان العين لتدمع ، والقلب ليحزن ، ولا نقول الا ما يرضى ربنا ، واننا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون .

فلما سمع السلطان ذلك شق عليه ، وقال فى نفسه : يغرينى على ولدى حتى أقتله ، ثم يقطع قلبى ندما عليه .

فلما فرغ القاضى « ناصر الدين » من صلاة الجمعة ، دعاه السلطان اليه ، وتبسط معه ثم أمر له بسلطانية سكر ، وكان القاضى أكلها فالتهمها .
• وذهب الى منزله فأقام ساعات ثم مات .

• كان السكر مسموما

• • زمن بلا قلب

ريمة المملوكية

جاء شهر رمضان من عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) والناس فى مصر مشغولون بأمر الطاعون ، كان السلطان هو « الملك الناصر أبو السعادات محمد بن الأشرف قايتباى » • وكان الخليفة هو « المستمسك بالله أبى الصير العباسى » •

كان الطاعون قد بدأ فى رجب ، وتزايد فى شعبان ، ثم انفجر ليصبح كارثة لا تبقى ولا تذر فى رمضان ، ولم يعان المصريون - فحسب - خطر الموت وشر الطاعون ، ولكنهم عانوا أيضا شر المماليك وقسوة قلوبهم ، ان كانوا يخطفون القماش من الدكاكين ، والبضائع من الأسواق ، ووصل الأمر

الى حد أن أحدهم كان راكبا يوما على فرس فصادف جنازة فى وجهه ، فجل منها الفرس ، فأوقع راكبه على الأرض فقام ساخطا وضرب الحماليين الذين كانوا يحملون الميت ، ففروا هاربين تاركين ميتهم على الأرض ، فلم يرحمه الملوك وانهدل على الجثة ضربا بالسيف ، وتركها ملقاة فى الطريق حتى آخر النهار .

وعندما انفجر الطاعون فى رمضان فشلت كل وسائل الوقاية التى لجأ اليها الممالك لحماية أنفسهم من عدواه ، وتحصين أجسادهم الحاكمة ضد خطره ، لكن أمر الطاعون استفحل وشاع حتى طال بمخالبه الوحشية الطبقة العليا المرفهة فى المجتمع ، آنذاك عرفوا الله ، وبدأوا يعترفون بخطاياهم ، ويكفرون عن ذنوبهم ، ويوما من رمضان أصاب الطاعون أحدهم ، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا وأخرج بين أيديهم قماشاً كثيراً وأموالا طائلة تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف دينار ، واعترف أمام الشهود بأنه نهب ذلك من مكان سماه ، ثم قال لغلامه :

— امض واتننى بأصحاب ذلك المال .

فمضى الغلام — والشهود جالسون عند الملوك المشرف على الموت — وأحضر أصحاب المال فسلمهم الملوك ما لهم بحضور الشهود ، وسألهم المحاللة فلما حاللوه ومضوا ، مات .

وفى الليلة نفسها ، مات آخر من الممالك الجليان ، فوجدوا عنده خمسة عشر ألف دينار ، ذكر لغلامه قبل أن يموت أنه نهب ذلك من دكان حدده فى حارة زويلة ، وحمل المال الى خزائن السلطان لكى يرد لأصحابه .

فى رمضان ذلك اعترف اللصوص والنهابون والقتلة بما ارتكبوا من معاص ، وخشى الممالك أن يقفوا بين يدى الله بذنوب لا تغسلها كل مياه العمورة ، وارتفعت دعواتهم لله يعلنون توبتهم عن عذاب صبوه على شعب مسكين ، وهبهم أكثر مما يستحقون ، ومنحوه الجوع والسجن وافتقاد الأمن .

لكنه فى آخر رمضان ، انحسر الطاعون نسبيا ، وعادت ريمة لعادتها القديمة ، ووقع فى يد السلطان مواطن اتهم بتهمة تافهة ، فأمر بسلخ وجهه وهو حى ، فسلخوه من رأسه الى رقبته وأرخوا جلد رأسه ووجهه على صدره ، وصار عظم رأسه ظاهرا ، وطاقوا به فى القاهرة ، ثم علقوه على باب النصر واستمر معلقا الى أن مات .

عادت « ريمة » المملوكية لعادتها القديمة . وقال الشاعر ابن اياس :

قد قلت للطعن والمماليك

جاوزتمنا الحد فى النكايه

فترفقا بالسورى قليلا

فى واحد منكم كفايه

الاسلام والسلطان

استولى « الظاهر بيبرس » على السلطة فى مصر بمؤامرة دبرها ، وحافظ عليها بالقسوة والظلم ، وعندما أراد أن يرد عن سلطته خطرا وهميا ، حاققت به مؤامرتة ، وذهبت بحياته .

وكانت البداية بعد أن هزم سلفه السلطان « المظفر قطز » التتار فى معركة « عين جالوت » ، وهى المعركة التى كان « بيبرس » أحد قادتها ، وصاحب نصيب بالغ فى النصر الذى تحقق فيها ، وهو ما دفعه لأن يطلب من السلطان منحه ولاية حلب ، ولكن « قطز » - وهو مملوكى يعرف لعبة السلطة جيدا - رفض أن يعطى غريمه القوى ولاية بعيدة عن رقابته حتى لا ينتهز الفرصة لى يدبر المؤامرات ، ويستولى على السلطة منه .

غضب « بيبرس » من رفض طلبه ، وحفظها فى نفسه ، فما أن وصل « قطز » الى الحدود المصرية ، وخرج للصيد ، حتى استأذن « بيبرس » على السلطان ، طالبا أن يقبل يده ، شاكرا له أنه وهبه جارية من سببا التتار ، وكان انحنائه لتقبيل يد السلطان ، اشارة - متفق عليها سلفا - مع عدد من المتآمرين ، فخرجوا على « قطز » بسيوفهم ، وبعد دقائق ، كان السلطان قد سقط قتيلًا . . . وخلا العرش ، ليصعد بيبرس اليه ، ويصبح سلطانا !

وبعد سبعة عشر عاما من توليه الحكم ، ساور « بيبرس » القلق على سلطته ، وكان المنجمون قد تنبأوا بأن رجلا جليل القدر سيموت فى تلك السنة بدمشق حيث كان يقيم ، ولأنه كان يعتقد بالتنجيم فقد تيقن من صحة النبوءة لأن القمر خسف بأكمله فى دمشق ، وحرصا منه على دفع نبوءة الموت عنه ، دعا الملك « القاهر عيسى الايوبى » الى مجلسه ودار عليهم السقاة بالخمر ، وكان « بيبرس » يشرب فى أقداح خاصة به ، وتظاهر بأنه يريد أن يكرم ضيفه ، فقدم له كأسا من كئوسه ، ودس له السم ، وشرب الضيف القدر . . . وقام السلطان لبعض شأنه وعندما عاد صب له الساقى فى نفس الكأس ، وعلى بقايا الشراب المسموم ، لأنه لم يكن يعلم بتفاصيل المؤامرة ، ولم ينتبه السلطان لما حدث فشرب من نفس الكأس . . . ومات .

وكان « بيبرس » يحقد على « الملك القاهر » ، لأنه أبلى فى الحملة على بلاد الروم بلاء حسنا جعل الناس تشييد به وتهلج بما فعله . فخاف منه على سلطته ، وتصور أن نبوءة الموت التى ستحيق به ، ستكون تمهيدا لتولى « القاهر » السلطة فى مصر والشام .

وأثبت « بيبرس » أنه كان ابنا شرعيا لدولة المماليك ، التى دافع سلاطينها عن الاسلام كما لم يدافع عنه أحد ، وليس فيهم سلطان ، الا وهو

فاسق أو عرييد أو ظالم ، والسبب بسيط ٠٠ أن التخفى والتستر الكاذب وراء الدفاع عن الاسلام كان - وربما ما يزال - الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالسلطة والسلطان .

أولاد الناس

حتى الآن ما زال تعبير « أولاد الناس » يجرى على ألسنة المصريين ، ليشير الى قوم كانوا أجراء فأنزلتهم الأيام ، وكانوا أصحاب سلطة وسلطان فأصبحوا بلا جاه ولا نفوذ ، يشفق عليهم الناس ، ويروون مأساتهم ، وغالبا ما ينسون ما ارتكبوه من جرائم أيام كانوا أصحاب جاه وسلطة وسلطان .

والى العصر المملوكى تعود تسمية « أولاد الناس » ، فعندما يعزل السلطان أو يموت كان مماليكه يطردون من (مقر الحكم) فى القلعة ، ويفقدون ما كانوا يحصلون عليه من امتيازات ، وتنزل نساء السلطان المعزول أو المقتول من القلعة وعلى وجوههن غبرة ، بعد أن ذهب زمن السلطة والتحكم ، والعزة والكرامة ، والتسلط على الناس ، وأن لمالك السلطان الميت أن يعودوا الى أصولهم : حينئذ كانوا يسمون « أولاد الناس » أو « مماليك السلطان القديم » ، ويعيشون على مخصصات يقبضونها من بيت المال ، ولا تقاس بما كانوا يحصلون عليه من أموال فى عهد سلطانهم القديم ، فلم تعد الدولة عزيتهم ، يتحكمون فيها ويوزعون أنفسهم على مناصبها ، وينزحون بيت مالها .

وكانت مخصصات « أولاد الناس » هى البند السهل فى ميزانية الدولة ، فاذا وقعت أزمة مالية منع بيت المال عنهم مخصصاتهم ، وانكسرت لهم مرتبات ، فعانوا شظف العيش ، لكنهم كانوا قد تعودوا العبودية ، لذلك كانوا يسكتون ، ومرة قرر أحد السلاطين أن يخرج فى تجريدة - حملة عسكرية - فصرف لماليكه نفقة لكل واحد مائة دينار ، ومرتب أربعة أشهر وثمان جمل وثمان مئونة ، ثم أصدر أمرا بأن يلحق « أولاد الناس » بالحملة على أساس أن يصرفوا مرتب أربعة أشهر فقط ، فحصل لأولاد الناس كسر خاطر شديد .

ورغم تخاذل « أولاد الناس » - الذين لا تبدو شجاعتهم أو وقاحتهم الا وهم فى السلطة - فقد وقفت جماعة منهم للسلطان بسبب النفقة ، فلما وقفوا له ، ساعدهم أحد الأمراء ، على عرض شكواهم ، لكن السلطان لم يهتم بهم ، ولم يرث لحالهم ، وقال :

— أنا ما عندي نفقة لهؤلاء ، فالذى لا قدرة له على السفر يرد الأربعة
شهور التى أخذها ، وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع مرتباته .

وما أن قال السلطان ذلك حتى سكت « أولاد الناس » ، وانتهت لحظة
شجاعتهم المؤقتة ، وقبلوا — وهم صاغرون — كل ما جرى فى حقهم .

وكان « أولاد الناس » كثيرى الكلام قليلى الفعل ، يهاجمون ما يجرى
فى عهد السلطان الجديد حنقا على المكاسب التى ضاعت منهم ، لا معارضة
لما يفعله ، فإذا ما زاد السلطان مخصصاتهم مدحوه وشببوا به ، كانوا قد
تعبدوا ذلة الاتحاق والتهافت لكل سلطة حتى تسقط — طالما تعطيتهم مخصصات
ونفوذ وسلطة — وسرعان ما كان الحال يتدهور بهم ، فيحترفون للصوصية
والقتل ، ويدخلون السجون .

فى ذلك الوقت كان فى مصر أبناء للشعب لا ينتمون إلا له ، ولا يترنمون
إلا باسمه ، وكان « أولاد الناس » يسمونهم بالدهماء ، ويشنون ضدهم حملات
قدرة ، ويسقطون عليهم كل تاريخهم الملوث ، يظنون كل الناس ذيو لا واتباعا . .
لأنهم كانوا طول عمرهم لا يطمحون إلا لذلك !!

السلامونى والمنافقين

كاد الشاعر المصرى القديم « جمال السلامونى » يدخل السجن بسبب
حرية الرأى أكثر من مرة ، بل وضرب مرة وشهر به و « جرس » فى القاهرة
الملوكية لأنه كشف المنافقين وهاجم التجارين بالمبادئ والذين يبيعون
دينهم بدينارات قليلة ، لكن جماهير القاهرة التى أحبت السلامونى لم تتركه
فى محنته ووقفت معه ضد خصومه .

كان « السلامونى » شاعرا رقيقا ، لكنه كان يسلط شعره القاسى على
أنواع معينة من الناس ، يتهمون الآخرين فى دينهم وهم بلا دين ، وفى ندمتهم
وهم بلا نمة ، وفى وطنيتهم وهم يبيعون أعلى ما فى الحياة بأبخس الأثمان ،
وكان يعيش فى عصر السلطان « قانصوة الغورى » ، وحدث أن اكتشف
جرائم « لمعين الدين بن شمس » ، وكيل بيت المال ، تتضمن اختلاسات من
الأموال العامة ، فسلط عليه شعره وهجاه هجاء مرا ، واتهمه بقله الذمة

وفساد الضمير وسرقة أموال الشعب ، وشكاه وكيل بيت المال الى القاضى « عبد البر بن المشحفة » ، الذى سارع فحكم فى القضية ، وأمر بأن يضرب « السلامونى » ويعزر .

ولم يسكت « السلامونى » ، اذ كان يعرف أن « عبد البر » الذى غضب لقصيدة هجاء لأنها - كما قال - خروج عن الأدب ، هو لص يتاجر بالأوقاف ويسرقها ، ويدعى الشرف والتدين ، وهو منهما براء ، ورغم الضرب والتجريس كتب السلامونى قصيدة ضارية ضد القاضى « عبد البر » .

ومما قاله فيها :

فشما الزور فى مصر وفى جنباتها
ولم لا و « عبد البر » قاضى قضاتها

فاسلام « عبد البر » ليس سوى
بعمته والمقر فى سمناتها

وتعرض السلامونى لسرقة عبد البر للأوقاف فقال :

ألسنت ترى الأوقاف كيف تبدلت
وكانت على تقديرها وليساتها

كانت القصيدة قاسية اذ كشفت للناس عن القناع الذى يرتديه القاضى مدعيا الاسلام والتقوى ، ولأن الملاحظة حقيقية فقد استفزت القاضى ، خاصة بعد أن تواترت القصيدة بين الناس ، فلما بلغ القاضى « عبد البر » ذلك ، شكى « السلامونى » الى السلطان عندما طلع الى القلعة فى يوم التهنئة بأول الشهر الهجرى ، وعرض عليه القصيدة ، فأحضر السلطان « السلامونى » بين يديه ووبخه بالكلام وقال له :

- أتهجو شيخ الاسلام بهذا الكلام الفاحش ؟

ولم يستطع السلطان أن يحمى السلامونى من غضبة القضاء - وكانت مكانتهم الدينية تعطيهم شيئاً من الحصانة - فنزل به القاضى الى المدرسة الصالحة وهو مكبل بالحديد ، وتعصب عليه القضاء وقصدوا ضربه بالسياط ٠٠ وهكذا تجمع اللصوص ضد السلامونى لأنه قال فيهم كلمة حق ، عرت اكانديهم ومتاجرتهم بأقدس الأشياء ، ورغم أن السلطان كان يعرف أن « السلامونى » شريف ، وأن خصومه - رغم أنهم ينافقون السلطان - بلائمة ولا ضمير ، فقد اضطر للصمت ورضى بعقوبته لعجزه عن حمايته ، فما كاد الناس يتجمعون بدعوة من القضاء ليشهدوا تنفيذ الحكم بضرب السلامونى ، حتى فوجيء عبد البر بالناس يتعصبون للشاعر ، واذا بهم قد ملأوا أكمامهم

بالحجارة ، وهددوا بضرب « عبد البر » ورجمه اذا تعرض للمشاعر . وعندما رأى القضاة ذلك أطلقوا السلامونى وفروا هاربين .

الواعظ المجهول

فى شهر رمضان من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) حدثت أغرب ثورة فى تاريخ القاهرة :

كان الحكم المملوكى ينوء بكلكلة على الشعب المصرى ، وكانت سنوات التخلف والقهر قد انتهت بالشعب الى ظواهر غريبة . مظهرها الأساسى : الهروب فى البدع الدينية التى لا تنتمى للمدين فى شىء . وذات يوم حط فى القاهرة رجل غريب جلس « بجامع المؤيد » يعظ الناس ، ويهاجم ما يفعلونه من زيارة لأضرحة الأولياء ، وتقبيلا لأعتابهم . وقال ان فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه ، وعلى ولاة الأمور السعى فى ابطاله . وندد بما ورد فى بعض الكتب من القول بأن بعض الأولياء أطلع على اللوح المحفوظ ، اعتبره كفرا لأن الأنبياء لا تطلع على هذا اللوح ، فكيف يطلع عليه من هم أدنى منهم ؟

واقتنع بعض خاصته بما يقول ، فخرجوا بعد صلاة التراويح ، ووقفوا بالنبابيت والأسلحة ، يتصدون للبدع الدينية ، وأثار فعلهم هذا غضب آخرين ، فذهب هؤلاء الى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ ، وكتب علماء الأزهر فتوى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت ، وأن الواعظ المجهول كافر ويجب على الحاكم أن يزرجه . وتصدى لهم الواعظ ، وطالبهم بمناظرته فى مجلس قاضى العسكر . وخرج الواعظ المجهول فى جمع من المصريين يزيد عن ألف نفس ، ومر من القاهرة الى « بيت القاضى » مطالباً بالمناظرة ، ولم يحضر العلماء ، ونتيجة لضغط الجماهير التى تطالب بالمناظرة ، كتب لهم القاضى فتوى يؤيد بها الواعظ ويرفض فتوى العلماء . وعاد الجمع سعيدا وراضيا .

وفى اليوم التالى اختفى الواعظ المجهول . ولم يظهر فى جامع المؤيد ، وعلم الناس أن القاضى منعه من الوعظ ، فخرج المصلون من الجامع الى الديوان مطالبين باطلاق سراح الواعظ ، الذى أحبوه ووثقوا بما يقول ، ولم

ينصرفوا الا وقد أخذوه معهم الى جامع المؤيد ، فصار يعظهم ويطالبهم
بالانتصار للدين وقمع الدجالين .

ولأن نظاما كالنظام المملوكى ، لا يمكن أن يحمى نفسه الا بالدجل
الدينى ، فقد سارع والى القاهرة بانزال الجنود الى الشوارع ، لكى يرهب
الناس وأعاد القبض على الواعظ وتقرر نفيه من البلاد . وأخذ الجنود
يطاردون أتباعه فضربوا بعضهم ونفى أكثرهم خطرا ، وعاد الدجالون ينشرون
خرافاتهم فى حماية الوالى .

عن النجوم والقمر

فى زمن السلطان « قانصوة الغورى » تكاثرت موجات الغلاء ، ويرغم
كل المحاولات التى كانت تبذل للتغلب عليها فقد كانت تعود لتظهر ، ذلك أنها
كانت تنجم أصلا من مضاربة التجار واحتكارهم للأقوات ، وسوء توزيع
الثروة ، وكانت تلك أشياء ثابتة فى مصر المملوكية .

هل شهر رمضان من عام ٩١٧ هـ (١٥١١ م) وفى مصر أزمة فى
الوقود ، إذ عز وجود الحطب وأخذ الناس يستعملون روث الحيوانات وقش
الغيطان ، ورغم ذلك استمرت الأزمة واستحكمت ، حتى تعطلت مطابخ الأمراء
والشهر هو رمضان ، حيث تزداد الحاجة للوقود .

وفى الشهور التالية تزايدت الأزمات وتفاقت ، وزاد الطين بلة أن ظهر
الطاعون فى مصر فتجمع على الناس الفقر والغلاء والجوع والطاعون - كما
يقول مؤرخ العصر ابن اياس - وفكر السلطان أن يوفر لبيت المال بعض
الموارد ، فأمر بأن يؤخذ لحساب الخزينة قسما من تركة كل من يموت
بالطاعون ، محاولا أن يدفع بما يتجمع من أموال الموتى ، كارثة الطاعون
والغلاء والمجاعة .

ورغم كل محاولاته ظل الغلاء منتشرا . . . ويوما نزل السلطان من القلعة
- قصر الحكم - وتوجه الى عمارة كانت تبنى له فى المطرية ، فتفقد عمليات
البناء ، وبعد أن انتهى عاد الى القاهرة من باب النصر ومر فى شوارعها
كما هى عادته ، وتوجه الى مدرسته التى كانت قد تشققت وآلت للسقوط فأمر

يهدمها عن آخرها ، وفى طريق عودته تجتمع الناس حول موكبهِ ، ويقول « ابن اياس » : ان العوام أسمعوه الكلام المنكى بسبب تشحيط الخبز وغلو الدقيق ، وكان القمح الجديد قد وصل ، وأشيع بين الناس أن السلطان يشتري القمح ويرسله الى الشام التى كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل أن سعر اردب القمح فيها قد وصل الى سبعة جنيهاً ، فكان السلطان يتاجر فيه ، فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون غلوة برغم وجود القمح الجديد ، فلما شق السلطان من القاهرة تسببت عليه العوام بالكلام ، وقالوا له جهارا :

— الله يهلك من يقصد الغلاء الى المسلمين .

وسمع السلطان ذلك فتأكد طوال اليوم ، وطلع الى القلعة من بين الدروب ولم يشق من باب زويلة .

على أن نكد السلطان انتهى بمفاجأة لم يكن يتوقعها الناس ، فبعد ثلاثة أيام نزل ناظر الحسبة — أى وزير التموين — يعلن الأوامر الجديدة التى أصدرها السلطان وهى تقضى بإبطال عدد كبير من الضرائب وخاصة الضرائب على الغلال ، ولأن ارتفاع كل الأسعار كان نتيجة لارتفاع أثمان القمح فقد انتهت الأزمة ، وارتفعت أصوات الناس بالدعاء للسلطان ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان . وقال البعض ان ما دفع السلطان لفعل ذلك لم يكن الكلام « المنكى » الذى سمعه ، بل لأنه رأى فى المنام نجوما تساقط من السماء ، تبعها سقوط القمر ، وفسر ذلك بأن النجوم هى العسكر الذى يموت بالطاعون ، والقمر هو شخصه الكريم . . ودفعه هذا الى اظهار أسباب العدل وإبطال المظالم . . قبل أن تسقط النجوم . . ويسقط القمر .

اللعبة والمأساة

بدأت دولة المماليك بلعبة ، وانتهت بمأساة : لعبة تولت خلالها « شجرة المر » السلطنة المصرية ، ثم ماتت ضربا « بالقباقيب » ، وظلت ملقاة فى فناء القصر حتى سرق اللصوص تكة سروالها ، وكانت مضفرة بخيوط من الذهب ومزينة باللكمى على ما يقول المؤرخون .

أما المأساة فقد حدثت فى « مرج دابق » ، عندما خرج السلطان المملوكى « قانصوة الغورى » ليواجه الجيوش العثمانية الغازية بقيادة « سليم الاول » وكان طبيعيا ألا ينتصر السلطان وجيشه مجموعة من المرتزقة الذين لا يهمهم فى شىء أن تنتصر مصر أو تهزم ، بقدر ما كان يهمهم أن يعيشوا لنفسهم ، وأن يستنزفوا ثروات الشعب ، ليشبعوا بها شهواتهم .

وفى المعركة لعب العدو بكل التناقضات بين فرق المماليك ، وبما بينهم من صراع على العرش ، وشجار على المرتبات والأرزاق ، شغلهم عن الاهتمام بالوطن ، الذى لم يكن يعينهم من أمره الا أنه مصدر للذهب ووسيلة الارتزاق ، وهكذا نجح جواسيس العثمانيين فى توسيع شقة الخلاف بين أمراء المماليك حتى ظن كل فريق أن خطة الحرب وضعت لالتهامه لحساب الفريق الآخر ، وكان « خاير بك » قد تواطأ مع الغزاة فانسحب هاربا وكسر ميسرة الجيش ٥٠ ذلك انه كان - بتعبير ابن اياس - « موالسا » مع ابن عثمان .

ووقف السلطان الغورى وحيدا وقد هرب العسكر كلهم ، وهو يصيح فى الأمراء والمماليك :

- يا أمراء ٥٥ هذا وقت المروعة ٥٥ هذا وقت النجدة .

فلم يسمع له أحد قولا ٥٥ وغلت أيديهم عن القتال ، وخاف واحد ممن بقوا مع السلطان من الأمراء أن يصيبه مكروه ، فدعاه للهرب بنفسه ، فلما تحقق السلطان من الهزيمة ، أصيب بشلل فى وجهه ، فطلب ماء ، فأتوه به فى طاسة من ذهب ، وما أن شرب حتى هم بالمسير بحصانه ، فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس ، وانطفأت - كما يقول ابن اياس - فى قلبه جمرة نار ، ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته ، وطلع من حلقه دم أحمر .

وبموت الغورى ، انتهت دولة المماليك ، ووقعت مصر تحت أقدام الغزو ، بسبب المماليك الذين « لم يجذبوا سيفا ولم يهزوا رمحا » لأنهم « لم يفتخروا أبدا فى مصالح الناس بعين العدل والانصاف » .

اللعب بالسيف

كان كل الذين أتوا لغزو مصر ، مجموعة من البرابرة ، قساة القلوب ، غلاظ الأكباد ، يفتقدون دائما لأى حس انسانى مهما كان بسيطا .

وفى سنوات الغزو ، كان الشعب المصرى يعانى الأمرين من فظاعة أساليب المحتلين وحقارة نفوسهم . فعندما دخل العثمانيون مصر ، أحالوا حياة المصريين الى جحيم ، ويصف « ابن اياس » ما فعله الغزاة ، فيقول أن « العثمانية طفشت فى جميع الحارات والأماكن ، وحطوا غيظهم فى العبيد والغلمان والعوام ، وغيرهم من الزعر ، ولعبوا فيهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وصارت جثثهم مرمية فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلى ، ومن الرميلى الى الصليبية الى قناطر السباع (السيدة زينب الآن) » .

ويقدر ابن اياس من قتل فى هذه الواقعة فوق العشرة آلاف انسان ، فى الأيام الأربعة الأولى من وصول قوات الغزو الى القاهرة .

ليس هذا فقط بل ان طوائف العسكر العثمانى ، هجمت على الناس فى بيوتهم وأخرجوهم منها ، وسكنوا بها ، حتى أصبحوا كالجراد المنتشر من كثرتهم ، وكانوا يقتحمون أبواب البيوت ونوافذها بخيولهم ، فضيقت الناس هذه الأبواب ، حتى أصبحت كالطاقات الصغيرة ، وبرغم هذا استمر الهجوم العثمانى ، وهدم الجنود ما ضيقه الأهالى .

وطاف السلطان سليم العثمانى بالسيف فى رقاب أمراء المماليك ، فضع مجدهم ، وأصبحت جثثهم ملقاة فى الطرقات تنهشها الكلاب بالنهار والضباع والذئاب بالليل ، وكانت زوجاتهم تدفعن أموالا للحراس لكى تستردن جثثهم ، حتى تتمكن من دفنهم .

وكانت تلك نهاية طبيعية لدولة المماليك ، التى لم تهتم أبدا سوى بأن تعيش متطفلة على عرق المصريين وجهدهم حتى وقعت مصر تحت أقدام الغزاة بسبب اهمالهم وترددهم وخيانة بعضهم .

الشيخ أبو السعود

جاء شهر رمضان من عام ٩٢٢ هـ . والناس فى مصر على غير ما يرام .

فى منتصف رجب ، مات « قانصوة الغورى » آخر سلاطين المماليك تحت سنايك الخيل ، أصابه شلل فجائى ، وذهبت به سكتة قلبية ، وهو يرى

بعينى رأسه ، كيف أضاعت الخيانة سلطنته ، كما ذهب بها جبن الأمراء وترددهم ، وخوفهم على ما يملكون من متع ونساء وثروات .

وكان ما حدث له ، أول الفواجع من هذا النوع ، ذلك أن سلطانا لم ينكسر انكساره ، ولم يهزم هزيمته ، ولم يمت تلك الميتة الغريبة ، التى تجمع بين المأساة والمهابة . . وبين السمعة والضحكة .

وكانت جيوش السلطان العثمانى سليم شاه قد اجتاحت خلال شهر شعبان حلب وبقية البلاد الشامية الى نهر الفرات ، وسقطت ثلاث عشرة من القلاع التابعة للسلطنة المصرية ، وتلقت القاهرة أنباء الهزيمة بخليط من الذهول والبكاء وقليل من التشفى .

وفى الأيام الأولى من رمضان ، عادت الى القاهرة فلول الأمراء المهزومين ، وملك بعض الخونة الجبناء منهم الشجاعة لكى يعودوا فى الوقت الذى لم يملكوها ليحاربوا أو يموتوا . وكان منهم « قانسوة الأشرفى » نائب قلعة حلب : واحدة من أقوى القلاع المصرية سلاحا ورجالا وعتادا ، ومع ذلك سلمها الأشرفى ببساطة ، وعاد الى القاهرة ليبحث عن منصب أو ليطمئن على بيت أو مال أو حريم .

وكان القائم بالأمر فى القاهرة أيامها هو الأمير « طومان باى الثانى » نائب السلطان ، وقد أمر بحبس الخونة والجبناء ، وطالبه الباقون بتولى السلطنة ، فرفض ذلك ، وألحوا عليه ، فأصر على الرفض ، فذهبوا معه الى العارف بالله « الشيخ أبى السعود » وعرضوا عليه المشكلة ، وقالوا : أن السلطان الغورى قد مات ، ونصف السلطنة قد وقع فى أيدي الغزاة ، ولا يمكن أن تظل البلاد بلا سلطان ، وطومان باى يرفض السلطنة . . فدعاهم الشيخ الى القسم على المصحف ، بأنهم اذا سلطنوه ، لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ، فحلفوا على ذلك .

وكان الشيخ قاسيا ، فاشتد على الأمراء ألا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا وأن يبتلوا جميع ما أحدثه الغورى من مظالم ، وأن يلغوا عددا من الضرائب غير الضرورية . وختم حديثه لهم بقوله :

— ان الله تعالى ما كسركم وذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر .

وصاح الأمراء :

- تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم .
- وأنفض المجلس . . ولكن الظلم لم ينفذ .

الجسد فى المشقة

على باب زويلة شنق السلطان « طومان باى » آخر سلاطين المماليك ،
وبموته انتهت - الى حين - آخر حلقات المقاومة الرسمية ضد الغزو العثمانى
وتحمل الشعب المصرى مهمة القتال دفاعا عن استقلاله وحرية أرضه .

وعندما وقع « طومان باى » فى أيدي السفاحين الأتراك ، أعجب
السلطان سليم العثمانى بشجاعته ، ولم يكن فى نيته قتله ، وعندما وردت
الأخبار الى القاهرة بوقوع السلطان أسيرا فى يد الغزاة لم يصدق الشعب
ذلك ، وسرت الاشاعات بأنه ما زال هاربا ويستعد للمقاومة ، واستفزت
الاشاعة السلطان العثمانى الذى سارع باعلان سقوط « طومان باى » فى الأسر
ليمنع المصريين من التكتل والتجمع للحرب ضد الغزو ، وأمر بأن يمر السلطان
الأسير فى شوارع القاهرة راكبا حمارا صغيرا وبنفس الملابس التى كان
يرتديها عندما وقع فى الأسر ، وأشيع أن « سليم الأول » ينوى نفي « طومان
باى » الى مكة وليس فى نيته قتله .

فيما بعد عدل الغازى العثمانى عن فكرته ، وكان وراء عدوله عن ذلك ،
أنه أحس بأن بقاء « طومان باى » حيا يستفز الرغبة فى المقاومة لدى
المصريين ، ويدفعهم للتجمع والتريص بالغزاة ، كان يريد أن تستسلم كل
رموز المقاومة لكى يفقد الشعب القدرة عليها نهائيا ، وهكذا تقرر أن يعدم
« طومان باى » ، ومر موكب السلطان الشاب فى شوارع القاهرة ، وعلى
طول الطريق كان يسلم على الناس ، وعندما وصل الى « باب زويلة » أنزلوه
عن فرسه وأرخوا له الحبال ، ووقف حوله الجنود العثمانيون بالسيوف
المسلولة ، ولما تحقق أنه سوف يشنق ، وقف على أقدامه على باب زويلة وقال
للناس الذين حوله :

• - اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات

ثم بسط يديه وقرأ الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ، وبهدوء
قال للسياف :

• - اعمل شغلك

ووضعوا الخية فى رقبته ، ولكن الحبل انقطع به ثلاث مرات ، فسقط
على باب زويلة ، فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ،
وكثر عليه الحزن والأسف . فقد كان شابا حسن الشكل كريم الأخلاق ، لم
يتجاوز الرابعة والأربعين من عمره ، يقول ابن اياس عنه أنه كان « بطلا
شجاعا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفنك فى عسكر
ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى وكسرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من

عسكره ، رفض أن يظلم أو يقرض مظالم » ، وعندما أغراه مستشاروه بذلك قال :

– ما أجعل هذا مسطرا فى صحيفتى •

وكان جسد « طومان باى » معلقا يتأرجح فوق « باب زويلة » لكن روح مصر المقاومة لم تتأرجح أبدا •

الباشا والشيخ

لم تعرف مصر نظام مشيخة الجامع الأزهر قبل الفتح العثمانى ، وكان العثمانيون يهتمون اهتماما خاصا بالوظائف الدينية ، ولما كان الجامع الأزهر يحتل مركز الصدارة بين المساجد والمعاهد الاسلامية ، ويضم جمهرة كبيرة من علماء الاسلام من كافة البلاد الاسلامية ، فقد كان طبيعيا أن يكون لشيخه مكانة خاصة •

ومن الشخصيات التى يرجح انها تولت هذا المنصب فى بواكير نشأته الشيخ « شهاب الدين احمد بن عهد الحق السنباطى » وكان واعظا بالأزهر ، ارتفع صيته ، ونبه ذكره ، ولم يقبل الناس على واعظ قبله كما أقبلوا عليه ، ويقول عنه معاصره الامام الشعرانى « انه كان اذا نزل من فوق الكرسي يقتتل الناس عليه » ، ويذكر أنه كان متقننا فى العلوم الشرعية ، وله باع طويل فى معرفة مذاهب المجتهدين ، وان شهرته تعدت حدود مصر ، لتصل الى الشام والحجاز واليمن ، وحتى استانبول •

وكان الشيخ السنباطى شجاعا فى الحق ، لا يخشى سطوة حاكم ولا جيروت متسلط ، وقد حدث أن عين السلطان العثمانى « داود باشا » واليا على مصر ، فتصدى الشيخ لموكب الوالى وقال له امام الناس :

– أنك رقيق ولا يجوز لك أن تتولى الأحكام ، وأحكامك باطلة ما لم تعتق •

وغضب الوالى غضبا شديدا ، وهم بضرب عنق الشيخ بالسيف ، لولا أن تدخل الجنود ورفضوا تنفيذ أمره بإعدام الشيخ ، بل وأخذوا جانبه ،

وكادت تكون فتنة ، واتسعت رقعتها فأرسل الباشا نبأها الى السلطان الذى
اقتنع باعتراض الشيخ ، فأنعم على الوالى بالعتق وأرسل يشكر الشيخ .

وسعى الباشا الى الامام السنباطى ، فقبل أقدامه ، وحاول أن يسترضيه
بمال أو هبة ، فلم يقبل منه شيئا ، ومن يومها أصبح لا يرد للشيخ رأيا
ولا شفاعة .

وقد مات الشيخ بعدها بقليل ، وقال الامام الشعرانى فى ذلك « ولما مات
اظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين » .

الأمير « خاين بك »

فى معركة مرج دابق خان الأمير المملوكى « خاين بك » الجيش المصرى ،
وانسحب بفرقته - بناء على اتفاق سابق مع الغزاة - تاركا قلب الجيش
مكشوفاً أمام فرسانهم ، وهو ما أدى الى هزيمة الجيش المصرى فسقطت مصر
تحت أقدام العثمانيين .

ومكافأة له على خيانتته عينه السلطان العثمانى سليم الأول حاكما على
مصر المحتلة ، فسار فى الناس سيرة سيئة ، وسماه العوام « خاين بك »
وعانى حصارا نفسيا رهيبا نتيجة لمعاملة الناس له ، الذين لم يغفروا له تواطؤه
مع الغزاة ، وخيانتته للوطن ، فتحول الى سفاك شرس حتى وصفه معاصروه
بأنه كان جبارا عنيدا ، سفاكا للدماء ، قتل فى مدة ولايته ما لا يحصى من
الخلائق ، وشنق رجلا لأنه سرق ثمرة فاكهة من حديقة له ، وشنق فى مدة
حكمه - وهى خمس سنوات - ما يزيد عن عشرة آلاف انسان ، وأغلبهم
راح ظلما .

وكان من المعتاد ، عندما يصاب الأمير المملوكى بمرض الوفاة ، أن يبر
بالناس ، حدث هذا فى عصر الأشرف قايتباى ، وفعله أيضا قانصوة الغورى
الذى أصيب بعارض فى عينيه ، وخشى الاصابة بالعمى ، فجاد على الناس ،
وأفرج عن السجنون .

وعندما دخل « خاين بك » فى النزح الأخير ، أعتق جميع جواريه
وعبيده ، ومماليكه ، وأمر بتوزيع عشرة آلاف اردب قمح على الفقراء

والمجاورين ، وأفرج عن المحابيس رجلا ونساء ، ولم ير الناس فى أيامه أحسن من تلك الأيام . وتحول الخائن الذى باع بلده ، والذئب الذى ابتكر وسائل للتعذيب جعلت قلب العصر - على قسوته - يرتجف خوفا ، تحول الى انسان ضعيف ، جاد مع الناس ، وبر بالفقراء والمساكين ، وقال « ابن ياس » ان ذلك لم يفده بشيء ويأبى الله ما أراد .

بعد موته نزل حريمه من القلعة ، على وجوههن غبرة ، وهن فى غاية الذل ، وعلق أحد مؤرخى العصر على ما فعله فى أواخر أيامه ، فقال « وغالب هؤلاء المماليك لا يعرفون الله الا وهم تحت الحمل اذا جرت عليهم مصيبة ، يجودون فى حق الناس ويفعلون الخير » .

المجنا كارتا المصرية

برغم كل مظالم الحكم المملوكى استمر الشعب المصرى يقاوم سلطتهم ، ويفرض عليهم مطالبه ويجبرهم أحيانا على الخوف منه ، ووضع فى الاعتبار .

ففى عام ١٧٩٥ م رفع فلاحو احدى قرى بلبيس شكوى الى الشيخ « عبد الله الشرقاوى » شيخ الجامع الأزهر من « مراد بك » و « إبراهيم بك » وكانا يتقاسمان السلطة فى مصر أيامها فأحال الشيخ الشكوى اليهما وطلب منهما أن يعملا على منع « الألقى » من التعرض للفلاحين والحق الأذى بهم ، وضاعت الشكوى كالعادة فى ردهات القصور المملوكية .

واستفز استمرار الاضطهاد وتجاهل الشكوى شيوخ الأزهر . فعقد « الشيخ الشرقاوى » اجتماعا فى الأزهر حضره العلماء وتبادلوا الرأى فى المسألة . ثم قرروا المقاومة بالقوة والاعتصام بالأزهر واغلاق أبوابه عليهم ، ودعوة الناس لاغلاق الأسواق والحوانيت استعدادا للمقتال . وفى الليلة التالية بدأ الاعتصام وقضى العلماء ليلتهم بالأزهر . وتجمع الناس أمامه يعلنون باحتشادهم تأييدهم للعلماء فى مطالبهم .

ونتيجة للمناقشات الموسعة التى جرت بين الشيوخ وممثلى الشعب ، تجاوزت الحركة أهدافها ، لتصبح لها أهدافا أشمل وأوسع ، فطالب المجتمعون

يتنفيذ ثلاثة مطالب أولها أن يكف الأمرء عن فرض الضرائب جزافا ، فلا تفرض الضرائب الا اذا أقرها ممثلون عن الشعب هم المشايخ ، وأن تنفذ أحكام المحاكم التي يصدرها القضاة ، أما المطلب الثالث فكان أن يكفل الأمرء حرية الناس ، بحيث لا تمتد يد نى سلطان الى فرد من الأمة الا بالحق والشرع .

وعندما شعر الأمرء بقوة الحركة حاولوا التوصل من مسئولية كل هذه المظالم ، فبعث « مراد بك » للمعتصمين يخطرهم بأنه برىء مما حدث ، وأن المسئولية كلها تقع على عاتق شريكه فى الحكم « ابراهيم بك » . ونزل الوالى العثمانى من مقره بالقلعة الى المدينة فاجتمع بالأمرء . وقرروا ضرورة ايجاد حل حاسم لهذه المشكلة قبل أن يفلت الزمام من أيديهم وتشتعل نار الثورة ، ودعوا المشايخ : الشرقاوى والبكرى والأمير وعمر مكرم للاجتماع بهم . وأصر المجتمعون على مطالبهم . . . وأضافوا الى هذه الشروط شرطا هاما ، هو أن يحرر قاضى الشرع حجة شرعية تتضمن هذه المطالب ويوقع عليها الأمرء والوالى ، لتكون وثيقة لحقوق المصريين يتم التحكيم بينهم وبين السلطة على أساسها .

ووقع الأمرء الوثيقة . وكانت كما وصفها الاستاذ « العقاد » ماجنا كارتا مصرية ، تشبه وثيقة اعلان الحقوق التي فرضها الشعب الانجليزى على ملوكه فى القرن السادس عشر .

« العيال » على العرش

خلال العصر المملوكى ، حكم « العيال » مصر ما يزيد عن نصف قرن . . حدث ذلك عندما كان السلطان يستخلف ابنه الطفل على عرشه ، ويموت تاركا له العرش ، فيحكم عاما أو عامين ، يذيق فيها الشعب العذاب بتصرفاته الطائشة وسياسته الصبيانية . وعلى امتداد الحكم المملوكى ، تولى سبعة عشر طفلا حكم مصر ، منهم ستة تقل أعمارهم عن العاشرة ، والباقى « تحت ١٦ سنة » .

وكان بعضهم صغيرا الى درجة الضحك ، ومنهم الملك المظفر احمد ، الذى تولى الحكم وعمره عشرون شهرا ، فاعترضت البلاد على جلوس طفل رضيع

على عرش السلطنة ، ولكن « الأمير ططر » - الذي كان يحكم من خلف الستار - استمر في اتمام مراسيم تنصيب السلطان الطفل ، وأجلسه على سرير الملك ، وحين بدأ الأمراء يقدمون له فروض الولاء بكى « الملك » لأن مرضعته لم تكن بجواره ، فاستدعوها ، وأخذته في حجرها ، والأمراء ينحنون بين يديها يبأيعون الملك الطفل بالسلطنة ومولانا نائم كالملائكة في أحضان المرضعة .

على أن بعض هؤلاء السلاطين الأطفال كان ولدا شقيا . ومنهم « الناصر فرج » الذي تسلطن وهو في الثانية عشرة من عمره ، ومع ذلك كان يشرب الخمر الى نصف الليل ، ثم يخرج الى الحوش السلطاني بالقلعة وهو سكران ، فيستعرض المماليك الذين في السجن ، ويطلب سكاكين حامية يذبحهم بها ، ويدوس على وجوه بعضهم بأقدامه ، ثم يبول عليهم أو يصب النبيذ على أجسادهم . ويروى ابن اياس في تاريخه : أن الناصر فرج ذبح من أولئك المساكين نحو من ألفي مملوك ، بمتوسط عشرين في الليلة الواحدة .

وتسلطن « الناصر محمد بن قايتباي » وهو في الرابعة عشرة ، وكان مراهقا شريرا ، منع الناس من الخروج ليلا في المشوارع ، وعاقب النساء ، بقطع أجزاء معينة من أجسادهن ، ينظمها في خيط كالمسبحة لتكون دليلا على فتوته الجنسية ، ووصل به الأمر أن هجم يوما على جارية ، فقيدها ثم شرع يسليخ جلدتها عنها كالجزارين ، وهي حية تصرخ وتستغيث . وجاءت أمه على الضجة ومعها رجال القصر ، وأخذوا يستشفعونه ليترك الجارية ، فلم يستجب لأحد ، وظل مستمرا بانهمك في عمله ، وعندما أتم سليخ الجارية حشا جلدتها بثياب كثيرة ، وخرج لمن كانوا بانتظاره فعرض عليهم فنه وفاخر أمامهم بأن الجزارين يعجزون عن اتقان عملية السليخ كما اتقنها .

وكم قاست مصر من الجلادين : صغارا وكبارا .

يحكمون بالأكذوبة

كان النظام المملوكي نظاما كاذبا ، وقحا في أكاذيبه ، منح سلاطينه أنفسهم ألقابا تدعو للضحك الى حد البكاء ، لتناقضها مع واقع حكمهم ، فما أكثر الذين منحوا أنفسهم لقب « الملك العادل » فلم تر مصر ظلما كما رأته في

أيامهم ، وسمى بعضهم نفسه « الملك المظفر » وهو الذى لم ينتصر فى معركة ،
أما لقب « الناصر لدين الله » فقد تسمى به كثيرون ليس لهم بالله من سبب ،
طبقت شهرتهم فى الفجور واللصوصية الآفاق ، وزكمت فضائهم الأنوف .

عندما تولى « اسماعيل بن الناصر قلاوون » الحكم ، منح نفسه لقب
« الملك المصالح » وكان من آيات صلاحه ، أن تفرغ لشئون القصف واللهم ،
وأمضى حكمه بين حفلات الغناء والطرب ، لا يفيق من الخمر ، ولا يغادر
أحضان النساء ، وفى معظم أيام الاسبوع كان يخرج فى نزعات خلوية
طويلة ، الى سرياقوس أو الجيزة ، ومعه ما لا يقل عن مائتى امرأة غير الخدم
والجشم والمطربين ولوازم الأفس والسرور .

ومن فرط « صلاحه » تقرر الرشوة فى عهده ، وأصبحت تقليدا
رسميا ، فأنشأ لها ديوانا خاصا ، يعرف بديوان البذل « أو البرطيل » ، ومهمة
هذا الديوان أن يأخذ من الناس الرشاوى ثمنا للوظائف أو لقضاء الحاجات .
وأصبح من العادى فى عهده أن يتوجه الناس الى « ديوان البرطيل » ليدفعوا
« المعلوم » ، فتقضى حاجاتهم ، أو تصدر أوامر بتعيينهم فى الوظائف الكبيرة ،
وفيما بعد انتشرت الرشوة حتى أن الأمير « بلباى الايغالى » اشترى حكم
ولاية صنف بعشرين ألف دينار ، ثم طمع لتولى العديد من الوظائف ، فدفع
برطيليا جديدا ، وأصبح بذلك قائدا للجيش وناظرا للوقف ، ونائبا للسلطان
بدمشق .

ودخل رجال الدين هذا المزاد الغريب لشراء مناصب القضاء ، فكانوا
يزايدون على كل منصب يخلو . ووصل الأمر الى أن القاضى « رضى الدين
المغزى » اتفق على دفع تسعمائة دينار ذهبى ليتولى قضاء دمشق ، فدفع
مقدم الثمن ، وكتب على نفسه سنداً بالباقي ، وهكذا قننت الرشوة ، فأصبحت
شرعية يقرها رجال الدين ، ويتقاضونها ، ويسجلون ذلك على أنفسهم كتابة .

كما كان الشعب يدفع ثمن « عدل » العادلين ، وهزيمة المظفرين ، فان
« تقنين الرشوة » جعل الشعب يدفعها من قوته وبالريح المركب ، فالموظفون
يشترتون المناصب بالمال ، ويجمعونه - مع أرباحه - من الناس بعد أن تسند
اليهم الوظائف .

ولكن هذا كله قد قوض النظام المملوكى . . ان ظل بعض الناس يشترتون
الوظائف الصغرى ، ثم المتوسطة ، الى أن نجح بعضهم فى شراء منصب
نائب السلطان ، وأصبحوا فى المكان الذى أتاح لهم أن يطردوا السلطان عن
العرش ، ليحلوا محله . . فالذين يحكمون بالأكذوبة . . يفقدون السلطة
بنفس الأكذوبة .

مرة واحدة في العمر

لم يعرف أحد من سلاطين الممالك الله الا فى المآزق والخطوب . فعندما يكون السلطان قويا ، فانه لا يهتم بصلاة أو بصوم ، ولا يعنى بالفقراء ولا بالشعب !

فعندما كان « السلطان قلاوون » قويا ، استخدم نفوذه ليضغط على أحد أمرائه ، وهو الأمير « كتبغا المنصورى » ، لكى يطلق زوجته ، ذلك أن « على » ابن السلطان كان قد رآها فى إحدى الحفلات فأعجبه جمالها ، وكاد يهلك من الغم عندما اكتشف أنها متزوجة ، وعرف والده بالأمر فسعى لتطليقها من زوجها ، وتم له ما أراد .

وبعدها بسنوات فاجأ المرض « على » بعد أكلة دسمة ، واشتد عليه الاسهال وانتشرت الشائعات بأن « خليل » الابن الآخر للسلطان ، هو الذى دس السم لشقيقه ، وكان هذا من الأمور الطبيعية فى العصر ، واهتز « قلاوون » لما أصاب ابنه ، فدعا بعض الصوفيين المعروفين بالصلاح والتقوى ليلتمسوا له الشفاء من الله ، ورفض الشيخ « محمد المرجانى » دعوته فبعث اليه بمبلغ من المال لكى يقيم حضرة ذكر ، يطلب فيها الفقراء والصوفيين ولد السلطان من الله ، فقال الشيخ المرجانى للرسول :

– سلم على السلطان وقل له أن أحدا لا يستطيع أن يطلب من الله أنسانا اختاره لجواره .

ورد اليه ماله .

وكان الشيخ « عمر أبو السعود » أكثر صراحة مع السلطان ، فعندما وجه اليه نفس الطلب قال الشيخ :

– أنت رجل بخيل . ما يهون عليك شىء ولو خرجت للفقراء والمتصوفة عن بعض مالك لعملوا وقتنا وتوسلوا الى الله أن يهبهم ولدك ، وبذلك يتعافى . وبالفعل أعطاه السلطان مبلغا كبيرا من المال وزعه على الصوفية ، ثم عاد للسلطان فقال :

– طيب خاطرک ، الفقراء كلهم سألوا الله ولدك وقد وهبه لهم .

وبرغم ذلك مات على بعد اسبوعين ، ورأى السلطان الشيخ بعد الوفاة فقال له :

– يا شيخ عمر . . . أنت قلت ان الفقراء طلبوا ولدى من الله وانه وهبه لهم .

فأجاب على المقور :

– نعم الفقراء طلبوه ، ووهبهم آياه الا يدخل جهنم ويدخل الجنة .
ولعل الشيخ كان يقول فى نفسه أن السلطان ينصب علينا كل يوم فلماذا
لا نستغله مرة واحدة فى العمر !؟

« صادومة الدجال »

كان « عبد الرحمن الجبرتي » مؤرخا مسلما سنيا بالغ التشدد فيما يتعلق بالسنة ، وكان كذلك صوفيا معتدلا أزعجه ما شاهده فى عصره من انتشار الخرافة والجهل وتدهور التصوف من فلسفة راقية الى دروشة مهترئة ، لذلك تصدى لأدعياء التصوف بشراسة فائقة وعرى خرافاتهم وادعائهم الولاية فى تاريخه الكبير .

وتمثل الصورة التى سجلها الجبرتي عن « الشيخ صادومة » نموذجا لهذه الفئة المتأخرة من ادعياء التصوف ومفاسدهم ، فقد كان قادرا على مخاطبة العوام واثارة غرائزهم الفطرية ، وهو ما مكنه من السيطرة على عقولهم وتوجيه سلوكهم . والشيخ صادومة فى الأصل من سمنود حقق شهرة عظيمة وباعا طويلا فى الروحانيات ، وأشيع بين الناس أنه قادر على تحريك الجمادات والسميات ، وأدعى أنه يستطيع مخاطبة الجن والظهور لهم بالعيان ، وتحالف مع عدد من المشايخ الذين قبلوا خرافاته ، كان على رأسهم الشيخ « حسن المفراوى » الذى تولى منصب افتاء الشافعية .

وكان ممكنا أن يظل « الشيخ صادومة » سادرا فى غيبه ، يدعى أنه يكشف الحجب وتظهر الخوارق على يديه ، وأنه قادر على تحويل الأجسام النوعية من صورة الى أخرى عن طريق القوة النفسية لا الصناعة العملية لولا حادث بسيط .

فى ذلك الوقت كان بمصر أمير مملوكى هو الأمير « يوسف بك الكبير » ، وكان على عكس أقرانه من الأمراء ، مفكرا يتأمل فى المسائل ولا يجب الخرافات ، وبالإضافة الى ذلك كان عصبيا شديدا غضب ، وخاصة مع الدراويش

والمشعورين ومدعى الكرامات والمتاجرين بالدين • وبرغم ذلك فإن « الأمير يوسف بك الكبير » لم يمس « صادومة » لأن الأقدار لم تلق به بين يديه •

وجاء قضاء الشيخ صادومة في اثره ، فقد كان للامير جارية أراد يوما أن يختلى بها ، وفوجيء بكتابة طويلة على مكان حساس من جسدها فاستوضحها الأمر ، فرفضت باصرار شديد ، وثار الأمير كعادته وهددها بالقتل ، فرضخت واعترفت بأن امرأة عينتها ذهبت بها الى الشيخ صادومة ، طلبا لوصفة أو حجاب يحببها الى سيدها الأمير ، وأن الشيخ رأى أن يكتب على ذلك الجزء من جسدها ما قرأه الأمير •

وثار الأمير للاهانة التي لحقت ببعض نسائه ، فنزل في الحال وأرسل فقبض على الشيخ صادومة ، وأمر بتفتيش منزله ، وأخرج منه تماثيل مخزية تدل على عهره وابتداله ، فأمر الأمير بعرضها على الناس وهو يقول لهم :

- انظروا أفاعيل الشيخ •

وعزل الأمير مفتى الحنفية وأمر بقتل الشيخ صادومة ، ولم ينجده علم السیما ولا ادعائه الخوارق وهو تحت حد السيف !!

السؤال الغريب

تدهورت حالة مصر في العصر المملوكي ، وخاصة في المرحلة الثانية منه ، فقد انقرض الجيل الأول من المماليك الذين جلبوا في حادثة سنهم كى يعدوا خصيصة للقتال ••• وملت السلطنة المصرية الشامية بعدهم الى مرتزقة ، كان معظمهم يعمل اما وقادا في فرن ، أو بستانيا حتى أصبح حكم مصر - كما قال المؤرخون - يؤول لأرذل الناس وأدناهم •

وعرفت مصر استخدام المدفع بعد قرن وربع من استخدامها في اوربا ، وكان أول من سبك المدفع في مصر « ابراهيم الحلبي » ، وقد جرب المدفع الذي سبكه لأول مرة في آخر رمضان من عام ٨٩٨ هـ (١٤٩٢ م) • وسحب بعد تجربته الأولى الى خارج القاهرة ، حيث نصب في سفح الجبل الأحمر ، ووجه الى منطقة الخانكة ، وتم اطلاقه مرتين بحضور أعيان الدولة وكبار

موظفيها ، وقيست مسافة سقوط رميته فجاءت ٤٦٢ ذراعا ٠٠ وفي التجربة الثانية وصل مداه الى ٤٦٨ ذراعا ٠

حدث هذا في عصر « السلطان قايتباي »

ولم يكد يمز قرنان من الزمان ، حتى تدهورت حالة مصر ، ولم يعد لسلطينها هم سوى تثبيت سلطانهم ، وانشغلوا بحرب الشوارع والحارات والأزقة ، ولم يعد للفريق المختصر منهم هم سوى فتح أبواب مصر للأجلاف الواقدين من بنى جنسه ليثروا على حساب جوع الشعب وعريه واستقلال مصر وحريتها ٠

وفي عام ١٧٩٨ م وفد الغزاة الفرنسيون الى مصر ، وعندما علم « مراد بك » و « ابراهيم بك » حاكما مصر آنذاك ، بقرب ورود الاسطول الفرنسى ، أمرا بصنع سلسلة ضخمة لسد بوزاغ الاسكندرية متصورين أنها قادرة على منع الاسطول الفرنسى من الاستيلاء على الميناء ٠ وقد سخر الجبرتي من جهلهم وغبائهم وتصورهم السانج بأنهم يستطيعون هزيمة الاسطول الفرنسى بسلسلة سمكية ٠

وسقطت الاسكندرية ، وهزم المماليك فى معركة امبابه وفروا هارين ليبحثوا عن أموالهم وجواريتهم ، واجتمع « نابليون » بأركان حربه ، وسألهم عن المقاومة المتوقعة بعد هزيمة المماليك ، فقالوا له ان هناك عددا من شيوخ الأزهر يقرأون البخارى فى الأزهر الشريف ، وظن نابليون أن البخارى هذا اسم لأحد المدافع ، فسأل عن وزنه وعدد أرتاله ومدى قديفته ، واهتم بذلك اهتماما بالغا ٠ وأرسل أركان الحرب جواسيسهم ليبحثوا عن اجابة لسؤال نابليون الغريب (!!)

الجنرال فرط الرمان

اسمه الأصيل « برفايمى سيرا » وجنسيته يونانى ، وكعادة المصريين فى السخرية من جلاذيتهم سموه : فرط الرمان ٠

أيامها - فى أواخر العهد المملوكى - كانت مصر ميدانا خاليا لسفلة الأجانب ، ولأنه كان يحترف العسكرية فقد التحق بخدمة الأمير المملوكى

محمد بك الألفى فى فرقة الطوبجية - أى سلاح المدفعية - وكان طوبجيا بالليل ، وبائع زجاج فى أيام البطالة . وعندما جاءت الحملة الفرنسية الى مصر وعين وكيلاً لمحافظة القاهرة فأشبع بذلك نهمه للقتل والتعذيب ، إذ كانت هوايته المفضلة هى القتل الجماعى للمماليك والمصريين على السواء ، كان يطوف فى شوارع القاهرة والسيف مسلول فى يده ، وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين غلاظ القلوب على شاكلته ، وكان يطوف أحيانا فى صحبة زوجته وهى ترتدى الملابس اليونانية الوطنية وكانت مثله سادية تتلذذ برؤية مشاهد القتل ، فى الليل كان يدهم البيوت بحجة البحث عن الأسلحة أو الفارين من المماليك أو البدو المتمردين ، فإذا لم يجد أحدا من هؤلاء وأولئك ، كان يقتل الفلاحين الذين يصادفهم فى طريق عودته الى القاهرة ، ويجمع رؤوسهم ويحملها رجاله معهم ، وكان يحرص على أن يعود من جولاته بنتائج ايجابية تتمثل فى رؤوس قتلاه ، وكان يرى أن أكبر سعادة تلحق به من طوافه ألا يعود الى القلعة بدون « ايراد آدمى » ، سواء كان هذا الايراد رؤوس قتلى موضوعة فى زكائب أو أجساد أحياء قبض عليهم .

وبسبب اسرافه فى القسوة وامعانه فى الظلم ورغبته فى التشفى من الشعب المصرى ، ذهب مباشرة - بعد واحدة من جولاته - الى الجنرال ديبوى الحاكم العسكرى الفرنسى لمدينة القاهرة ، وكان يتناول الغذاء مع بعض ضيوفه ، فقدم اليه زكيبه ، ظن الجنرال أول الأمر أنها تحوى هدية بطيخ أو شمام ، فأمر بفض الزكيبه فإذا بها تحوى على اثنى عشر رأسا من رؤوس المصريين الذين قتلهم « برتلمى سيرا » جاء يعرضهم على رئيسه الجنرال فخورا ومختالا . وامتعض الحاضرون من هذا المشهد الدامى وأمر الجنرال باخراجه مع زكيبته من قاعة الطعام .

لحظتها لم يدرك « ديبوى » - الذى نغص عليه المشهد الطعام الشهى - انه هو المسئول عن دموية فرط الزمان ، فعندما يدخل المستعمر الأجنبى من النافذة يدخل القتل من أوسع الأبواب .

قلب الطاغية الحنون

يخفى الطاغية عادة جرائمه القاسية ، بالتظاهر برحمة كاذبة ، وغالبا ما يجد كثيرا من المغفلين أو الماجورين الذين يروجون لرحمته المزيفة ، وينظمون القصائد فى عطفه وشفقته .

فى أثناء ثورة القاهرة الأولى ، أمر « نابليون » بضرب المدينة بالمدافع فهدم مئات البيوت ، وقتل ثلاثة آلاف من الثوار المصريين ، واقتحم جنوده الأزهر - وكان معقل الثورة - بخيولهم ، وتفرقوا - كما يقول الجبرتي - بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة ، ودشتوا الكتب والمصاحف .

وفى اليوم التالى اجتمع لديه كبار المشايخ ، وكان يعتمد عليهم فى تدعيم سلطته ، فرأى من الحكمة ألا يخسرهم ، وعاتبهم لأنهم لم يوقفوا الثورة ، ثم أمرهم بأن يعلنوا عفوه الكريم على الملاء على أساس أن الدم الذى أريق فيه الكفاية .

وتحدث كثيرون عن « قلب نابليون » العطوف ، وأصبح صفح نابليون عن ثوار القاهرة موضوعا أثيرا لدى الرسامين والمثاليين الفرنسيين ، لكنه فى نفس اليوم الذى أعلن فيه العفو ، أصدر أمرا سريا ، بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين اعتقلوا وببدهم سلاح ، وأعدم ثمانين من أعضاء ديوان الدفاع ، وهو المنظمة الشعبية التى قادت الثورة .

واعتقل ستة من الشيوخ الذين تزعموا الثورة ثم نقلوا الى القلعة . .
وحوكموا أمام مجلس عسكري وحكم عليهم بالاعدام .

وأذيع أثناء ذلك بيان يعلن تسامح « نابليون » وعطفه الكريم ، وكتب الشعراء قصائد مدح ، ونحت المثالون روائع الفن .

كم قهرت جبابرة

قبل أن تغرب شمس الحكم التركى الملوكى بقليل ، ساد الغباء وانتشر ، وتصدى لأمور مصر عدد من الحمقى والجهلاء . . وكان « على باشا الطرابلسى » واحدا من آخر الولاة العثمانيين على مصر : جاءها بعد أن تضعضعت صورة الولاة والسلطين ، ولم يعد لأحد هيئة . صدر فرمان بتعيينه واليا على مصر فى وقت اشتد فيه ساعد الشعب ، بعد أن تحمل وحده عبء مقاومة الحملة الفرنسية ، حتى أجبرها على الرحيل ، وعندما عاد الأتراك - بعد رحيل الحملة - تصرفوا كأن شيئا لم يكن ، وتقدموا ليستولوا على الحكم ويتمتعوا بخيراته ويمارسوا سلطتهم بنفس الطريقة القديمة .

ولما جاء « على باشا الطرابلسي » ليتولى مهام منصبه حاول أن يلعب على كل الأطراف : على المماليك ، وعلى حاميات الجنود المرتزقة التي كانت منتشرة في مصر ، وكان أسلوبه هو أن يغري الجميع بالشعب . . . اجتمع بأمراء المماليك فقدم لهم الهدايا . . . وقال لهم :

— أنا عندما قلدوني ولاية مصر ، قلت للدولة أن أول حوائجي العفو والرضا على أمراء المماليك ، لأن لهم في عنقي جميلا عندما حضرت اليهم هاربا من طرابلس ، فأوونى وأكرموني وأقمت معهم مدة طويلة في غاية الحظ والاکرام .

وأقام الطرابلسي في معسكر المماليك ، وبدأ يناور فيرسل رسائل الى زعماء الأرنأؤوط والعربان ليعرض عليهم التحالف معهم ضد المماليك ، وضبط المماليك رسائل منه لأعدائهم . . . فلم يخجل وقال لهم :

— هذا شيء قد كان ونحن أولاد اليوم .

وقوجئوا به يكرر اللعبة ، فقد ضبطوا خطابا آخر أرسله الى الوجه القبلي ، يعرض على بعض أجنحة المماليك التحالف معه ضد الجناح الآخر ، فقالوا له :

— لا أمان لك معنا .

وعزلوه عن الولاية ، وقررت الدولة نفيه الى غزة .

وبرغم ذلك لم يكف عن التآمر . . . إذ حاول الهجوم على جنود المماليك الذين كلفوا بمصاحبته الى منفاه في غزة فقتلوه . . . وطوال كل هذه الألاعِب ، كان الطرابلسي يغري جنوده بالشعب ، قال يوما لعساكره :

— ان بلغت مرادى من أمراء المماليك وظفرت بهم وبالأرنأؤوط ، أبحث لكم القاهرة والرعية ثلاثة أيام تفعلون ما شئتم .

ولم يستطع تنفيذ وعده .

الأمير والبقرة

كان الأمير المملوكي محمد بك الألفي ، آخر أمراء المماليك الكبار .

بموته - كما يقول الجبرتي المؤرخ - انتهت دولتهم .. ولم تقم لهم قائمة .

كان كغيره من الأمراء أصله رقيق جلبه نخاس الى مصر وباعه الى الأمير « احمد جاويش » المعروف بالجنون ، فلم يعجب المملوك الصغير بسيدته فطلب بيع نفسه .. فاستقر عند الأمير مراد بك الذي اشتراه بألف اردب من الغلال فسمى لذلك بالألفى .

وبعد رحلة طويلة تقلد خلالها مناصب متعددة ، أصبح الألفى من كبار الأمراء ، خاصة بعد أن مات سيده « مراد بك » في أواخر الحملة الفرنسية على مصر ، وعندما عاد العثمانيون بعد جلاء الفرنسيين ، لم يثق فيهم وقرر الاستعانة بالانجليز عليهم .

وتعددت الأوضاع في مصر ، وقامت ثورتى عامى ١٨٠٤ و ١٨٠٥ فأنهتا الحكم التركى المملوكى لمصر ، وتولى « محمد على » حكم مصر بإرادة أهلها ، وقاد « محمد الألفى » تمردا عنيفا فى أنحاء القطر ، وسافر الى انجلترا فجأة فأقام فيها - كما يقول الجبرتي - سنة وشهورا وعاد منها ، وقد تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصناعاتهم وعدلهم فى رعييتهم ، مع كفرهم بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجدى ولا ذو فاقة ولا محتاج .

ويروى « الجبرتي » عن بعض الذين التقوا به بعد عودته من انجلترا .. أنه اجتمع ببعض أمرائه الذين نسب اليهم أنهم ارتكبوا المظالم فى صعيد مصر خلال سفره ، فكان سمره معهم فى تلك الليلة فى ذكر العدالة الموجبة لعمار البلاد ، وقال الألفى لأمرائه :

- الانسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها ، يلزمه أن يرفق بها فى العلف حتى تدر وتسمن وتنتج له الفتاح ، بخلاف ما اذا أجاعها واتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى اذا ذبحها لا يجد بها لحما ولا دهنا !

واحتج أمراؤه بأن هذا ما تروا عليه وتعودوه .. ولكن الألفى رفض ذلك وقال :

- أن اعطانى الله سيادة مصر والامارة فى هذا القطر لأمنع هذه الوقائع وأجرى فيه العدل ليكثر خيره وتعمر بلاده ، وترتاح أهله ، ويكون أحسن بلاد الله .

وكان الألفى قد عاد من انجلترا بمفهوم جديد للاستغلال .. فلم يعد اقطاعيا غيبا يستنزف - الى درجة الموت - الدجاجة التى تبيض ذهباً ،

ولكنه اكتسب عقلية المستغل الرأسمالى الذى يريح البقرة ويغذيها لكى تدر له لبنا أوفر وسمنا أكثر . . وكان ذلك مفهوم العدل لديه . . لكن الظروف لم تسمح له بتطبيقه إذ هوجم بعد كلامه هذا بساعات ثم فر ، ومات بعدها بفترة قليلة ، وأراح الله البقرة منه .

الشعر قبل الموت

وهم على مشارف الموت يصبح الطغاة شعراء :

واحد منهم كان الأمير المملوكى الشهير « محمد بك الألفى » . . الزعيم المملوكى الذى مات « فانهدم بموته ركن دولة المماليك ، وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم وزادت نفرتهم ، وما زالوا فى نقص واديار وذلة وهوان وصغار . ولم تظلم بعده راية وانقضوا وطردوا الى أقصى البلاد فى النهاية » .

وأيامها كان « الألفى » قد عاد من رحلته الى انجلترا ، حاملا معه اتفاقا مع الانجليز بأن يرسموا له حملة تفتح مصر وتمكنه من حكمها . . وقبل أن تاتى الحملة شن عليه « محمد على » - الذى كان قد تولى حكم مصر بإرادة أهلها - حملة عسكرية مضادة ، وأخذ ينتقل من بلد الى بلد ، انفض عنه مماليكه وتركوه يحارب وحده فى جمع قليل ، واجتمع عليه فى دمنهور بعض الأصدقاء وبدأ يشكوا لهم ، قال :

- يا فلان . . والله يخيل لى أن أقتل نفسى ، ولكن لا تهون على وقد صرت الآن واحدا بين ألوف من الأعداء . وهؤلاء قومى وعشيرتى تجنبونى وعادونى من غير جرم ولا ذنب سبق منى فى حقهم . وأشقوتى وأشقوا أنفسهم ، وملكوا البلاد لأعدائى وأعدائهم ، وسعيت واجتهدت فى مرضاتهم ومصالحتهم والنصح لهم فلم يزددهم ذلك الا نفورا وتباعدا عنى . انهم جندى لكن كل منهم يطلب منى رئاسة وامارة ، ويظنون لغفلتهم أن البلاد تحت حكمى ، ويظنون أنى مقصر فى حقهم . فتارة أعاملهم باللطف ، وتارة أزجرهم بالعنف . فأنا بين الكل مثل الفريسة والجميع حولى مثل الكلاب الجياع يريدون نهشى وأكلى .

ولا تفيدته الشكوى بشيء ، بل يدفعه جنوده ومماليكه الى التعدى على عباد الله وأخذ أموالهم وأكل مزارعهم وسرقة مواشيهم . ويكرهه الناس .

ينفض من حوله الجميع . وتتأخر حملة « فريزر » الانجليزية عن الجيء لشد أزره ، وتبدو الدنيا سوداء كالجيم . . . وتمضى عليه شهور ثلاثة ينتظر فيها المدد الانجليزى ، كان أو ان القبط وليس ثمة زرع ولا نبات . وتضيق به البحيرة حيث كان يقيم وسط ما بقى حوله من أنصار ، وتشكى العريان المجتمعون وتشكى غيرهم وهددوه بأن يرحلوا الى الصعيد ويتركوه فاضطر الى التحرك معهم مقهورا ، شعر أنه ضعيف . وعندما وصل الى قناطر شبرامنت نزل وجلس على مرتفع هناك . . . مقهورا ووحيدا ، تذكر وقتها أن الدنيا دارت ، قال شعرا أو ما يشبهه :

- يا مصر . . . أنظري الى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك وأراذل الأرنأؤوط ، وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ، ويقاثلون ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ، ويطعمون خيرك ويتمتعون ببهجتك ونورك .

واستمر الطاغية الشاعر . . . يتفوه بكلام كهذا . . . متوهما أنه هو مصر وأنه هو ابنها الذى ظلم وحورب ، نسى كل ما ارتكب من مظالم ، الى أنز تقيا دما . . . ومات .

يقرض الطغاة الشعر . . . لكن قبل الموت .

تهمة الاحاد القديمة

الالتهام بالكفر والاحاد والخروج عن دين الله ، هي التهمة التقليدية التى دأب الطغاة والخونة والعملاء على توجيهها لكل صاحب رأى ، ولكل من يدافع عن مصلحة الشعب .

فى مايو ١٨٠٥ م أصر الشعب على عزل الوالى العثمانى أحمد باشا ، وعلى تولية « محمد على الكبير » مكانه ، وتعصب الوالى وأصر على عدم النزول عن الحكم ، واجتمع حوله فى القلعة بعض المرتزقة والآفاقين . وتجمع التجار والعلماء وطلبة الأزهر والفقراء وأقاموا المتاريس فى الشوارع ، وأفتى القاضى بأن الوالى الذى يرفضه الشعب يجوز قتله ، وتولى زعيم الشعب عمر مكرم الدعوة الى العصيان العام ، وتوجه الى بيت طاهر باشا حيث

جرت مناظرة حادة بينه وبين بعض المنافقين الذين يساندون الطاغية المرقوض
قالوا له :

- كيف تعزلون من ولاة السلطان عليكم ، وقد قال تعالى : اطيعوا
الرسول وأولى الأمر منكم .

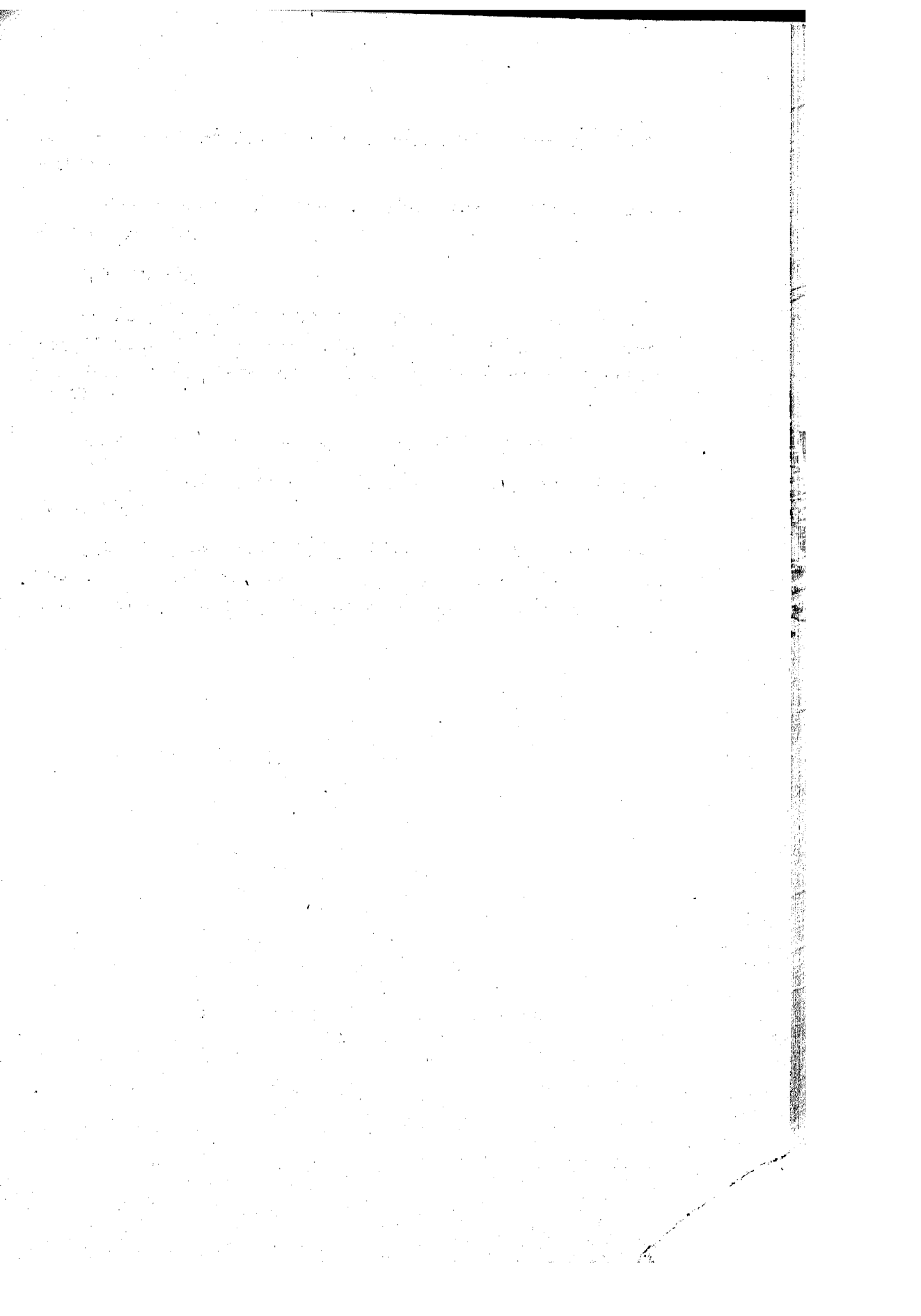
ورد عمر مكرم :

- أولوا الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا رجل
ظالم .. وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا
شئ قديم .. حتى الخليفة والسلطان ان سار فيهم بالجور فانهم يعزلونه
عن ذلك .

ولما أفحم عمر مكرم منافسه في المناقشة ، قال هذا الأخير :

- أنتم تحاربوننا بفتوى من القاضى والعلماء ، وهذه فتوى لا تصدر
الا عن كافر .

ورفض عمر مكرم الاستمرار في المناقشة بهذا الشكل ، وترك المجلس
منصرفا .. احتقارا لشأن محدثه ، ولم يكن يعلم أن هذا الداء السياسى
سيستمر كالمرض العضال فى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين .



قبل الفجر الثاني



زمن المحظيات - الباشا والسيد - أغراض نفسانية - اقربها
وخلصني - الصعايدة في ميدان العتبة - اللومان والقلعة - الباشا
والمواقع - ثفانين الصهيجي - النعمة والنقمة - الحصان العطشان - شروط
العبودية - الحذر والمقدر - سكلاريدس في بركة السبع - أرض شبرد - صراع
الجبنة - السكاكيني باشا - كفر الزيات كومبلكس - الطاعون لا يسمع -
الحديث في البولتيقا - العرق والخواجات - الضرتان والكلبي - الأصفار
والحضارة - التمثيل على الناس - ملك لا يموت - المهر دار في الساقية -
ولا دمنهورى - ظاهرة خليل أغا - على الله العوض - مصر المحبوسة -
أفندينا والملليم - أفراح الأنجال ، البطريك والمبشر - يد الله على قلب الملك -
الشاعر والأمير - احمد أفندى يفصل من الوظيفة - الصحافة والثورة -
الصحفي المقاتل - نكاء الثوار - مولانا أبو العلا - الأدميرال سيمور وش
القلمة - البرابرة الحقيقيون - الأحرار والمحافظون - شماتة الخونة - وقاحة
الخونة - وغدا لنا - الخونة والسارقين - النديم والمرأة •



زمن المحظيات

حكمت أسرة « محمد على » مصر ١٤٨ عاما ، بدأت فى ١٧ مايو ١٨٠٥ ، وانتهت فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وخلال هذه المدة تولى الحكم من أفرادها عشرة ، لقب ثلاثة منهم بلقب الوالى (محمد على وعباس وسعيد) وثلاثة بلقب الخديو (اسماعيل وتوفيق وعباس حلمى) واثنان بلقب سلطان (حسين كامل وفؤاد الأول) ، وفى عام ١٩٢٣ أعلن الاستقلال ولقب فؤاد بلقب الملك وحمله بعده ابنه فاروق وحفيده فؤاد الثانى .

وبالإضافة للطغیان والحكم الفردى ، فان ملوك الأسرة العلوية قد أكثروا من الزوجات ومن اقتناء الجوارى والمحظيات . فكان لكل منهم عدد من الزوجات الشرعيات بخلاف الجوارى المستولدات ، أى اللواتى ينجب منهن ولى الأمر ، والجوارى المحظيات ، وهن جوار لا يلدن ، ولكن يخفن عن ولى الأمر عناء ما كان يبذله فى سبيل نشر العدل بين رعاياه .

كان لمحمد على زوجتان شرعيتان و ٢٧ جارية أنجب منهن ٣٠ من الأبناء ، أما ابراهيم فقد احتفظ لنا التاريخ بأسماء ٦ فقط من زوجاته ومستولداته وترك ٦ من الأبناء . وأنجب عباس الأول ٣ أبناء وكان نصيبه من النساء كعدد أبنائه . ولم يتزوج سعيد سوى زوجتين وترك ولدين ، وتزوج اسماعيل واستولد من ١٤ امرأة أنجب منهن عدد مساو لهن من الأبناء والبنات وكان الخديو توفيق هو الوحيد من أسرته الذى تزوج من زوجة واحدة هى الأميرة « أمينة الهامى » المعروفة بأى المحسنين ، وقد أنجب منها خمسة أبناء وبنات . وتزوج عباس الثانى زوجتين كانت ثانيتهما مجرية الأصل هى الكونتيسة « مارى توروك » وقد أسلمت وتسمت باسم « جويدان هانم » وأنجب ست أبناء . وتزوج « حسين كامل » من زوجتين وأنجب سبعة ، أما الملك فؤاد

فقد تزوج اثنتين هما « شويكار » و « نازلى » وأنجب منهما سبعة أولاد
• وبنات

وتزوج الملك السابق فاروق من زوجتين ، وأنجب أربعة أبناء ، وآخر
ملوك أسرة محمد على هو احمد فؤاد الثانى ، وقد عزل وهو فى الثانية من
• عمره

الباشا والسيد

كان الصدام بين « محمد على » والسيد « عمر مكرم » ، نقطة تحول
فى تاريخ مصر الحديث ، فقد انتهى هذا الصدام بانفراد محمد على بحكم
مصر ، وخرجت القيادة الشعبية التى حملته الى السلطة من حلبة الحياة
السياسية فى مصر ، وأصبحت مصر ضيعة يحكمها « محمد على » حكما
مباشرا بلا رقيب ولا حسيب •

ويتهم الجبرتى - وهو من أعداء محمد على والطاعنين على سياسته -
زملاء عمر مكرم من مشايخ الأزهر بخيانة كبيرهم ، ومساعدة محمد على
على العصف به ، فقد بدأت المشكلة عندما أراد محمد على فرض ضرائب
جديدة ، فاجتمع المشايخ فى دار السيد عمر مكرم ، وكتبوا عرض حال الى
محمد على يطلبون فيه الغاء هذه الضرائب ، وتعاهدوا جميعا على الاتحاد
وترك المنافسة ومواجهة الوالى بصلابة ، وأرسل اليهم « محمد على » أحد
رجاله يطلب منهم أن يذهبوا اليه لمناقشته ، فرفضوا جميعا - حسب اتفاقهم -
وأصروا على عدم لقائه الا اذا كف عن المظالم •

وخلال الأسابيع التالية استطاع مندوب محمد على أن يؤثر على اثنتين
من المشايخ هما المهدي والدواخلى ، وكانا يكرهان السيد عمر مكرم ، إذ
أقنعهما أن الباشا لم يفرض أى ضرائب وأن ما راج عن ذلك هو مجرد اشاعات
لا أصل لها ، وطلب الصعود الى القلعة للقاء الباشا ، وحمل الشيخان كلام
المندوب الى عمر مكرم الذى ثار ثورة عارمة ، وأخبرهما أن هناك أوراقا
رسمية أرسلت الى الأقاليم بطلب الضرائب ، ورفض بشدة أن يذهب لمقابلته
الا اذا أعلن رسميا الغاء الضرائب ، وعدم فرض أى ضريبة مستقبلا دون
موافقة المشايخ باعتبارهم ممثلين للشعب •

ولم يقبل « الدواخلى » و « المهدي » منطق عمر مكرم ، وصعدا الى الباشا الذى عاملهما بلطف وضمهما الى جاتبه ، وقال لهما :

- أنا لا أريد شفاعتكم ، ولا أقطع رجاءكم ، والواجب عليكم اذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحونى وترشدونى . أما السيد عمر مكرم فهو كل وقت يعاندنى وينطل أحكامى ويخوفنى بقيام الجمهور .

وقال الشيخ المهدي :

- هو ليس الا بنا . . . واذا خلا عنا فلا يساوى شىء . . . ان هو الا صاحب حرفة !

وتزايد النفور بين المشايخ وعمر مكرم ، حتى انتهى الأمر بنفيه الى دمياط ومنح الشيخ المهدي مخصصاته ووظائفه ، وبعد سفره الى المنفى نمق مشايخ الوقت عرض حال فى حق السيد عمر مكرم يطلب من محمد على نفيه الى تركيا وعددوا له مصائب وجنحا وذنوبا ، وحاولوا جمع توقيعات على عريضة اتهامهم له فرفض بعض مشايخ الأزهر التوقيع وطالبوا بتخفيف لهجة العرضحال ، ومع ذلك أصر السيد احمد الطحاوى على عدم التوقيع فاضطهده حتى ان الشيخ الأمير قد سلط عليه ابنه فشتمه وويخه ، وظلوا يوقعون بالطحاوى الى أن عزلوه عن منصب مفتى الحنفية جزاء له لأنه رفض أن يشهد زورا .

أغراض نفسانية

شهد شهر رمضان من عام (١٢٢٠ هـ) أول خلاف بين القيادة الشعبية التى صنعت زعامة محمد على ، وانتهى الخلاف بنفى هذه القيادة برمتها . . . ثم تسلط محمد على وحكم مصر منفردا بلا شريك .

كانت هذه القيادة هى النتيجة الايجابية البارزة لمقاومة الشعب المصرى الباسلة للغزو الفرنسى ، بنيت بتضحيات الشهداء ، وانتفاضات صعايك المدن والحرافيش . فدفعت الى الصدارة مشايخ الأزهر ليكونوا رموز هذه المقاومة التى لم يشتركوا فيها بنصيب يستحق الذكر أو التثويه ، وفيما بعد

استطاعت هذه القيادة أن تسقط الحكم التركي المملوكى وأن تدفع محمد على الى كرسي الحكم باسم الرعية ، وبناء على طلبها .

وبدأ محمد على يضيق بالزعامة التي منحتها عرشه ويشعر أنها لا تقل عن السلطان العثماني فيما تفيد به سلطته المطلقة ، وفيما تفرضه عليه من رقابة . . وبينما هو يفكر في وسيلة يقضى بها عليها ، منحه المشايخ بأنفسهم الورقة التي يستطيع أن يلعب بها : وقع بينهم خلاف شخصى على مكاسب دنيوية .

يقول الجبرتي « وفي هذه الأيام وقع بين أهل الأزهر مناقسات بسبب أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها » ، وأما تلك الأغراض التي يطول شرحها فكانت المناقسة حول وظيفة ناظر الجامع الأزهر ، وهي وظيفة ادارية كان يتولاها أحد أمراء المماليك قبل الغزو الفرنسي ، ففتيح له أن يشرف على الجوانب المالية المتعلقة بالأزهر الشريف . وجاءت الحملة الفرنسية وهرب أمراء المماليك منهزمين الى الشام تاركين البلد في يد الغزاة ، وخذت بذلك وظيفة ناظر الجامع ، وألحقت اختصاصاتها بمهام شيخ الجامع التي كان يتولاها وقتها الشيخ عبد الله الشرقاوى .

ولعبت المناورات التحتية دورها ، وطمع الشيخ محمد الأمير في الوظيفة الخالية التي تبحث عنم يشغلها ، وبدأت الاجتماعات والمناوشات وانتهت الى كتابة عريضة لقاضى القضاة ختم عليها مشايخ الأزهر والشيخ السادات والسيد عمر أفندى مكرم نقيب الأشراف تعلن خلو المنصب وترشح الشيخ محمد الأمير لتوليته ، وانتهت بتولى الشيخ الأمير لوظيفة ناظر الجامع . واجتهد الناظر الجديد فى أداء مهامه ، أحضر خدما كسوا الجامع وغسلوا صحنه ومسحوه وفرشوا المقصورة بالحصر الجدد ، وعلقوا قناديل عليه . وأشرف الشيخ الأمير بنفسه عليهم ، وأصبح يقف كل يوم على الخدم يأمرهم بالتنظيف وغسل الميضأة والمراحيض . وعين بوابا للباب الكبير ، وأمر باغلاق الأبواب الأخرى من بعد صلاة العشاء ، وطرد من كان يبيت فى الجامع من الأعراب فيلوئون الحصر .

كان شيئا عظيما ما فعله الشيخ الأمير ، لكنه لم يكن يساوى ثمنه ، إذ فتت بعمله هذا بين قوى الثورة لجرد أغراض نفسانية . . ما أكثر البلاء الذى يصيب بلدا يتحرك فيه الثوار لجرد أغراض نفسانية .

اقرضها وخلصنى

كان « مصطفى كاشف » أغرب محتسب عرفته القاهرة على طول ما عرفت من قسوة المحتسبين . وكان من مقتضى وظيفته أن يفتش على أسواق القاهرة ، فيمر بها راكبا ، يسبقه موظف آخر يحمل ميزانا كبيرا ، ويتبعه الجلادون والخدم ، فيفتش على الموازين والمقاييس والمكاييل ويختبرها ، ويتأكد من مطابقة الأسعار للعدل ، ثم يصدر أمره بالعقوبة المناسبة ويطبقها فى الحال . وفى بعض الأحيان كان يستوقف المشتريين فى الشوارع ويسألهم عن الأسعار التى اشتروا بها .

وبسبب قسوته الشديدة اختفت كل مظاهر الغش والسرقه من أسواق القاهرة ، ذلك أنه كان من النوع الذى يقول فيفعل ، وكان الجلد عقوبته التقليدية الفورية . بيد أنه كان يجدد أحيانا فى أساليبه : حدث مرة أن ضبط بائع خبز يبيعه ناقصا فى الوزن ، فأمر بثقب أنفه ثم علق فى الثقب قرصا من الخبز ، عرضه شبر وسمكه أصبع ، بخيط من الدويارة ، ثم جرد الرجل من ملابسه ، الا ما يستر عورته ، وأوثق يديه من خلفه ، وشد وثاقه الى قضبان نافذة جامع الأشرافية لمدة يوم كامل ، وعندما ضبط جزارا يبيع مقدارا من اللحم ينقص أوقيتين عن وزنه الأصلي ، عاقبه بقطع أوقيتين من لحم ظهره . أما بائع الكنافة الذى باعها بسعر أزيد فقد أمر بتجريده من ملابسه واجلسه على الصينية النحاسية المستديرة التى يصنع عليها الكنافة وأشعل تحته فرن . وفى مرة أخرى ضبط بائعا يبيع القلل السمودى على أنها قلل قناوى فأمر أتباعه بأن يكسروا القلل جميعا ، واحدة بعد الأخرى على رأس البائع وضلوعه .

واستقر مصطفى أفا على أسلوب ثابت فى معاقبة التجار الجشعين ، وهو قرض آذانهم ، لكنه وبسبب أن القسوة كانت طبيعة فيه ، أصبح يقرض آذان الجميع . الوحيد الذى نجا من مقراضه كان بائع بطيخ عجوز خفيف الظل ، استوقفه المحتسب فى الطريق وأمسك شحمة أذنه وأشار على بطيخة كبيرة وسأله عن ثمنها ، فقال الرجل :

– اقرضها يا سيدى

فكرر المحتسب سؤاله مرة بعد أخرى ، وتلقى نفس الرد ، وأخيرا قال للبائع :

– هل أنت مجنون أم أصم ؟

ورد الرجل :

– لا هذا ولا ذاك ، ولكنى لو قلت أنها بعشرة فضة فسأمر بقرض لئلى ، ولو قلت بنصف فضة فسستقل نفس الشىء . فاقرضها وخلصنى .

وضحك المحتسب وأطلق الرجل .

الصعايدة فى ميدان العتبة

سمع القاهريون باسم « العتبة الخضراء » لأول مرة فى عام ١٨٤٥ :
فى ذلك العام انتهى « احمد باشا طاهر » من بناء قصر « العتبة الخضراء »
بعد ثلاث سنوات من العمل المستمر ، وكان القصر يقع على الأرض التى
يشغلها الآن ميدان العتبة وقسم الموسيقى ومركز المطافى وهيئة البريد والشارع
الذى يمتد من جانب هيئة البريد الى تمثال ابراهيم باشا ٠٠ وكان قصر
العتبة الخضراء يتكون من قسمين : « سراى الحرمك » - أى دار الحرم -
و « سراى السلامك » - أى دار استقبال الضيوف ، وكانت عتبة كل منهما
من الحجر الأخضر ، ولهذا سمي القصر بالعتبة الخضراء .

وفى أواخر حياته وقف « أحمد طاهر » أملاكه وعين زوجته « خديجة
خاتون » مشرفة على الوقف ، وصاحبة حق فى ريعه مدى حياتها ، ولذريتها
من بعدها . وقد حدث فى عام ١٨٥٢ أن باعت الأرملة « سراى الحرمك »
للسيدة « بمبا قادن » والددة الخديو عباس الأول ، وأجرت لها السراى الثانية
لستين عاما ، بايجار قيمته ١٥ مليوناً من الجنيهات .

وفى عام ١٨٦٣ باعت « بمبا قادن » حق الايجار للخديو اسماعيل ،
فلما أفلس وتحملت الحكومة ديونه حلت محله فى ايجار القصر .

وعلى امتداد خمسين عاما شهدت المحاكم قضية بين ورثة « طاهر باشا »
والحكومة المصرية حول ملكية القصر ، ثم الأرض التى كان عليها بعد أن
هدم ، ولم تسقط القضية الا بالغاء الوقف ، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ .

واحتفظ الميدان باسم القصر فيما خلا فترات قليلة سمي باسم الملكة
« فريدة » الزوجة الأولى للملك السابق فاروق ، ثم باسم محمد على الكبير ،
ثم عاد الى اسمه الأول مرة أخرى ، وكان « طاهر باشا » حاكما للصعيد
لمدة ٢٢ عاما متتالية جمع خلالها ثروة ضخمة من عرق الصعايدة مكنته من
سرف مليون جنيه على قصر العتبة الخضراء ، الذى تحول الآن الى ميدان
يدوسه الصعايدة - أحيانا - بأقدامهم .

« اللومان والقلعة »

كان « محمد على الكبير » شخصية غريبة . ولا جدال فى أن دراسة
شخصيته وسياسته تكبد أى باحث مشاق لا حصر لها ، فهذا الحاكم القوى

الشكيمة قد لعب دورا هاما فى بناء مصر الحديثة . وفى الانتقال بها من أسوار التخلف الإقطاعى الى آفاق العصر الصناعى ، برغم كل ما ارتكبه من أخطاء .

وسوف يذهل كثيرون عندما يعلمون أن « محمد على » كان شبه أمى ، ومع ذلك فقد كان شديد الذكاء ، كما أنه أيضا شديد الوعى بما يتخذ من قرارات أو يخطط من سياسات . من ذلك مثلا انه كان أسبق الذين شرعوا لجريمة خيانة الأمانة التى لم يعرفها القانون المصرى الا بعد زمنه بسنوات طويلة ، عندما نص قانون العقوبات على خمس حالات لخيانة الأمانة هى : تبديد شىء سلم فى البدء على سبيل الوديعة أو الوكالة أو الايجار أو الرهن أو عارية الاستعمال . . . وهى مادة قصد منها حماية الملكية الفردية وضبط المعاملات التجارية .

لكن « محمد على » شرع لمواد خيانة الأمانة تشريعا غريبا ، فعندما شبت الصناعة والزراعة فى مصر بين يديه ذهب الى أقصى حد من حمايتها فلجأ الى التشريع القاسى ، وأستولد جريمة لا تعرفها قوانين العقوبات الحديثة ، تلك هى جريمة شراء مصنوعات غير وطنية لا ينتجها مصريون ، وأسمى مقترفها : خائن الأمانة ، وحدد عقوبة تتدرج مع قيمة الأمانة التى خانها صاحبها ، فإذا بلغت قيمة المصنوعات أو المحاصيل خمسة آلاف قرش يصير ارساله الى اللومبان من سنتين الى خمس سنوات مربوطا بالزنجير ، فإذا أثبت حسن نيته - أى أنه كان يجهل وجود محصول أو صناعة وطنية من الصنف الذى اشتراه - يعامل بالرفق ويربط بالقلعة سنتين .

وفى دراسة له علق الاستاذ عبده حسن الزيات على هذا النص الغريب محاولا استكشاف فلسفته فى ضوء مواد خيانة الأمانة فى القوانين الحديثة فقال : ان المواد الحديثة تكاد تنطبق بشىء من التجاوز على تلك الجريمة القديمة ، فليست أموالنا التى نمتلكها الا جزءا من الثروة الوطنية العامة ، سلمت اليها من مؤرثينا أو من كسبنا الذى حصلناه بفضل التربة المصرية ، على سبيل الوديعة أو بمعنى أدق على سبيل عارية الاستعمال ، نستعملها ونستغلها ونتمتع بثمارها طالما نحن أحياء ثم نموت فينقطع حقنا فيها وينتقل حق استعمالها الى مصريين غيرنا . . . فإذا نحن بددنا هذه العارية ، أى المسلفة ، بلا استعمال ، فقط بأن أخرجنا حق الرقبة ذاته الى يد أجنبية ، أو أخرجنا بعض قوائد تلك العارية التى حصلناها منها الى يد غير مصرية ، فقد خذا الأمانة ، بالمعنى الأدبى على الأقل ، ان لم يكن بالمعنى القانونى الدقيق .

الغريب أن رجلا شبه أمى يتنبه فى وقت مبكر الى مادة قانونية تجعل نقل ثروة مصر الى غيرها جناية لا جنحة . فجرم بذلك هذا الفعل الدنى . . .

وأعلن قبل أكثر من قرن ونصف قرن أن من يفعل ذلك يستحق اللوم ان فعله يعلم . . والقلعة ان فعله بجهل .

الباشا والوقائع

كانت « الوقائع المصرية » هي أول صحيفة مصرية . قبلها التقت العين المصرية بالصحيفة لأول مرة قى زمن الحملة الفرنسية التي أصدرت جريدة سياسية وأخرى علمية ، ورتبت بالفعل لاصدار صحيفة عربية سياسية باسم « التنبيه » ولكنها لم تصدر ان رحلت الحملة قبل أن تنبه الشعب المصرى لشيء .

بعد ذلك التاريخ بأكثر من ربع قرن صدرت « الوقائع المصرية » وأولها « محمد على » عنايته التي تحولت الى سيادة كاملة واشراف على كل صغيرة وكبيرة ، وكان على الصحافة المصرية بعد ذلك أن تناضل لكي تستقل بنفسها ، وتعبر عن رأيها بعيدة عن رقابة ولى الأمر وتحكمه .

حدث أن نشرت « الوقائع » خبرا عن رجل يدعى « محمد المغربي » من سكان الباطنية ، كان يعمل فى معمل للبنادق ، فطرد منه لسوء سلوكه ، وفساد أخلاقه فأخذ فى التشرد والتعرض لبعض الأولاد الضعفاء فينصب عليهم . . واستفز نشر الخبر الموالى فكتب الى ناظر الوقائع معترضاً .

بعدها بأسابيع قليلة كرر محرر الوقائع الخطأ ، ونشر خبرا بدا تافها ولكنه تضمن مطالب للشعب ، فقال : « أن الأولاد الذين يعملون جنائنية فى حديقة شبرا يعملون دون أحذية » . وفى هذه المرة ثار الباشا وأمر بأن تعرض عليه المجلة كاملة قبل نشرها .

وحدث أن أرسل ديوان الباشا خبيرا عن منح رتبة اللواء الى على إبراهيم بك ، فرده محرر « الوقائع » الى الديوان لأنه خير موجز وليس به تفصيلات ، وغضب محمد على لملاحظة المحرر ، رغم طابعها المهنى الخالص ورد عليه بخطاب حاد قال فيه : « أنك يا هذا الرجل مبتلى بالثرثرة ولكن ليس الزاما علينا أن نذكر من الكلام كما تكثره أنت ، فانشر ما أرسلناه لك من قبل كما هو » .

تفانين الصهبجي

تحفظ لغة الدواوين الى عصرنا بملامح غريبة ، تعكس سطحية العقل البيروقراطي وضيق أفقه . . لكنها مع بداية نشوء الدولة الحديثة فى مصر على عهد « محمد على » كانت خليطا من لغات متعددة ، تتفاوت بحسب ثقافة الكاتب ، وحسن تقديره للمسائل وفهمه لها .

وتضم محفوظات الحكومة المصرية نماذج مضحكة ومبكية من خطابات المصالح والوزارات .

ولأن « محمد على » لم يكن يتقن العربية ، فقد كان يملئ أوامره على كتاب يبدوا أن بعضهم لم يكن يحسن العربية ، فمعظم أوامر الوالى عامية الأسلوب . ويرتبط اثنان من أوامر « محمد على » كل الارتباط : أولهما يتعلق بمحمد الصهبجي . فقد كان « محمد على » مولعا بالمكيفات وفى مقدمتها القهوة ، وكان يضاف اليها العنبر وزيت الحبهان وبعض المواد المخدرة ، وكان ساقيه يقف دائما الى جانبه ليقدّم اليه القهوة كلما طلبها ، وبجوار الساقى موظف آخر يحمل حق العنبر وغيره ، وكان الاثنان يختاران من بين أشد الناس اخلاصا للوالى خوفا من دس السم له . ورأى الوالى أن يضيف اليهما ثالث هو « المعجونجى » الذى كلف بخلط المعاجين التى تضاف الى قهوة محمد على ، وجاء نص المرسوم . « الملكى » بتعيين هذا الموظف الكبير كما يأتى :

« نظرا لما عرف به محمد الصهبجي من توليف المزاج وتوضيب القهوة ، فقد اخترناه ليكون « معجون أغاسى » مهمته تقديم المعجون لنا فى أى وقت ، وقد رأينا أن المذكور يستحق أن يعين بكيس كامل - أى ٥٠٠ قرش - لما ثبت من حسن اخلاصه وأنه ذو مفهومية وله تفانين » .

ويبدو أن رئيس الشرطة لم تكن له « تفانين » كالمعجونجى ، فقد عين بنصف كيس فقط شهريا ، وفى وظيفة تتطلب نفقات للمظهر ، ودفعه هذا للاقتراض من أقاربه ، وعجز عن السداد ، فكتب شاكيا للوالى الذى استقرته الشكوى ، فأصدر أمرا بخصم مرتبه لمدة ثلاثة أشهر ، كان نصه :

« حيث أن الأفندى الموصى اليه لم يخلصنى على عرضه فترك أعماله وتخصص فى الشكوى من غير وجه وحق وشغل وقتنا الثمين ، فاننا نحب أن نقول له أن المشغل فى الميرى اذا كان لم يعجبه فليتركه ونحن نعين غيره . . ان النصف كيس الذى يقبضه يكفى جدا لكسوته وكسوة عياله والميرى مش ملزوم بأكثر من كده . . ان ولى النعم كان عاوز

يجازى المومى اليه بالعزل من خدمة الميرى ليكون عبرة لغيره من الموظفين الذين يشكون ولا يعملون • ولكن اقتضت مراحم ولى النعم وصاحب المهن أن يؤدبه ، فحرم عليه قبض النصف كيس الذى يقبضه أول كل شهر لمدة ثلاثة شهور ، وإذا عاد المومى اليه الى الشكوى وتعطيل شغل الميرى فائنا سنجازيه بأشد العقاب لأن رعاية شغل الميرى أفضل بكثير من رعاية مصالحه الشخصية والواجب على كل أفندى له عقل ومفهومية ألا يعمل مثل هذا الذى يعمل المومى اليه حتى لا يتعرض للفصل والتفريم ولا يلوم الأفندى إلا نفسه » •

وسار رئيس الشرطة يضرب كفا بكف ، ويتساءل عن مبرر التفرقة بينه وبين الصهبجى المعجونجى • فإذا كان صاحب تفانين ، فهو أيضا صاحب تفانين •

النعمة والنقمة

كان المهندس الفرنسى « لويس جوميل » هو أول من أدخل زراعة القطن الى مصر • وكان قد هجر وطنه فرنسا وجاء ليعمل فى مصر عقب خلافات حادة مع زوجته دفعته للهرب منها والاستقرار فى أحد مصانع النسيج التى أنشأها « محمد على » • وفى عام ١٨١٨ كان يزور صديقا له من أمراء المماليك فلاحظ فى حديقته بضع شجيرات محملة بزهر أبيض اكتشف أنها قطن • وقال الأمير المملوكى انه قطن للزينة حصل على بذوره من صديق هندى ، وسمح للمهندس الفرنسى - بناء على طلبه - بأخذ كمية من البذور ، وقام جوميل بزراعتها فى حديقته ، وعندما اكتمل نضجها أخذ يقيس أليافها ويختبر متانتها ، فاكتشف أنها توازى أفضل أنواع القطن المعروفة فى العالم وقتها •

كان القطن معروفا فى مصر أيامها • ان كان يزرع بها نوع من القطن البلدى قليل المحصول قصير التيلة ، بينما كان القطن الأمريكى أفضل الأنواع المعروفة وقتها ، ولذلك فان « جوميل » ما كاد يقدم نتيجة تجريبته لمحمد على حتى أمر هذا بتجربة الصنف الجديد فى عدد محدود من الأفدنة ، وفى عام ١٨٢١ انتهت التجارب ، وأنتجت مزارع القطن محصولا كافيا للتصدير ،

فكلف أحد بيوت التصدير الأجنبية بأخذ عينات منه وعرضها فى أسواق انجلترا ، فلم يكد الغزالون فى لانكشير يرون القطن الجديد حتى تهافتوا عليه وقدروا للقنطار منه ١٦ ريبالا بنقود تلك الأيام ، وانهالت الطلبات على مصر ، فتوسع « محمد على » فى زراعة القطن وبعث « جوميل » الى الهند ليأتيه ببذور أصلية ، وليدرس - أيضا - طريقة زراعته هناك ، فعاد الرجل وأطلع الباشا على نتيجة أبحاثه ، فسر « محمد على » سرورا عظيما وأمر بتوزيع كميات كبيرة من البذور على كبار المزارعين ، وبدأ القطن الجديد يغزو مصر .

منذ ذلك الوقت ارتبط تاريخ مصر بالقطن . دخل فى حياة الناس فغيرها ، وحول عمليات إنتاجه وتسويقه نشأت طبقات اجتماعية جديدة وتغير نمط حياة الفلاح وارتفعت أثمان الأرض ، وأصبح محصول القطن المصرى أساسا من أسس الصناعة الانجليزية ، وأقيمت له مصانع خاصة فى لانكشير ، وظهرت فى الأسواق منسوجات جديدة تقوم على قطن مصر مثل البوبولين .

وقامت الحرب الأهلية الأمريكية فى عام ١٨٥٨ وتعطل انتاج القطن الأمريكى ، وارتفع ثمن قنطار القطن المصرى ، واقترض اسماعيل ملايين الجنيهات اعتمادا على المحصول ، ثم توقفت الحرب فجأة فهبط ثمن القنطار الى خمسة جنيهات وبدأت مشاكل مصر المالية . وتحولت النعمة الى نقمة .

الحصان العثشان

كان « ابراهيم باشا » قائدا حربيا لا يشق له غبار ، لم تخطىء حساباته العسكرية الا نادرا ، واستطاع بجيش من أبناء الفلاحين المصريين أن يرهب العالم كله ، ويجعله يتردد ألف مرة قبل أن يفكر فى التصدى لضر .

وهو واحد من قواد عسكريين قلائل لم ينهزم فى معركة واحدة من المعارك التى خاض غمارها : فى السودان وفى جزيرة العرب وفى المورة وفى فلسطين وفى سوريا وفى الأناضول ، وقد وقع أسيرا بين يديه أكثر من ٢٠ من القواد العسكريين والحكام ، وهزم ١٦ باشا من باشوات سلطنة آل عثمان منهم ٨ باشوات - أى حكام - هزمهم فى ٨ يوليون عام ١٨٣٢ .

كان واثقا بنفسه ، ثقة القائد الذى يعرف جنوده ، والذى اختبرهم فى كل المعارك : فلاحين أقوياء لا يعرفون نعومة فى العيش ولا ضعفا فى النفس . حدث فى غروب يوم ٢٣ يوليو ١٨٣٩ أن كان الجيش المصرى بقيادته يستعد للحرب مع الجيش العثمانى بقيادة حافظ باشا ، ودعا « ابراهيم باشا » رئيس أركان حرب الجيش المصرى وكبار ضباط الجيش الى خيمته ، وعقد معهم اجتماعا طويلا ٠٠ وعندما انتهى الاجتماع وقف « ابراهيم » وقال لهم :

— الى اللقاء فى الغد الساعة الثالثة بعد الظهر فى خيمة حافظ باشا ٠٠
أدعوكم من الآن لتناول القهوة معا فى الخيمة .

وفى الصباح جرت موقعة « نزيب » الشهيرة ، وفى الموعد المحدد تماما اجتمع رئيس الأركان وكبار الضباط فى خيمة القائد العثمانى المهزوم حافظ باشا ، وكانت كما تركها ٠٠ كاملة المعدات والأدوات والمفروشات .

فى أوروبا سماه ساستها « السيف الحى » . وكتب عنه قنصل إنجلترا فى مصر الى اللورد « بالمرستون » رئيس وزراء إنجلترا يقول :

— ان اسمه يفعل فى النفوس فعل السحر .

وعندما زار باريس فى عام ١٨٤٦ قال عنه كاتب فرنسى : « لم تر أوروبا جنديا أشجع منه ، ولا أكرم منه ، خلق للنصر والنصر خلق له ، ان فتحت أمامه بلاد الدنيا غزاها من أولها الى آخرها ، » .

كان ابراهيم قائدا عسكريا يعرف كيف يؤدب الذين يتوقحون على مصر أو يظنونها لقمة سهلة ، واحد من الذين أدبهم كان حسين باشا ، وهو قائد عثمانى كلفه السلطان فى عام ١٨٣١ بالسفر الى مصر ومحاربة محمد على وعزله عن الولاية والجلوس مكانه واليا على مصر وجزيرة كريت والحيشة ، وكان رجلا قاسى القلب غليظه ، فتاكا شريرا ٠٠ وفوق هذا كان شديد الغرور والوقاحة ، وكان يظن أن مصر بلدا مفتوح الأبواب ، ونسى تماما أن هناك جيشا من الفلاحين يقوده ابراهيم باشا ٠٠ كان حسين باشا فى طريق زحفه على مصر ٠٠ وجاءه أحد معاونيه يخبره بأن حصانه انقطع عن شرب الماء ، فأجاب بكل وقاحة :

— لقد آل حصانى على نفسه ألا يشرب الا مياه النيل .

ووصلت الكلمة الى ابراهيم باشا .

وبعد أسابيع كان حسين باشا أسيرا ، ومات حصانه ظمأنا دون أن يشرب من ماء النيل .

شروط العبودية

فى العهد التركى العثمانى المملوكى كان المصرىون يسمون فى الوثائق الرسمية بالعبيد ، وظل هذا الاسم يلصق بهم فى عهد « محمد على » وخلفائه الأوائل ، فعندما أصدر « محمد على » قانون « السياسة نامه » ، وهو أول قانون نظامى يصدر فى مصر ، خاطب فيه المصرىين ووصفهم بأنهم « عبيد » . ولما شكل مجلس الشورى نص فى أمر تشكيله على أنه يتألف من (نوات مقدار الكافى يصير انتخابهم من « العبيد » الذين مجريين الأطوار وأصحاب قابلية ولياقة ومفهومية لدى ولى الأمر) .

وكانت القوانين فى عهد محمد على تعكس استبداده ، فالاستبداد يمكن أن يقنن هو الآخر ، ولذلك كانت قوانين محمد على تعاقب الفلاح الذى يكذب على الحكام ، وشيخ البلد الذى يهرب من بلده عند قدوم الحاكم اليها ، والزارع الذى يهمل حرث أرضه وزرعها أو الذى لا يدفع المال بمجرد طلبه ، أو لا يجيب طلب رسول الحكام بالشخصوص معه اليهم ، وكانت العقوبة هى الضرب بالكرياج من عشرة الى خمسمائة جلدة والنفى الى « فانوغلى » بالسودان أو الى الليمان أو الاعدام .

وفى الفصل الثالث من قانون « السياسة نامه » ، أورد القانون شروط أهلية المستخدمين والموظفين فى الحكومة ، فنص على أن من خالف شروط العبودية فيلزم أن يجازوا بالجزاء الملائق بهم لأجل أن يكون تأديبا لهم وعبرة لغيرهم .

ومن أجل الحفاظ على حق « العبيد » ، قاوم الوالى عباس باشا الأول بشدة رغبة السلطان العثمانى فى أن تطبق على مصر التنظيمات العثمانية ، ومن بينها أن يكون « حق القصاص » مقصورا على السلطان وحده ، فقد رفض عباس وجادل وادعى أن له حق القصاص وأن حقه غير مقيد بانذ السلطان ، وهدده السلطان قلم يذعن ، فأرسل اليه فى سنة ١٨٥٢ فؤاد أفندى - أحد رجال السياسة فى الأستانة - ليقنعه بأن الحكم بالاعدام يجب أن يصدر من مجلس ينعقد بحضور قاضى مصر - وكان تركيا - ولا ينفذ الا بعد أن يصدق عليه السلطان . وانتهت المفاوضات باطلاق يد عباس فى القصاص لمدة سبع سنوات على أن يعرض على مجلس عال قبل التنفيذ لاقتراره .

الى هذا الحد قاوم عباس أى محاولة من شأنها أن تراجع ارادته فى التصرف مع من يخرجون عن شروط العبودية من أهالى مصر ، لذلك كان طبيعيا أن تصدر أعجب الأحكام فى تاريخ القضاء فى تلك المرحلة من حكم محمد على وخلفائه . فقد حدث فى عهد عباس باشا أن دختت إحدى السيدات

سيجارة فى داخل الحرىم ، فاعتبر عباس الشدخين فى داخل حرىمه جرىمة
وأمر بأن تخاط شفقتا هذه السىدة عقابا لها .
وقد كان .

الحدرد والقدر

كانت السنوات الخمس التى حكم فىها عباس الأول مصر سننوا
سود .

فى عهده أغلقت المدارس ، ونفى المفكرون ، وتدمرت المصانع
والقابرىكات ، وحكم الموشاة والجواسيس مصر . كان فىما يبدو مختلا
عصبىا ، شديد التطير والتوجس ، كثر الوساس ، يشك فى كل الناس ، وقد
جعل هذا كله فرىسة لأهل الوشاية ، فأخذ بقولهم ، وتزايدت رغبته فى معرفة
أحوال الناس ، وبنى قصورا فى الخلاء ، بعيدة عن الزحام لكى يكون فى مأمن
من المتأمرىن الوهمىىن ، ومنها قصره الشهىر الذى بناه بسفح الجبل الأحمر
خارج باب الحسينىة وسماه « العباسىة » نسبة الى اسمه الذى يطلق الى
المىوم على الحى المعروف بهذا الاسم .

ومن الحوادث الشهىرة فى قصره ، ذلك الحوار الذى جرى بىنه وبنى
« المشىخ المباحورى » شىخ الأزهر آنذاك ، وكانت شدة تطير الخدىو قد دفعته
للظن بأن الأقباط يعادونه فقرر نفىهم الى أقاصى السودان ، وأرسل يستفتى
شىخ الاسلام فى ذلك ، وقال الشىخ على الفور :

- أى النصرارى تعنى يا أفندىنا ؟ اذا كنت تعنى الأقباط منهم ، فهم
بعض أهل البلاد والمحمد لله ، انه لم يطرأ على نمة الاسلام طارىء ولم يصبها
خلل حتى تبىح الغدر بىمن فى نمة الى يوم القىامة ، أما اذا كنت تعنى
الأورىىىن ، فلك أن تدرس الأمر بما توجهه حسن السىاسة لأننى أخشى أن
تضرىهم فىصىب بلادنا ما أصاب الجزائر من احتلال الفرنسىىن .

وكان « عباس الأول » طاغىة غشوما ، وبرغم ذلك فان الشىخ لم يكتم
كلمة الحق وقالها دون خوف ، وغضب منه الوالى ووقف بحددة معلنا انتهاء
المقابلة .

ولأن الحذر لا يمنع قدرا ، فان تطير « الخديو عباس » لم يمنعه من أن يموت قتيلا - وهو الوحيد من حكام أسرة محمد على الذى مات كذلك - ان تأمر عليه بعض غلمانه الذين كانوا فى حراسته فى قصره المهجور بالقرب من بنها ، وقتله ستة منهم ، ذلك أن الذين يعيشون على ارهاب الآخرين يموتون بما يعيشون عليه .

سكلاريدس فى بركة السبع

تردد اسم « سكلاريدس » كثيرا فى موسم القطن ، باعتباره اسما لواحد من أجود أنواع القطن المصرى ، وهو ما يعود لمتانة فتلته ونعومتها وطولها . ومبتدع هذا النوع الجيد من القطن هو « المسيو سكلاريدس » ، وهو يونانى الأصل ، ولد عام ١٨٤٥ وجاء الى مصر وهو فى الحادية عشر فانضم الى خال له يقيم فى « بركة السبع » معه اثنان من أبناء أخته كان ثالثهما سكلاريدس ، وقد اشتغلوا جميعا بتجارة القطن ، وأسسوا بيتا تجاريا باسم العائلة .

وكانت الأسرة السكلاريدسية تزرع القطن وتتاجر فيه أيضا ، وفى عام ١٩٠٤ كان سكلاريدس يمر فى حقل له قرأى ثلاثة لوزات غريبة عن غيرها ، وبفحصها وجد قطنها أكثر نعومة وأكثر متانة ، كما أن ليفته أكثر طولا فاحتفظ ببذور اللوزات الثلاث ، وعددها ١٦ بذرة ، وزرعها فى حديقة منزله ، وعنى بها ، واستمر عدة سنوات يكاثر فى البذرة حتى زرع منها ١٢ فدانا فى عام ١٩٠٨ ، فأعطته غلة وفيرة - ١٢ قنطارا للفدان - ومنذ ذلك الحين عرف القطن باسمه .

وكان سكلاريدس هو المورد الوحيد لبذرة قطنه ، وقد اشترط على من يشتري منه أن يبيع له القطن الناتج بأسعار حددها ، وكان هدفه أن يحتكر اكتشافه ، ولكن الزراع خالفوا العقد وباعوا قطنهم لغيره ، فانتشرت زراعة النوع الجديد فبيع من بذرته فى عام ١٩١٠ ما يصل الى ٦٠٠٠ أردب ، وبذلك ضاعت على « سكلاريدس » ملايين الجنيهات ولم يكسب من قطنه - على حد قوله - سوى عشرة آلاف جنيه فقط .

وسكاريدس هو مكتشف دودة القطن ، التي ظهرت لأول مرة في
بركة السبع عام ١٨٧٨ ، وهو الذى نبه الى ضرورة قطع الورقة المصابة
بأكملها قبل الفقس ٠٠ وقد منح وسام الاستحقاق الزراعى عام ١٩٢٠ .

أرض شيبرد

فى حريق القاهرة ، اختفى أقدم فندق فى مصر ٠٠ فندق شيبرد .

كانت الأرض التى أقيم عليها فى الأصل ، جزءا من حديقة الأزبكية ،
وبالتحديد فان هذا الجزء من المحديقة ، هو الذى شهد حادثة مقتل القائد
الفرنسى الجنرال كليبر ، خليفة نابليون فى مصر ، والسفاح الذى أخدم
ثورة القاهرة الثانية بوحشية نادرة المثال ، إذ أمر بأن تطلق المدافع نيرانها
على المدينة من فوق تلال القلعة ، وردا على ذلك اختفى سليمان الحلبي فى
أحد منحنيات حديقة الأزبكية وبيده خنجر غرسه فى جسد السفاح فقتل
عليه .

وفى عصر « محمد على » اقتطع هذا الجزء وبنى عليه قصرا لابنته
الأميرة زينب ، ثم انتقلت منه ، فخصص القصر ليكون مقرا لمدرسة الآلسن
التي أدارها العلامة رفاعة رافع الطهطاوى ، وخرجت أجيالا من المثقفين
المصريين المتأثرين بالثقافة الأوربية .

وعندما نقلت منه المدرسة تقدم تاجر انجليزى كان يقيم فى مصر آنذاك
واشتراه ، وكان التاجر يحمل اسم « صموئيل شيبرد » ، وقد حوله الى فندق ،
وأختاره لأنه يقع فى وسط حى القنصليات وحوله تجمعات الأجانب ، فكان
بمثابة استراحة لهم يمضون فيه أوقاتهم ، ويستضيفون فيه أقاربهم القادمين
من أوربا .

ومنذ سنة ١٨٤١ ، والفندق يستقبل زبائن من أشهر شخصيات
التاريخ ، أقامت فيه « أوجيني » امبراطورة فرنسا عندما جاءت لتحضر
الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، ومن الملوك الذين زاروا القاهرة وأقاموا
فيه « إدوارد السابع » ملك انجلترا الأسبق ، « روزفلت » الرئيس الأمريكى
الأسبق ، وأقام فيه ثوار وصعاليك ومغامرون وجواسيس وغانيات .

ونهب المبنى القديم للفندق فى حريق القاهرة ، لتصبح أرضه خرابا
يلعب فيه الأطفال الكرة :

• دنيا •

صراع الجبناء

ترك الحكم المملوكى آثارا بالغة فى نفسية بعض الشرائح المصرية التى
كانت قريبة منه ومحنكة به ، والتى مارست معه لعبة الحكم بكل ما يحيط بها
من مزلق ٠٠ وكانت أبرز تأثيراته وأخطرها أنه جعل هذه الشرائح تخاف
الى حد الجبن ، وأحيانا التلاشى •

وبينما كان أثرياء الريف يمثلون دور الجلادين بالنسبة للفلاحين الفقراء ،
كانوا أمام أى « عثمانلى » - مهما تفه شأنه - جبناء تتخلخل أوصالهم رعبا •
وفى أثناء حكم الوالى محمد سعيد باشا ، أحدث تغييرا هاما فى الادارة
المصرية ، اذ بدأ يختار مديرى المديرىات من أثرياء الريف فى محاولة لدمصير
سلطة الحكم فى الأقاليم ، واقصاء السيطرة التركية عنها • وكانت التجربة
فى بدايتها شاقا ، خاصة لأن المديرين الجدد كانوا يخافون رؤوسهم من
الأترك مما أخل بهيبة الادارة وجعلها مضغة فى الأفواه •

وحدث فى احدى مديرىيات الصعيد أن وجيها شهيرا من وجهائه ، عين
مديرا للمديرية التى تتبعها قريته ، وسرعان ما أصبحت غرفته فى المديرية
مقهى ، يتردد عليه أقاربه وأصهاره للسمر والحديث والزاحة من مشقة
التجوال بين المحلات التجارية ، وزاد من اعجاب أقارب المدير بالغرفة ، أن
حاجبها كان تركيا البانى الأصل ، ضخم الجثة ، ذو شارب يقف عليه الصقر ،
وهو شىء كان يذهل أقارب المدير الذين عاشوا حتى شهدوا تركيا - بجلالة
قدره - يقف بباب قريبهم ، ويستأذن لهم قبل الدخول عليه ، ويقف احتراما
وهم يخرجون أو يدخلون •

وانزعج المدير من كثرة تردد الأقارب والمحاسب عليه ، فقد كانوا
يعطونه عن عمله ، ويتعاملون معه فى مكتبه بطريقة أسرية لا تراعى هيبة
النصب ولا كرامة الوظيفة ، وأخذ يفكر فى وسيلة لمنعهم من ذلك ، وقاده
تفكيره الى خطة بسيطة ، أوعز الى حاجبه التركى أن يدخل يوما بشكل

مفاجيء على أولئك الأهل والمعارف وهم جلوس فى غرفته ، ويزجرهم
ويطردهم ، فيتخلص منهم المدير ، ويتجنب حرج طردهم بنفسه .

وفى اليوم التالى وبينما الغرفة ممتلئة بأقارب المدير ، فتح الباب بعنف
مفاجيء ، ودخل الحاجب التركى ، وقد فتل شاربييه الكثيفين حتى مس طرفهما
أذنيه ، وحملق بعينيه حملقة مروعة ، وهجم على الأقارب صارخا بصوت
عثمانلى مخيف :

– ييلا . . . ايسكتر . . . كرتا فلاح ادبسيز .

وهى كلمات تركية كانت تعنى للجلوس ، أن هناك خطرا عثمانليا ماحقا ،
فدعروا جميعا وارتعدت قرائصهم ، وفى لحظة واحدة أخلوا المكان مهرولين
يتسابقون ويتدافعون الى الباب .

الطريف فى الأمر أن المدير كان أولهم هربا . . . فقد بلغ من شدة خوفه
أنه نسى أن المسألة تمثيلية هو الذى ألفها .

السكاكينى باشا

فى يونيو ١٩٢٣ توفى الكونت « حبيب باشا السكاكينى » . . . تاركا
وراءه ثروة طائلة ، وميدانا من ميادين القاهرة ما زال يحمل اسمه الى الآن .

وكان « حبيب سكاكينى باشا » قد ترك موطنه الأصلى فى لبنان فى
عام ١٨٧٥ ، ونزل من الباخرة فى بور سعيد ، وبعد بحث طويل عثر على
وظيفة صغيرة فى شركة قنال السويس بمرتب لا يتجاوز أربعة جنيهات
شهريا . وكان وحيدا بلا أهل ولا أصحاب ، وبعد أربع سنوات نصحه الأطباء
بالاقامة فى مكان جاف لأن الرطوبة تضر بصحته .

وفى القاهرة بحث عن مكان جاف ، ولم تكن منطقة الفجالة والعباسية
قد اختطت بعد ، فانتقل الى تلك الجهات وليس فى جيبه سوى خمسين جنيها
وفرها من مرتبه الضئيل ، واختار مكانا فى تلك الأنحاء وبنى غرفة صغيرة
من الخشب لنفسه ، وسكن هناك وحيدا الى أن سئم وحدته فبنى غرفة أخرى
بجانب غرفته وأجرها . واقتصد من الايجار ما مكته من بناء غرفة ثالثة .

وفى سنوات قليلة كان المنزل قد تحول الى عمارة ، وثانية وثالثة ، وكان الامتداد العمرانى فى الفجالة والعباسية قد انتشر ٠٠ والخوارجا حبيب يشترى العقارات والأراضى ، وينشئ الحدائق ويبيع ثمارها ٠٠ الى أن أصبح يملك المنطقة التى تحمل اسمه الى الآن .

وبرغم ثراء الكونت سكاكينى - وهو لقب حصل عليه من الحكومة الفرنسية - فقد كان شديد البخل ، وقد عرف عنه أنه لم يدفع قرشا لبناء مدرسة أو مستشفى ، ولم يشيد كنيسة من ماله الخاص ، وكان فى حياته الخاصة هادئا وبسيطا شأن أى رجل عادى لا يملك شيئا ، والمرء الوحيدة التى ضبط فيها متلبسا بالكرم ، عندما تبرع بجنيهاة قليلة لبناء كنيسة للطائفة المارونية فى مصر .

وكان يقيم فى قصر فخم يقع على مفترق الطريق بالحي الذى يملك معظمه ويحمل اسمه ، وكان شديد الاعجاب بما فعله من هندسة للمبني وخاصة حدائقه الواسعة ٠٠ وقد ترك كل هذا لنجله الأكبرى « هنرى سكاكينى » الذى واصل تاريخ الوالد المحترم فى نهج المصريين .

كفر الزيات كومباكس

عقدة كفر الزيات واحدة من أشهر العقد النفسية فى سبعينات وثمانينات القرن الماضى ، كان يكفى أن يذكرها واحد لآخر حتى يعتبرها تهديدا يستعيد بالله منه أو يجابهه بمثله أو يفر هاربا .

فى شهر مايو ١٨٥٨ ، كان الوالى « محمد سعيد باشا » - رابع ملوك أسرة محمد على - فى الاسكندرية ، وجاء عيد الأضحى ، فسافر الأمراء والموظفون والأعيان الى هناك لحضور التشريفات وتهنئة الوالى بالعيد ، وبعد أن انتهت استقلوا القطار عائدين الى القاهرة .

وحتى ذلك التاريخ لم يكن كوبرى كفر الزيات قد تم بناؤه بعد ، فكان على قطار الاسكندرية أن يتوقف فى قرية اسمها « كفر العيص » حيث تزدحم عرباته بما فيها من ركاب على كوبرى متحرك عبارة عن سفينة بخارية تسير بالعربة الى الضفة الأخرى من النيل ، حيث تدفع الى الخط الحديدى الموصل من كفر الزيات الى القاهرة .

ونقلت بعض عربات القطار ، وعندما جاء الدور على العربة التي كانت تقل الأميرين « عبد الحليم » - ابن محمد على الكبير - و « أحمد » - ابن ابراهيم باشا - حدث شيء غريب ، فبينما العمال يدفعونها الى الخط الحديدي اذ بها تهوى فى النيل وتمتلئ بسرعة بالمياه ، وتغرق بمن فيها ، وكان الأمير « عبد الحليم » خفيف الوزن فتمكن من التسلل من نافذة العربة وسبح الى المشاطيء ، أما الأمير « احمد » فكان سميئا فعاقه وزنه الثقيل فمات .

وتعددت الاتهامات حول هذا الحادث الغريب ، ولفت نظر الذين لغطوا حوله أن الأمير اسماعيل - الخديو فيما بعد - الذى كان مفروضاً أن يركب نفس العربة التي سقطت قد تخلف فى آخر لحظة عن السفر وتخلف معه شقيقه مصطفى فاضل ، ومما زاد من ريبة المرتابين فى الحادث أن الأمير اسماعيل كان وحده المستفيد المباشر من وفاة شقيقه الأكبر أحمد ، فبوفاته حل محله وأصبح ولياً للعهد . واتهم آخرون الوالى صراحة بتدبير الحادث وأنه تعمد قتل شقيقه عبد الحليم وابن أخيه أحمد لأنه كان يكره الأول ولا يريد للثانى أن يرث عنه .

وفى ما بعد أصبحت هذه الحادثة علماً على نفسية أسرة محمد على ، بل انها كانت أحد أساليب « عرابى » فى تجنيد عناصر جديدة فى الجيش ، فبعد حادثة أول فبراير عام ١٨٨١ حين حرر ضباط الجيش الأميراليات الثلاثة الذين قبض عليهم الخديو وأراد محاكمتهم عقاباً على العريضة التي رفعوها له بمطالب ضباط الجيش أراد الخديو توفيق أن يشتت العناصر الثائرة فى الجيش فأصدر أمره بنقل إحدى الفرق المتمردة من القاهرة الى الاسكندرية ، ورفض الجنود الأمر ، وحاول وزير الحربية وقتها مناقشتهم فرفضوا بشدة وقالوا أنهم علموا أن فى النية اغراقهم فى كوبرى كفر الزيات .

وقشلت محاولات « داود يكن » - وزير الحربية الذى أصدر الأمر - لاقناعهم أن الحكومة لا يمكن أن تفعل هذا ، وأن الخديو لا تتدنى أخلاقه الى تلك الدرجة ، وتفجرت الثورة بعد أسبوع واحد من القرار ، وكان منطق الجنود بسيطاً وحقيقياً :

— يا عم دول بيقتلوا اخواتهم .. حنصعب احنا عليهم .

الطاعون لا يسمع

كان مرتزقة الأجانب هم طاعون مصر الحقيقي ٠٠ ومنذ أجبرت الرأسماليات الأوربية « محمد علي » على إلغاء سياسة الباب المغلق تدفق المرتزقة والأفاقون الى مصر ، وما كاد عصر اسماعيل ينتصف حتى كانت مصر ضيعة يديرها حملة الأسهم من الأجانب ، يأكلون ويموتون تخمة ، والشعب المصرى يموت فاقة وجوعا .

فى سنة ١٨٧٨ انخفض منسوب النيل وترتب على ذلك عجز شديد فى المحصول ، ولم يقف الخطب عند هذا الحد ، بل ان الطاعون البقرى تفشى بدرجة مروعة مما ترتب عليه هبوط سوق القطن هبوطا فاحشا ، فكانت نتيجة هذه الرزايا مجتمعة أن ضربت المجاعة أطنابها فى الوجه القبلى بشكل لم يعرف مثله منذ أجيال عديدة ٠٠ ان ذاك خرجت النساء بأطفالهن ، هائمات على وجوههن متنقلات من قرية الى أخرى فى طلب لقمة من العيش ، حتى أن أكثر من عشرة آلاف شخص ذهبوا ضحية المجاعة فى صيف ذلك العام عدا الذين فتكت بهم الأمراض الناشئة عن الفاقة كالدوسنطاريا وغيرها ، وبالرغم من ذلك كله فان الخديو اسماعيل ما كاد يطلب تأجيل قسط الديون التى اقتترضها من مرتزقة الأجانب حتى رفض حملة الأسهم ٠ أيامها كانت الادارة المصرية كلها فى يد حملة الأسهم ، وكتب القنصل السويدى الى حكومته : « ان مصر الآن بمثابة ضيعة كبيرة يديرها حملة الأسهم ، ولكن مع الفرق العظيم بين حملة الأسهم الذين يدركون عادة أهمية تنمية موارد الضيعة للحصول على ديونهم ، تراهم فى هذه الأيام لا هم للواحد منهم الا الصرف والامتصاص كأنهم نسوا أن من المستحيل أن يحصد الانسان اذا لم يزرع من قبل » .

وأصر مرتزقة الأجانب على موقفهم ، ولم يجد الخديو اسماعيل بدا من الضغط على الفلاحين الجوعى الذين اضطروا الى بيع حاصلاتهم قبل حصادها بنصف قيمتها بل بأقل من ذلك ، ثم شرائها ثانية لسد جوعهم ، وأقبرت مديريات بأكملها ورحل الأهالى عنها نهائيا ، وبعد أقل من ثلاثة اشهر جاء ميعاد الكويون الثانى ، ومصر تجوع والمرتزقة يتخمون بالمال ٠ وكتب القنصل الاتجلىزى لحكومته صارخا : « ان حملة الأسهم الأجانب يعملون على خراب مصر ٠٠ فاذا خربت فكيف تسدد ديونها ؟ » ٠٠ ووقع صراخه على اذن صماء ٠٠ ذلك أن المخربين كانوا طاعونا ٠٠ والطاعون لا يسمع .

الحديث فى البولتيقا

حتى أواخر عهد اسماعيل لم يكن مسموحا للصحف المصرية أن تتحدث فى البولتيقا .

وبلغة العصر فان البولتيقا هى السياسة . وبرغم أن عصر اسماعيل شهد انشاء أول صحف أهلية غير رسمية فان هذه الصحف غير الأميرية قد ظهرت فى السنوات الأولى من حكمه مماثلة من حيث الشكل والوضع للصحافة الرسمية المعاصرة لها ، تعنى بتافه الأخبار . . وتنشر الأدب القديم المحفوظ فى بطون الكتب .

وعندما نشبت الحرب التركية الروسية عام ١٨٧٦ بدأت الصحف المصرية تهتم بها اهتماما شديدا . لأنها تتصل بأمر الدولة صاحبة السلطان الروحى عليهم . . وكان السلطان يضغط على الخديو اسماعيل فى ذلك الوقت لكى تساعد مصر تركيا فى هذه الحرب بالمال والجنود ، ولأن الميزانية المصرية كانت وقتها مرتبكة تمام الارتباك بسبب الديون ، فقد رأى الخديو اسماعيل الفرصة سانحة لكى يتهرب من مساندة السلطان فى حربه ضد روسيا ، إذ أتاح الفرصة للصحف للكتابة فى الموضوع ونشر هزائم الجيش التركى .

وببساطة أسرع الصحف المصرية تنشر تفاصيل الحرب . . وظهر من بين السطور ميلها الى ما كانت تأتى به العساكر الروسية من ضروب الشجاعة .

وبسبب هذه الحرب استحدثت صحف لنشر أخبارها ، ونشطت هذه الصحف الجديدة فى رواية الأخبار والتعليق عليها ، ومعارضة الصحف القديمة فى الرأى والمذهب ، واشتدت المناقشة بينهما ، وكانت الجادلات الصحفية فى ذلك الوقت أول حدث فى تاريخ الصحافة المصرية .

وسرعان ما جرت الحرب الصحف الى الحديث عن علاقات مصر الدولية . ومن خلال نشرها لعلاقات السلطنة العثمانية بروسيا ذهب بعضها الى اعتماد صحة الموقف الذى كان الروس يتخذونه فى هذا الوقت . إذ كانوا يطالبون بحق تقرير المصير لشعوب أوربا الشرقية التى كانت خاضعة للسلطان العثمانى ، وتحمست الصحف المصرية لحق هذه الشعوب فى أن تحكم ديمقراطيا ، وأفاضت فى شرح المذاهب السياسية الجديدة التى تقف تركيا دون تحقيقها .

وبسبب عزوف الخديو عن مساندة تركيا ، فقد غض الطرف عما نشر من آراء أو أذيع من أخبار عن الدولة العلية واخفاها فى هذه الحرب . وتدرججا تحولت الصحافة المصرية الى صحافة رأى ومذهب ، وشببت عن الطوق . ورأت شئون مصر تسيير فى اتجاه فيه غبن شديد على البلاد .

هكذا انتهزت الصحف الحزبية التي حصلت عليها وأخذت تتحدث في أمور البوليتيكا التي لم تكن تتحدث فيها من قبل .
وكانت تلك بداية النهاية .

العرق .. والخواجات

لم يكتف كبار ملاك الأراضي والاقطاعيين بتعذيب الفلاحين واستغلالهم ، لكنهم عذبوا مصر وأضاعوا استقلالها ، وباعوا أراضيها للأجانب .
والدور الذي لعبه كبار ملاك الأرض في حياة مصر السياسية يتضمن حقائق مذهلة فالملكيات الكبيرة للأجانب تكونت بصفة أساسية من خلال شراء الأراضي وأعمال الرهنونات ، عن طريق رؤوس الأموال التي استطاعوا أن يكونوها من أعمال التجارة وغيرها ، وبالإضافة إلى هذا فقد أسرف كبار ملاك الأرض المصريين في الديون لتغطية نفقات حياتهم الاستهلاكية ، الأمر الذي انتهى بهم إلى بيع أراضيهم للأجانب ، وهي حقيقة تؤكد حركة بيع الأراضي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فمن أطيان عبد اللطيف باشا البالغ مساحتها ٢٠٥٠ فدانا في عهد اسماعيل والموزعة على مديريات الشرقية والحيزة وأسيوط وجرجا ، اشترى الألماني كاريس بيرس من رعايا بروسيا ٣٨٥ فدانا ، واشترى يوناني اسمه استرايو وانجليزي يدعى فتستزوا ٤٠٥ أفدنة ، وحدث نفس الأمر بالنسبة لأطيان كثيرين من « الذوات » باعوها ليونانيين وأرمن ونمساويين وفرنسيين .

وعرفت مصر في ذلك الوقت عناصر « دولية » تولد في بلد وتتمتع بجنسية بلد آخر ، وتستغل الشعب المصري ، ومنهم حبيب لطف الله باشا ، الذي ولد في لبنان وحصل على الجنسية الروسية وعمل قنصلا لروسيا في مصر ، وفي مطلع القرن العشرين اشترى ٤٠٢٤ فدانا من مطاى بمديرية المنيا .

كثيرون جاءوا مصر فقراء وأثروا من عرق أهلها ومن « خيبة » الاقطاعيين وسفهم الذين كانوا يكونون الاف الأفدنة من عرق الفلاحين المصريين ثم يضيعونها في الحانات أو القمار ، وينتهي عرق المصريين إلى الأجانب ، ويضيع استقلال البلد .

من الذين وصلوا مصر فقراء سليم صيدناوى الذى جاء عام ١٨٨٩ الى مصر - بعد أن سبقه أخوه سمعان إليها - واشتغل حائكاً ثم فتح حانوتاً صغيراً بالموسكى مع أخيه باسم سليم وسمعان صيدناوى ، وما لبثت تجارتها أن اتسعت . وفى يوليو سنة ١٩٠٠ اشترى الأخوان صيدناوى مساحة ٤٠١١ فدانا من أطيان الدائرة السنية بمركز اطسا بمديرية الفيوم ، وبعد هذا التاريخ بثلاثة أعوام فقط اشترى ١٣٢١ فدانا من أطيان الدائرة السنية بناحية شديرة بالفيوم ، كما اشترى أيضا ٥٣٥ فدانا من تفتيش مغاغة فى العام التالى وبعد عام آخر اشترى الأخوان ١٠٥٢ فدانا من أطيان الدائرة السنية أيضا بالفيوم ، وذلك بعقد فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٠٦ .

- أيامها كانت مصر فى ظل الاحتلال تبيع بياخس الثمن أرضها للجانب
- فى الحقول : كان الفلاحون يعرفون ، يكونون بعرقهم آلاف الفدادين
- على موائد القمار وفى الحانات وفى السياحة : كانت تضيع ٠٠ وتذهب الى الخراجات .

الضرتان والسكى

كان « يعقوب صنوع » واحداً من أغرب الشخصيات التى شهدها التاريخ المصرى . عاش حياة غريبة بين حوارى القاهرة وقصورها ، وبيوت وشوارع باريس وملاهيها ، واشتغل بالسياسة والمسرح والصحافة ، وكتب مقالات وأزجالاً وحواريات ، ودرس اليهودية والاسلام والنصرانية ، وأصدر عدداً كبيراً من الصحف والمجلات فى مصر وباريس ، وكانت صحفه منشورات ثورية تهذب من خارج مصر الى داخلها ، فترتعد فرائص الحكام ، وتجند كل القوى للبحث عن أعداد مجلة ضئيلة الصفحات مطبوعة بالحجر ، تحمل جرائم الثورة .

ولد لأب يهودى رزىء بفقد الأبناء ، فنذر ان ولد له ولد آخر ، ليجعلنه مسلماً ، حتى يعيش ، وهكذا جاء يعقوب وعاش فى حوارى القاهرة ، وهوى المسرح والصحافة ، وأصدر مجلته الشهيرة « أبو نضارة » فحمل اسمها وأصبح اسم أبو نضارة أشهر الأسماء فى القاهرة ، وعندما بدأ يمثل أطلق

عليه الخديو اسماعيل لقب « موليير مصر » فقرن اسمه باسم الكاتب المسرحي الفرنسي الكبير . وكان الخديو ذو الاتجاهات الاوربية سعيذا لأن مصر بها كاتب مسرحي موهوب كيعقوب صنوع .

واستمر الخديو يحتفظ باعجابه وتقديره لموليير مصر ، حتى خطأ يعقوب مرة فقدم مسرحية كانت الفاصلة .

فعلى الرغم من أن الخديو اسماعيل كان قد تربى فى أوربا ، وعاش فترة فى فرنسا ، أكسبته اتجاهات متحررة بشكل عام ، الا أنه كان مليئاً بالمتناقضات ، وبسبب خطأ فى التقدير وقع يعقوب فى انشودة هذه المتناقضات ، فقد قدم فى احدى الليالى على مسرح قصر عابدين مسرحية اسمها (الضرتان) بناها على ابراز المتاعب التى يعانيتها كل من يتزوج باثنتين من صداع فى الرأس وتشبت فى الذهن . . . ينتهى بخراب بيته وعقله . . . وما أن انتهت المسرحية حتى غضب الخديو غضبا شديدا ، وصاح فى يعقوب :

- يا موليير . . . اذا كانت كليتك لا تحتملان سوى امرأة واحدة . . . فما ذنبى أنا وكليتى تحتملان .

وضحك يعقوب لهذا النقد المسرحي على الطريقة الخديوية .

الاصفار . . والحضارة

كانت عملية حفر قناة السويس دليلا واضحا على ما فعلته الحضارة الأوربية الرأسمالية فى بلادنا الفقيرة والمجهد . بينما يفخر الأوربيون بأنهم نقلوا حضارتهم الى مناطق متخلفة وبدائية ، فانهم ينسون عادة الأساليب اللاأخلاقية والنهب والسلب الذى مكنهم من أن يببوا حضارتهم على حساب عرق شعوب المستعمرات ، بينما يتمتعون بحياة مرفهة ، كان ثمنها دائما جوعنا وفقرنا وموتنا فى كل الأحوال .

فى مذكراته « خليها على الله » روى الأديب الكبير يحيى حقى قصة واحد من ساسة مصر ، كان يتولى تحرير صحيفة الحزب الوطنى بعد أن تدهور حالها ، كانت ادارة المجلة قد أصبحت مجرد دكان صغير ، فيه عامل عجوز يصف الحروف ويدير مطبعة يد ، ويترجم على أيام « اللواء » . كان

وكان الناس قد ملوا ما يجرى فى الواقع من تمثيلات تجرى على السنة كتاب
وصحفيين وشعراء منافقين وأرزقية وحكام بلا خلق ولا ضمير .

وجاء التمثيل ، ورأى الناس فيما يجرى على المسرح ما يختلف مع
ما يرون فى الحياة ، ولأنهم كانوا يطمحون للقضاء على الذين يمثلون الشرف
وهم بلا شرف ، وعلى الذين يدعون أنهم أنصار الحب والتسامح ، وهم بؤر
الحقد والفساد والشر ، لذلك تدخلوا فيما يجرى على الخشبة وأصروا دائماً
على تعديله .

وكان من نصيب يعقوب صنوع الذى أنشأ أول مسرح مصرى أن
يعانى كل هذا ، ألف مرة مسرحية من فصل واحد عن بنت اسمها صفصف :
لعوبا كانت ، عبثت بكثيرين من الرجال حتى ساءت سمعتها فهجرها جميع
الناس ، وأصبحت وحيدة لا يعنى أحد بها . ولم يرض الجمهور عن هذه
النهاية المؤلمة لصفصف . كان الجمهور يعلم أن البغايا الحقيقيات يملأن
الدنيا ، فلماذا يجوز يعقوب على فتاة فقيرة ويتجنى عليها ؟ لماذا ينافق
بالأخلاق ولا يغضب لعبث السادة والكبار .

ويوما وقف المتفرجون فى نهاية المسرحية يصفرون ويسخرون . قال
أحدهم مخاطباً يعقوب - الذى كانوا يسمونه موليير مصر - قال :

- أنت تعلم يا موليير أن صفصف فتاة شريفة ، وينبغى أن تجد لها
زوجاً جديراً بظرفها وجمالها . عليك أن تخصص الفصل الأخير لزوجها ،
إذا أردت أن نصفق لك والا فاننا لن نختلف الى مسرحك أبداً .

ويضطر المؤلف المخرج الى تغيير مسرحيته ، ويتصدى الناس لكل
التمثيلات ينقدون ويرفضون ، ويصل الأمر الى أن الممثلين أنفسهم أخذوا
يكتشفون زيف ما يقولون من كلمات ، فيزدرون أنفسهم ، ويتمرد بعضهم على
المؤلف ، وما يضعه على ألسنتهم من عبارات لا تعبر عنهم ، ولا عن مشاعرهم ،
فيختنقون بالعواطف المزيفة ، ويشعرون بأدبيتهم . فى الصالة شعب يفهمها
وهى طائفة ، لا تفوته شاردة ولا واردة . لا يمكن أن يقنعه الحقودون بأنهم
أنصار الحب والتسامح . الذين يغتالون كرامات الموتى . وينشرون
الضغينة والبغضاء ، ويوما وقف ممثل وممثلة يقومان بدور عاطفى ساخن .
كانت الممثلة تزدري زميلها وتكرهه لأنه حاول أن يجبرها على حبه فرفضته ،
لكن دورها فى المسرحية كان يقتضى أن تقول :

- يا نور عيني الذى يعشقك قلبى وتعبدك روحى
ويظن الممثل أنها تقول له صدقا فيهمس فى أذنها مباركا المسرح الذى
يجعلها تتنازل عن كبريائها وتغازله ، وتضيق المثلة ، وتنفجر قائلة لجمهور
المسرح بصوت عال :

- ان كلمات الحب التى وجهتها لهذا الفتى المغرور الغبى لا تعبر عن احساسى ، فانى اؤثر العمى على حبه ، ان مؤلف الرواية هو الذى وضع هذه الكلمات على لسانى .

وتنفجر الصالة بالتصفيق الحاد . . ان الممثلين ينكشفون . . يمثلون الحب وهم حاقدون . . والشرف وهم بلا شرف . . والوطنية وهم موصومون بالخيانة . . لكن المتفرجين يعلمون كل شىء .

ملك لا يموت

كان البابا « كيرلس الخامس » واحدا من ألمع بطاركة الكنيسة المصرية فى العصر الحديث ، ان كان يملك قوة ديناميكية مكنته من أن يثير كل عدة سنوات حيوية عامة فى حياة الكنيسة الارثوذكسية .

وفى عهد « الخديو اسماعيل » بدأت الارساليات البروتستانتية الامريكية نشاطها وخاصة فى الصعيد ومدينة اسيوط بالذات ، فقد افتتحوا أقساما داخلية ، وسهلوا للتلاميذ من أقباط مصر الالتحاق بها ، وفى مستوى معيشة طيب ، ومن خلال الاقامة الطويلة أمكن المبشرين الأمريكيين تحويلهم من الارثوذكسية ، وكانوا فى هذه الأقسام يجبرون التلاميذ الأقباط على حضور الصلوات ، وتتبع العظات ، حتى يتحولوا تدريجيا الى المذهب البروتستانتى .

وأثار ما يحدث فى الصعيد عموما ، وفى اسيوط بالذات ، كثيرا من القلق فى نفس البطريرك فاستأذن « الخديو اسماعيل » فى القيام برحلة الى اسيوط بغرض الحد من ذلك النشاط ، وتحمس الخديو للفكرة وأمر بتخصيص باخرة نيلية لنقل البابا كيرلس الخامس ، الى حيث يريد .

ودخل البطريرك اسيوط فى موكب حافل على نمط دخول المسيح الى اورشليم ، ان ركب على حمار وتقدم القسس وحاملوا الصلبان والاعلام وفروع النخيل والشموع ، وضاربوا الدقوف والرنمون بالقبطية ، وسار ببطء من النهر الى المدينة والناس يزداد عددهم ، وازدحامهم كل دقيقة . . وكان محاطا بالجنود امامه وخلفه بأمر الحكومة .

وعندما استقر فى المدينة بدأ حملة المقاومة ، وكانت المدارس القبطية تعتمد شهاداتها من ناظر المدرسة ومن مدير الاقليم . . وعندما حاولت مدارس

الرساليات اعتماد شهادتها من المدير - وكان مسلما - رفض ذلك مساندة
لجهد الأقباط المصريين فى الاحتفاظ باستقلال كنيستهم ، وهو ما جعل الطلاب
من الأقباط ينفضون عن المدارس التى لا يعتمد شهادتها مدير المديرية ،
ويفضلون المدارس الارثوذكسية .

وانتقل البطريرك ببأخرته فى النيل فذهب الى « أبى تيج » و « اخميم »
حيث أقفلت المدرسة البروتستانتية هناك عقب زيارته ، وعندما وصل الى قنا
أخبره وكيل القنصل الأمريكى أن قنصله العام فى القاهرة قد أخطره تلغرافيا
أن يوافيه بكل ما يحدث فى أثناء زيارة قداسته .

وأكد البطريرك أنه لا يعير أية أهمية لما يعتقد القنصل الأمريكى أو أى
قنصل عام آخر فى تصرفاته .

ومضى البطريرك يقاوم . . . وعندما طلبوا منه أن تكون الكنيسة المصرية
تحت رعاية ملك بريطانيا سألهم :

- هل يموت ملككم ؟

فقالوا : نعم .

قال : اننا تحت رعاية ملك لا يموت .

المهر دار فى الساقية

احتفظت العامية المصرية بالعديد من الألفاظ ذات الأصول الاجنبية
الشتى . . . وكانت بهذا مؤشرا حيا لتاريخ مصر ، ولعذابها الطويل والريير
مع الغزاة ، عندما كانت معبرا للأفاقين الأجانب ، يأكلون خيرها ويزعمون
أنهم ملأوها رفاهية ، بينما كانوا يعيشون ويموتون تخمة ، وتموت هى
جوعا وفاقا .

وأكثر من أى لغة أخرى فان التركية قد أثرت فى العامية المصرية بحكم
الاحتلال التركى الطويل الذى استمر الى ما يقرب من خمسة قرون . وهناك
كلمات تركية متداولة بنفس معناها ومنها « كراباج » : من قراباج وهى كلمة
تركية بمعنى السوط المصنوع من الجلد ، ومنها « أودة » : بمعنى غرفة ،

و « يوية » : أى لون أو صبغة ، « أويما » : أى حفر ، « جزمة » : أى الحذاء الطويل الساق ، « شنطة » : من جانطة أى حقيبة ، « ثنبل » : أى كسلان ، « أورمان » : وهى فى التركيبة الغاية ، وتطلق على الحديدية المعروفة بهذا الاسم أمام جامعة القاهرة .

ومن الألفاظ الايطالية : « جمرىك » : ومعناها الأصلي - مع تحريف فى النطق - « تجارة » ، « ترمبيئة » : أى بوق أو نفير ، « كومبانية » : وهى فى الايطالية شركة ، « أنتيكة » بمعنى : قديم ، « لوكافدا » : أى فندق ، « وايبور » : وتنتطق بالايطالية فابور ، بمعنى بخارى ، ومن الكلمات الايطالية أيضا : « تياترو » و « طاولة » .

ومن فكاهات عصر الخديو عباس حلمي الثاني أنه كان يحتفظ فى قصره بثلاثة من الندماء يضحكونه وكان بينهم وبين « مهردار » القصر ثارات وخصومات ، والمهردار كلمة تركية تعنى « حامل الختم » ، وكانت له سلطة واسعة فى القصر الخديوى ، ويوما كان المهردار يضع لافتات على كل غرفة من حجرات الحاشية تدل على وظيفة من بها ، فلما وصل الى غرفة الندماء الثلاثة كتب عليها « انما نطعمكم لوجه الله » ، فغاظهم ذلك ، وأرادوا الانتقام منه ، فالفوا زجلا يعتمد على اختلاف المعانى بين الكلمات التركية والمصرية ، وفى احدى السهرات دخل الندماء ، فألقى كل منهم شطرة من زجل يقول :

كان عندى فى وسط البلد ساقية بتسقى الجنان

دورت فيها التور عصى •• دورت فيها « المهر » دار

•• ولا دمنهورى

بسبب قربها من الاسكندرية كانت « دمنهور » منذ أواسط القرن الماضى نموذجا لمجتمع التجار ، وبالأذات تجارة القطن التى رفعت كثيرين من أهلها الى قمة الثروة ، وهوت بهم مرة أخرى الى حضيض الحاجة وأحيانا التسول . وفى مجتمع التجار لا تسود القيمة الخلقية المطلقة ولكن تسود بدرجة أو بأخرى المنفعة كقيمة •• وهو ما جعل الدمنهوريين شديدى الحرص والذكاء وجعل سكان المحافظات الأخرى ينصحون دائما من يلتقى بدمنهورى أن يأخذ باله وينتبه ، ويعد أصابعه بعد السلام عليه .

ويسبب الذكاء الدمهورى فان اهل دمهور كانوا من اشد أعداء تجار الأقطان الأجانب ، وما لبثوا بعد تجارب مريرة معهم أن أجلوهم جلاء نهائيا عن المدينة حتى قبل أن يجلووا عن مصر كلها ، وفى بداية الخمسينات لم يعد فى دمهور منهم سوى تاجر واحد أكد أهالى دمهور أنه بقى كمجرد رمز فقط على أن الأجانب كانوا يوما أصحاب كل شىء فى مصر .

وربما بسبب مهارتهم فى التجارة فان بقية المحافظات قد شنت حملات دعائية مضادة ضد أهلها وأطلقت عليهم المثل الشعبى المشهور « ألف نورى .. ولا دمهورى » . وقد نافس الأسيوطيون الدمهوريين فى هذه النصاحة ، وتصوروا أنهم قادرون على هزيمتهم فى مجال الذكاء والقدرة على الكسب ، وسرعان ما كشفت التجربة عن هزيمة مريرة للأسايطة .. وأطلق الدمهوريون نادرة تبلور نتيجة هذا الصراع ، تقول أن أسيوطيا قابل شخصا فى قطار الصعيد فسأله عن وجهته فقال المسافر أنه فى طريقه الى أسيوط فبادر الأسيوطى يحذره من أهلها وينبئه الى أنهم أنكباء ومهرة ، وأن عليه أن يعد أصابعه بعد أن يسلم عليهم .. واندفع يروى عشرات الحكايات عن التجار الذين نزلوا أسيوط وخرجوا منها بملابسهم الداخلية .

وكان المسافر صامتا طول الوقت الى أن سأله الأسيوطى عن بلده فرد بهدوء وثقة :

– أنا من دمهور .

على الفور انهار الأسيوطى باكيا وقال له :

– طب والنبى خلى بالك من الأسايطة .

ظاهرة خليل أغا

حفر « خليل أغا » اسمه فى تاريخ مصر ، فالمدسة التى تحمل هذا الاسم واحدة من أشهر المدارس الثانوية فى مصر ، خرجت أعلاما من زعماء الوطنية والسياسة وقادة الفن والفكر .

كان « خليل أغا » فى الأصل رقيقا ، جاء به من أفريقيا ضابطا نمسوى كان حاكما عاما على السودان أعلن اسلامه وتسمى باسم « محمد أمين »

وأهداه الى والده « الخديو اسماعيل » ٠٠ ولم يمض وقت طويل حتى فاز خليل بثقة واعجاب والده الخديو ، فأطلقت يده فى كل شئون الحاشية ، وبالذات فيما يتعلق بتربية الأمراء ، وتعهد مختلف شئونهم التعليمية والأخلاقية .

وبسبب إخلاصه الشديد وحرصه على سمعة العائلة ، فقد غضب خليل أغا يوما على احدى الأميرات لأنها تأخرت فى الخارج مدة تزيد على ما حدده لها ، وتطاول فصفعها على وجهها وانفجرت أزمة كبرى فى قصر أم الخديو لهذا الحادث ، وثار له الأمراء وغضبت الأميرات ، وخرج منافسوا خليل من الخدم والأغوات الذين كانوا ينقمون عليه لمكانته من أم الخديو ٠٠ وتوقع الجميع أن ينتهى نفوذ الأغا المزعج ، وبالعكس ما توقع الجميع أيدت الملكة الوالدة موقف خادمها المخلص وثبتت مكانته .

وظل خليل أغا يرتفع ويثرى ويشترى البيوت والعقارات والدكاكين والأراضى الزراعية حتى بلغت أرضه وحدها ١٨٠٠ فدان . لكن الزمن قلب بلا قلب ٠٠ وهكذا خلف توفيق اسماعيل ٠٠ وتدهورت مكانة الأغا المخلص ، وانتهزت الأميرة التى صفعها الفرصة فأوغرت عليه صدر الخديو الجديد ، وسرعان ما صدر قرار يتلاءم مع زمن الأغوات أن أمر الخديو بنفى خليل أغا الى الحجاز ، وما كاد يصل الى السويس حتى وجد أمرا آخر أبلغه اليه محافظ المدينة الذى ذكر له أن ولى النعم يترك له الخيار فى أن يموت بقطع عنقه بالسيف أو يتجرع كوبا من السم المركز ٠٠ واختار خليل أغا أن يتجرع كأس السم فى قصره بحلوان ، حيث انتقل منه الى قرافة الامام منهيًا حياته الغربية التى كانت رمزا لزمن الأغوات .

وترك زعيم الأغوات كل ثروته وقفا على طائفته وعلى العتقاء من الرقيق ، لكن الصراع بين خلفائه والخديو توفيق حول ادارة الوقف ظل دائرا حتى يوليو ١٩٥٢ ، فقد عزل الخديو عباس الثانى « بلال أغا » عن نظارة الوقف لأنه رفض أن يمنحه جزءا من أرضيه ، ورأى الملك فؤاد أن يضم هذا الوقف الضخم الى الأوقاف الملكية ليستولى على إيراده ، وفعلها تاركا المستحقين وكانوا ١٠٥ من الأغوات يتضورون جوعا ، وفعل الملك فاروق نفس الشيء .

ومع تقدم الزمن كان الأغوات ينقرضون ، وظلت ظاهرة خليل أغا تحقر نفسها فى الوجدان المصرى دلالة على زمن يكبر فيه قوم بلا سبب الا أنهم عبید وينخفضون بلا سبب الا لأن الذين يرفعونهم عبید أيضا .

على الله العوض

فى « برنبال الجديدة » - بمركز دكرنس - ولد ، كان من أسرة تشتتت فى البلاد أيام كان المماليك يحطون بكلهم على كل شىء ، فهاجرت الى عديد من القرى واستقر فرع منها فى برنبال ، من هذا الفرع ولد ، وفى حارة من القرية أقام مئتا شخص من أسرته ، يعيشون على دخل تافه ، كان الدخل كما قال « على مبارك » نفسه « رزقة بلا مال » ولم يكن عليهم شىء مما على الفلاحين ولا لهم علائق عند حكام الجهات ، وحتى ذلك الدخل لم يستمر ، فهجرت الأسرة برنبال وكان « على » وقتها فى السادسة ، فقد له أن يسكن فى خيمة وسط خيام الاعراب بعد مسكن مستور ، يذهب الى الكتاب - فى قرية مجاورة - يوما وينقطع لقله المال أياما ٠٠ وتتجمع المصائب فى الأفق فيدخل السجن بمؤامرة دبرت له بزعم أنه هارب من التجنيد ، رغم ان عمره لم يتعد الثامنة عشر ، وفى البيت كان قد قرأ القرآن على أبيه ، أما فى مركز دكرنس فقد علم من فراش المأمور أن سيده بلغ هذه المكانة لأنه تعلم ودخل مدرسة فى القاهرة المحروسة يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، يدخلها الناس تلاميذا فيخرجون حكاما ، ويستويهو اللحم فيهرب الى « منية العز » ليدخل فيها كتابا ، ويسترده أباه فيهرب فى ليلة مقمرة حاملا دواته وأدواته .

وأخيرا يدخل المدرسة ، ويتخرج منها فيلتحق بمدرسة المهندسخانة ، ويختاره سليمان باشا الفرنساوى الى بعثة فى باريس ، فيتعلم ويتعلم ، لكن ذكريات « برنبال الجديدة » لم تكن قد فارقت العقل ، وعندما يعود ضابطا مهندسا ، تكون الدنيا قد تغيرت فى مصر ، مات ابراهيم وانتهى عصر محمد على نى الميول المتحررة الذى كان يحب أوربا ويزيد أن يجدد مصر بالحضارة والفكر والعرفان ، وجاء عباس ذلك الذى يكره المدارس ويزدى المصانع ويعتبر أن الفكر والعلم تصديع للرؤوس ٠٠ وهكذا تجمد على مبارك . وجاء سعيد فيقضى على مبارك فترة حكمه أيضا بلا عمل تقريبا ، ومضت أربعة عشر عاما قبل أن يبدأ على مبارك عمله العظيم فى تطوير التعليم المصرى ، وبناء أسسه .

فى تلك السنوات القاسية كان فتى « برنبال » يعيش حزينا ٠٠ كان قد اكتشف قسوة لعبة الحكم فى مصر ولاأخلاقية الطغاة مهما كانوا مستنيرين ، فلا يكفى أن تكون عالما أو مفكرا أو صاحب رأى لكى يستفيد منك الوطن ، ولكن يجب أن يرضى عنك السلطان أو يستظرفك .

ويوما استدعاه عباس باشا الجهول وكلفه بمهمة ، وهدده بأنه اذا لم يقم بها فسوف يسلب نعمته ويلبسه لبس الفلاحين ، وفى عهد سعيد أبعد عن

العمل ، فاستأجر بيتا صغيرا وقاسى من شظف العيش ومرارة الضيق ،
ساعتها اعتزم - كما يقول فى مذكراته - أن يعود الى أهله فى « برنبال »
ويعيش معيشتهم « وعلى الله العوض فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ،
ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها » .

كان على مبارك يعيش وقتها مأساة رجل يفكر فى بلد لا يحترم
الا الجهلاء .

وعلى الله العوض ..

مصر المحبوسة

خلال حكم الخديو اسماعيل ، تسللت رؤوس الأموال الأجنبية الى
مصر ، وأصبح اقتصادها كله اقتصادا تابعا ، لدرجة أن ميزانيتها أصبحت
ميزانية تسديد ديون .. وتدهور الحال الى حد أن أصبح من بين وزراء
مصر ، وزيران أوروبيان ، أحدهما للاشغال حيث تصب كل إيرادات الدولة ..
والآخر للمالية ليسيطر على كل المصروفات .

برغم كل هذا التدهور .. فقد كان اسماعيل يحكم مصر بالحديد
وبالنار ، جمع حوله حاشية من الحمقى والعملاء وصفهم « عهد الله النديم »
فى مقال له ، فقال : ان اسماعيل كان « لا يرفع الا الأراذل ولا يقرب الا
الأسافل » ، وأنه أرسل الى الأنحاء « كل صخرى الفؤاد ، وحشى الأخلاق
وفى الأصل ردىء المنبت ، سبىء التربية ، خبيث الطبع ، لا يرعى حرمة
للإنسانية ، ولا حقا للمدين ولا ذمة للأخلاق » .

وكان هؤلاء هم الذين يحرسون شعب مصر المسجون .. ذلك ان البلاد ،
كما يقول النديم : « كانت على سعة أطرافها ، كليمان أعد للمذنبين ، ومجلس
جزاء هيبء لأرباب الجرائم والخاطئين ، ولو أن سائحا جويا صنع فى درجات
الهواء الى حد يرى ويسمع من تحته من أهالى الديار المصرية ، ان ذاك
لرأى أمة تتقلب على جمر العذاب . على غاية من الاختلاط والاختطاب ، تتحرك
كالود على غير نظام وتسمع ضجة عامة وصيحة صاخبة وتزعج السمع ،
وتستفز الهاجع وتفتت قلب من أودع ذرة من الاحساس الانسانى » .

وبعد ذلك بسنوات طويلة كتب سعد زغلول الى وزير الخارجية البريطانية محتجا على منع الوفد من السفر فقال : « ان الأمة المصرية بأسرها من الوزير الى أصغر فلاح محبوسون داخل حدود بلادهم ، ولا يسمح لأحد منهم بالخروج من هذا الحصار الشديد » .

أيامها كانوا يطلقون عليها اسم مصر المحروسة .. وكان آخرون يسمونها مصر المحبوسة .

أفندينا والملايم

كان « الخديو اسماعيل » - برغم أفضاله الكثيرة - من أكثر حكام مصر تذبذرا واسرافا وسفها ، وفيما بعد ، ثبت أن أفندينا ولى النعم « ببقشش » من جيب غيره ، وأنه ينزح من جيوب الفقراء ملايين الملايم التي يعيشون منها .

ومما تناقله عنه الرواه ، أنه سافر الى باريس فى عام ١٨٦٧ ليزور « معرض باريس العام » وهناك التقى بأحد النبلاء الفرنسيين شبه الفيلسوفين ، كان النبيل يعيش فى قصر جميل فى احدى ضواحي باريس ، فاخر الأثاث ، ثرى الريفاش ، وأعجب اسماعيل بالقصر ، وأعجب أيضا بهيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر من عمرها ، كانت ابنة النبيل ، وعلى مائدة الغداء الذى تناوله اسماعيل بدعوة من النبيل ، أبدى لمضيفه استحسانه العظيم لقصره ، فشكره النبيل على تطفه .

وهما فى قاعة التدخين فكر الخديو فى أن يساعد النبيل بشكل لا يجرح احساسه أو يشعره بأنه علم بضيقه المادى ، فسأله عما اذا كان يريد أن يبيع قصره ، وكان الرجل على شدة احتياجه الى نقود ، لا يرى فى استطاعته التنازل عن ملكية ذلك البناء الفخم ، ولكنه شأن كل نبيل جليل استنكر مقابلة لطف الخديو بخشونة الرفض ، فعن له أن يببالغ فى الثمن ليحمله على العدول عن رغبته فى الشراء ، فقال :

- انى قد أبيعها يا صاحب الجلالة مقابل خمسة ملايين من الفرنكات .

ولم يكن القصر يساوى أكثر من مليون ونصف مليون فرنك فقط . لكن أفندينا كان سفيا وكان ببقشش من جيب غيره ، فالتقط الكلمة وهى طائفة ، وقال :

- انى اشتريت منك بهذا المبلغ .

وفى الحال أخرج أفندينا دفتر شيكاته وكتب تحويلا بالمبلغ على أحد بنوك باريس ، ونظر الى الغادة العذراء ، وقال بابتسامة مصرية أسرة يخاطب النبيل :

- على انى أظنك يا سيادة النبيل لا تمنع فى أن تحرر عقد البيع لابنتك اللطيفة هذه تخليدا لذكرى استحسان خديو مصر لظرفها وأدبها ، ولكيلا يقال انى زرتك لأجرك من ملكك .

وقام أفندينا مودعا بما يليق بكرمه . . أما أهل مصر فكانوا يعيشون فى مجاعة ضارية وكان الطاعون البقرى قد قضى على مواشى الفلاحين ، وكان قانون جديد قد صدر بنزع ملايين الملايين الصدئة من جيوب الفلاحين .

أفراح الأنجال

فى منطقة « جاردن سيتى » بالقاهرة شارع يحمل اسم : أفراح الأنجال .

واللافتة التى تحمل هذا الاسم ، وضعت تذكارا لمهرجان من أغرب المهرجانات التى شهدتها مصر خلال حكم الخديو اسماعيل .

حدث هذا منذ مائة عام تقريبا وكان قد مضى على تولى الخديو اسماعيل للأريكة الخديوية حوالى عشر سنوات . . عندما قرر ولى النعم أن يحتفل فى ليلة واحدة بزواج ابنائه الأربعة آخرين من أقاربهم .

فى يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ بدأ مهرجان أفراح الأنجال : زف الأمير محمد توفيق ولى العهد (الخديو فيما بعد) الى الأميرة أمينة الهامى (أم الحسين) حفيدة عباس الأول ، وتزوج الأمير حسين (السلطان حسين كامل فيما بعد) من الأميرة عين الحياة هانم ، وفى نفس الليلة تم زواج الأمير حسن من الأميرة خديجة هانم ، وزفت الأميرة فاطمة ابنة الخديو اسماعيل الى الأمير طوسون .

واستمرت تلك الأفراح أربعين ليلة كاملة ، أضيئت خلالها القاهرة كلها
بـ « وقدة » استمرت طوال الليالي الأربعين ، وأقيمت الأفراح فى سراى المقبة
وقصر النزهة ، وفى قصرى الجيزة والجيزة ٠٠ ومدت الموائد فى كل تلك
القبور ، واستمر المطربون فى الغناء ، وأحيا الحفلات أشهر مطربى العصر ،
فغنى عبده الحامولى وعثمان المنيلوى ، ورقصت أم الشعور ، أشهر راقصات
العصر ، وسال المال بدون حساب ، وصرفت مئات الألواف من الجنيهات .

أيامها كانت كارثة الديون تطل برأسها ، وكان مرتزقة الأجانب قد
احتلوا مصر سلميا بالفعل ، وكان الحكم الدكتاتورى ينفى كل صاحب رأى أو
عقيدة ، وكانت السلطة تحكم بالسجون وفناجين القهوة المسمومة ، التى كان
الخدوي يسقيها لشركائه فى الطغيان والسرقة اذا ما تمردوا عليه ، وهموا
بإفشاء الأسرار واطهار المسروق ، وكان هناك من يرتفعون الى أعلى مراكز
السلطة بلا سبب ، ويذهبون أيضا بلا سبب ، والمجاعات والأوبئة تجتاح
البلاد ، والفلاحون يعانون من السخرة ويعملون بالكرباج ، والغزاة قد
وضعوا أقدامهم بالفعل على أرض مصر .

المضحك فى هذا كله ٠٠ أن اثنين من عرسان مهرجان « أفراح الأنجال »
خانا مصر ، كان أولهما هو الخديو توفيق الذى سلم مصر للغزاة البريطانيين
فى عام ١٨٨٢ ، وانضم اليهم وأصدر منشوره الشهير ، أمرا قائد الجيش
احمد عرابى أن يكف عن المقاومة ، وأن يلقى بسيفه ، ويسكت مدافعه ،
ويحتضن جنود بريطانيا العظمى الذين وصفهم توفيق بأنهم أصدقاء لجناحه
الخدوي ، والثانى هو السلطان حسين كامل الذى قبل أن يحكم مصر بعد
اعلان الحماية البريطانية عليها فى عام ١٩١٤ ، فوافق بذلك على شرعية
التبعية المصرية لبريطانيا .

وهكذا تنوج الأنجال بأموال الشعب المصرى وحرية ٠٠ ثم باعوا
استقلاله ، وتركوا لافنة أفراح الأنجال تؤكد أن شر البلية ما يضحك .

البطيرك والمبشر

عرف الأقباط المصريون ، من تجريتهم مع الدولة البيزنطية ، أن استقلال
كنيستهم واستقلال وطنهم ، هو الضمان الأساسى لتمتعهم بحرية العبادة ٠٠
فعلى الرغم من أن البيزنطيين كانوا مسيحيين ، فقد لاقى أقباط مصر على
أيديهم العذاب والاضطهاد لأنهم كانوا مستعمرين أولا وقبل كل شيء .

والى الآن يذكر الأقباط فى صلاتهم الدورية ، سير الشهداء الذين سالت
دماؤهم على يد سلطة تزعم لنفسها الايمان بالمسيحية ، ومع ذلك كان عدد
الذين قتلهم من المسيحيين المصريين يفوق بما لا يقاس من لقوا حتفهم منهم
على يد الأباطرة الوثنيين .

ولهذا كله ، رفض أقباط مصر دعوة زعماء الحرب الصليبية للاشتراك
فيها ، أو تقديم أى مساعدة لهم فى الاستيلاء على مصر ، وهو ما كان أحد
الأسباب لفشل حملات الصليبيين لغزو مصر ، وغاز ذلك المستعمرين
الأوربيين الذين جاءوا وهم يرفعون رايات الصليب ، فأصدروا قانونا يمنع
أقباط مصر من زيارة بيت المقدس - عندما احتلواها - بدعوى أنهم ملحدون .

وعندما دخل الصليبيون نسياب ، أساءوا الى الأقباط وطردوا المطران
المصرى لكنيستها وعينوا آخر من قبل كنيسة روما ، كما أنهم قتلوا كثيرين
منهم .

وفى سنة ١٢٠٤ م وفى أيام الملك العادل ، عبر « الافرنج » حدود مصر
من جهة رشيد وتقدموا الى « قوة » وتحصنوا فيها ، وكان فيها أقباط كثيرون
ولها أسقف مخصوص ، فقتلوا كثيرين وطردوا غيرهم ، وعندما انهزم
الصليبيون ، ابتهج الأقباط ، ولما رأى الملك الكامل منهم ذلك ركن اليهم
وقربهم ورفع مقامهم .

وقاومت الكنيسة المصرية دائما المبشرين الغربيين ، وخشيت منهم على
رعاياها ، وكان البابا « كيولس الخامس » شديد الضيق بنشاط البعثة
التبشيرية الامريكية ، واعتبرها تعمل فى خدمة بلادها وكنيستها ولا تعمل
فى سبيل المسيح .

وفى حوار بينه وبين المبشر الأمريكى « يوحنا هوج » حضره
القنصل الأمريكى ، حاول المبشر أن يثنى البابا عن مقاطعة الارساليات
التبشيرية ، وقال له :-

- ان المبشرين الأمريكان لا يعلمون الناس الا الانجيل الطاهر ، وكنا
لذلك ننتظر أن تشكرهم غبطتك . . وأن تفسح لهم مجالاً لتعليم الأنجيل . .

وثار كيولس الخامس ثورة عنيفة ، وقال له :

- الانجيل الطاهر . . ؟ وهل الامريكان وحدهم الذين عندهم الانجيل ؟
لماذا لا يعلمونه للزوج فى بلادهم اذا كان عندهم ؟

ولم يجح المبشر الأمريكى جواباً . .

يد الله على قلب الملك

كان السلطان « عبد العزيز » هو الخليفة العثماني الوحيد الذي جاء مصر زائراً ، بعد السلطان سليم الذي دخلها فاتحاً ، حدث هذا في عام ١٨٦٣ ، عندما دعاه الخديو اسماعيل لزيارته ، وكان هدفة من ذلك الحصول على فرمان سلطاني بتغيير وراثة العرش لتكون في ذريته .

وبوصول السلطان ، أخذ بعض رجال حاشيته يلقنون كبار المسؤولين تقاليد المثل في حضرته ، وشق على كثيرين أن ينحنوا ويقبلوا الأرض بين يدي السلطان ، وعارض رجال الدين في ذلك . . . ولما أصر رجال الحاشية على أن تلك هي تقاليد البروتوكول العثماني تظاهر رجال الدين بالقبول . . . وأخذوا يشاهدون ما يعرضه عليهم رجال البروتوكول العثماني من حركات ينبغي عليهم القيام بها حين يمثلون بين يدي السلطان .

وكان الشيخ « حسن العدوي » أحد علماء الأزهر الشجعان ، وكان من رأيه أنه لا يجوز السجود لغير الله ، فلما مثل مع زملائه بين يدي السلطان ، رفع يده بالتحية الى رأسه قائلاً :

— السلام عليكم ورحمة الله يا أمير المؤمنين .

وذهل السلطان لحظة ، وارتبك خبراء البروتوكول ، ثم أنقذ السلطان الموقف بأن رد على التحية بأحسن منها .

وعندما جاء دور « الانبا ديمتريوس » بطريرك الأقباط ، تقدم الى حيث يقف السلطان وقبل صدره من الجانب الأيسر في موضع القلب ، وجفل السلطان لهذه التحية غير المألوفة ، ونظر اليه بدهشة ، فقال البطريرك :

— يا صاحب العظمة ، جاء في الكتاب المقدس « ان يد الله على قلب الملك » وقد أردت أن أقبل يد الله .

وبعكس ما ظن رجال البروتوكول فقد أعجب السلطان بشجاعة الشيخ العدوي ، والانبيا ديمتريوس ، وظل يروى موقفهما بتقدير واحترام .

الشاعر والأمير

كتب يعقوب صنوع مرة يصف نفسه فقال :

– حين بلغت الثانية عشرة من عمرى كنت أقرأ التوراة بالعبرية والانجيل بالانجليزية ، والقرآن بالعربية ، وأفهمها تماما .

وبهذا لخص الصحفى المصرى المشاغب حياة عريضة بدأت فى حوارى القاهرة عام ١٨٣٩ وانتهت بعد رحلة شاقة وعريضة فى باريس سنة ١٩١٢ .

كان منذ طفولته مشاغبا شديد الاعتداد بذاته ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره كتب قصيدة مدح بها ناظر مدرسته ، ولما قرأها على أبيه اقترح الأب عليه أن ينظم قصيدة فى مدح الأمير أحمد حفيد محمد على ، فكتب قصيدة طويلة قدمها والده للأمير الذى لم يصدق أن صبيا فى سن الثالثة عشرة يستطيع أن يكتب هذه الأشعار .

وطلب الأمير أن يرى هذا الطفل ذا الذكاء الخارق ، وذهب الصبى ليلقى الأمير ، وكان الأب قد أوصاه بما يفعل .

فى مذكراته يروى ما حدث فى المقابلة فيقول : « كانت قاعة الاستقبال غاصة بالزائرين عندما دخلت وقدمنى والدى الى الأمير وهو يقول :

– هذا هو الشاعر الصغير الذى يطلب شرف لثم يديكم .

أما أنا فقد حييته بتلك العبارة البسيطة :

– السلام عليكم ورحمة الله .

فنهرنى أبى بعنف ، وقال لى بصوت خفيض :

– قبل يده أيها التمس .

فأجبتة : لا . . . لن أقبلها . . .

فما كان من والدى الا أن هددنى ولكننى تماديت فى الرفض .

ويذكر الصبى الصغير أن الأمير لاحظ هذا اللغظ الذى شغل الابن وأباه ، فاستوضح الوالد أسبابه ، غير أن يعقوب سبق أباه الى جواب حازم فى كبرياء ملحوظ ، وتوجه الى الأمير قائلا :

– لا أدرى لماذا يريد والدى منى أن أقبل يديكم الملكية . . . هل أنت امام أو قسيس أو حاخام . . . اننى انسان مثلك بل أنا أعرف قرض الشعر ، وأنت لا تعرفه .

وعلى عكس ما تصور الأب ، الذى نزلت عليه كلمات ابنه كالصاعقة ، لم يغضب الأمير من كلمات الصبى الواثق من نفسه ، بل سر سرورا عظيما ، وأمر بإرسال الطفل المشاغب الى أوروبا لتلقى العلم على حسابيه .

فيما بعد تصدى يعقوب صنوع بالعداء لواحد من أقرب أقرباء الأمير ،
هو الخديو اسماعيل ، ونفى يعقوب الى باريس فأصدر عشرات من الصحف
يهاجم بها الخديو ، وكان يسميه الفرعون . .

ولم يرحمه حتى وهو في أخريات أيامه عندما عين شريف باشا رئيسا
للنظارة متصورا أن هذا الديمقراطي الرشيد سينقذ الوضع المتردى في مصر
وقتها . .

وهكذا عاش يعقوب طفلا متطاولا بالحق ، وصحفيا مشاغبا بالثورة .

احمد أفندى يفصل من الوظيفة

عندما ذهب الزعيم « احمد عرابي » وزميليه « عبد العال حلمي »
و « علي فهمي » الى ديوان وزارة الداخلية ليقدموا لرياض باشا - رئيس
الوزراء - عريضتهم الشهيرة التي طلبوا فيها عزل وزير الحربية الشركسي
عثمان رفقي ، تأمل رئيس الوزراء في العريضة ثم قال :

- ان أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطرا من عريضة « احمد
أفندى فنى » .

وعريضة « أحمد أفندى فنى » واحدة من مصطلحات العصر ، نهدت
مثلا لمن يتدخل في شئون الحكم الديكتاتوري فينال جزاءه الرادع . وكان
« أحمد أفندى » رئيسا للمترجمين بوزارة المالية ، على صلة طيبة بجميع
القيادات الثائرة في الجيش ، وكان الضباط يجتمعون في منزله ، يتذاكرون
ما آلت اليه حال البلاد ويذكرون - على حد تعبير مؤرخ معاصر - ما هم فيه
من الشدة والفاقة ، ويرددون حديث ما يعانيه أهل البلاد من جفاء رياض باشا
واستصغاره بأمور الرعية .

وكان لأحمد أفندى مشكلة مالية تتعلق بمساواته بزملائه من موظفي
وزارة المالية ، فكتب للوزير عريضة يطالب فيها بمرتباته المتأخرة وعلاواته
الضائعة ، وغير ذلك مما يكتبه عادة موظف مظلوم ومنسى ، وما أن وصلت
عريضته الى المسؤولين حتى فكر رياض باشا في وسيلة يهدد بها الثائرين
ويفرق صفوفهم ، وهكذا كبس البوليس ذات ليلة على منزل أحمد أفندى

وقبض عليه ، وعلى من معه ، فاحتجزهم أياما ، وقدم أحمد أفندى للمحاكمة ،
وقضلت الحكومة ألا تحاكمه بتهمة الثورة على الأوضاع لكي لا تفضح
ما ينبغي أن يظل مستورا ، ولهذا حاكمته بتهمة أنه كتب عريضة تتسم بقلّة
الأدب ولأنه تجاوز الاحترام الواجب للمقامات فيما كتبه لوزيره بشأن العلوات
الضائعة ، وعوقب على ذلك بنفيه الى السودان حيث مات هناك .

وهكذا كانت اشارة رياض باشا لعريضة « أحمد فنى » اشارة ذكية .
لكن الزمن كان قد تغير . . . وهكذا رد عليه « عرابى » ردا لم يكن يتوقعه ،
قال :

— اننا لا نطلب الا حقا وعدلا ، وليس فى طلب الحق من خطر . . . فما
هذا التعريض والتخريف !؟

وأمام هذا الرد المفحم لجأ رياض الى الملاينة فقال :

— أنتم تطلبون مجلس النواب . . . وليس فى مصر من هو أهل لأن يكون
عضوا فى مجلس النواب .

وجاء رد عرابى هادئا وقاسيا :

— أنت مصرى . . . وياقى للنظار مصريون والخديو أيضا مصرى . . .
أتظن أن مصر ولدتكم وعقمت !؟

وبينما الحديث يجرى . . . كان « أحمد أفندى فنى » الذى فصل من
خدمة الحكومة ، وحكم عليه بالسجن اربعة أعوام نفيا الى السودان ، يعانى
سكرات الموت . . . لكن مصر كلها كانت تنتشى بالحياة .

الصحافة والثورة

كان « ابراهيم اللقانى » صحفيا وخطيبا وثائرا ، وواحدا من الذين
وهبوا مصر الثورة كل جهدهم ، وساهموا بنضالهم فى تمهيد الأرض لأعظم
أحداث مصر فى القرن الماضى وأكثرها أصالة : الثورة العرابية . فعندما
حط « جمال الدين الأفغانى » رحاله فى مصر أنشأ جامعة شعبية ، وفى هذه

الجامعة تخرج كثيرون ، قدر لهم ، فيما بعد ، أن يلعبوا أدوارا بارزة في حياة مصر ، وكان منهم : عبد الله القديم ، ومحمد عبده ، واليارودي ، وعرابي .
وكان منهم أيضا ابراهيم اللقاني .

في باكورة حياته اختار مهنة كان يعلم أنها التي ستمكنه أن يؤثر في الناس ، وينقل اليهم أفكاره ، ويعلمهم ويتعلم منهم ، وهكذا اختار الصحافة . وكان الأفغانى فى أواخر عهد اسماعيل ، قد أوصى تلاميذه باصدار الصحف لتكون منابر للدعوة للثورة ، وهكذا بدأت الصحف تنرى ، فصدرت « مرآة الشرق » التى أصدرها سليم عنجورى ، ثم تنحى عنها فى ابريل سنة ١٨٧٩ ليتولاها « ابراهيم أفندى اللقانى » بايعاز من السيد « جمال الدين الأفغانى » وكان « اللقانى » قبلها يكتب فى جريدتى « مصر » و « التجارة » .

على صفحات تلك الصحف كان « ابراهيم اللقانى » يكتب عن الدستور ، وعن الحرية ، وعن ميزانية مصر التى تحولت الى ميزانية تسديد ديون ، ويفضح المستثمرين الأجانب من حثالات الرأسمالية الأوربية ، الذين حطوا بكلهم على مصر ، يزعمون أنهم يصنعون رخاءها ، بينما المجاعات تمرح فى أركان الوادى الخصيب ، وينتشر الطاعون فى الصعيد ، وتموت الأبقار ويموت الناس ، وأصحاب الأسهم من الأوربيين قد صدروا أموالهم وبدأوا بعدها يدخلون ، كما يقول المثل الشعبى « بحمارهم » ، فيطالبون بتعيين وزراء يمثلونهم فى السلطة ، وبدور لهم فى اصدار التشريعات والقوانين ، ويصدرون صحفا تعبر عن مصالحهم .

فى وسط هذا الجو كان « اللقانى » ومجموعة من الصحفيين المعادين للاستعمار ، والحرصين على استقلال مصر ، يدافعون بشراسة ، ويكشفون الأكدوية التى تروجها الصحف الناطقة بلسان الاحتكارات الأجنبية ، وتطلق صحف كثيرة عمل فيها « اللقانى » فيدخل بقلمه الى صحف أخرى ، ويكتب كثيرا ، ويحلم بيوم يتفجر فيه الغضب المصرى على كل هذه المهانات .

وتنطلق شرارة الثورة من الجيش ، ويلقى « اللقانى » بثقله كله وراءها ، ويصبح نجما بارزا من نجوم محافلها ، ويتزايد دوره بعد أن ينتصر الثوار فى ٩ سبتمبر ١٨٨٣ ، ثم بعد أن ينجحوا فى ازاحة « شريف باشا » الذى كان يحاول « فرملة » الثورة ، وتحديد اطارها فى بعض الاصلاحات الجزئية ، واصدار دستور شكلى لا يجعل للمصريين دورا فى تقرير مالبة بلادهم .

وعندما ينجح الثوار ، تقام الاحتفالات فى كل مكان ابتهاجا بوزارة اليارودي ، ويصدر الدستور وتأتى الفرصة « لللقانى » لكى يقول كل ما لديه ، فعندما أقيمت جمعية « المقاصد الخيرية » حفلتها ، وقف خطيبا أمام اليارودي وعرابي وبقية الوزراء ، فتحدث عن الدستور وهاجم الحكم الاستبدادى ،

وطالب المصريين بأن يعضوا بالنواجذ على حريتهم لكي يمنعوا أى انسان من التصرف فى قضية بلادهم وهم صامتون ٠٠ وعقب النديم على خطابه - وكان يفعل ذلك دائما - ففى كل اجتماع عام كان « اللقانى » يقف ليتحدث مشيدا بالحرية ، ثم يقوم النديم ليلق ٠٠ وظل الاثنان لزمان طويل ألمع النجوم فى سماء الصحافة المصرية ، يكتبان ويخطبان ويتصديان لكل محاولات الكذب أو الخديعة ، أو الضحك على الشعب .

وعندما أجهزت الثورة وتسلط الخونة والكلاب ٠٠ كان طبيعيا أن ينفى « اللقانى » ويطرد من مصر الى بيروت ٠٠ لكن خسائر الثورة كانت ما تزال فى أرض مصر !

الصحفى المقاتل

كان « عيد الله النديم » أول محرر عسكري فى تاريخ الصحافة المصرية ، كان صعلوكا مصريا عظيما ، ولد فى أحد مخابز المنشية فى الاسكندرية ، وقضى طفولته فى شوارعها ، ونفذت رائحة حياة الصعاليك الى قلبه ، فهجر الجامع الأنور الذى كان يتعلم فيه بعد سنوات قليلة ، وبدأ سياحته الطويلة فى قلب مصر ، أصبح أحد عمال التلغراف فى السكة الحديد ، وظل يتنقل من محطة الى أخرى حتى استقر فى محطة بنها ، واختلط بسواقط المجتمع ، هؤلاء الذين تتركز فيهم كل تناقضات الحياة ، وكتب يصفهم ، فقال :

- عندى من الأوباش ٠٠ كل سكير وحشاش ٠٠ حزب يلعب الضمنة وفريق يقرأ كلية ودمنة ، وقوم يلعبون النرد ، وشخص يقزح كالقرود .

ومن مخالطة هؤلاء ينتقل الى مكتب تلغراف « القصر العالى » مقر الأميرة خوشيار هانم أم الخديو اسماعيل ، فيرى الوجه الآخر لنفس العملة ، ويدرك أن مصر مليئة بالأوباش والأشرار ، لأن فيها أمثال هذه الهانم خوشيار .

وبعد جولة طويلة فى قلب مصر يجد النديم مكانه الحقيقى ، ويلتحق بركب عرابى وينتمى نهائيا للثورة ، كان أيامها يصدر جريدة اسمها « التنكيث والتبكيث » ملأها بالهجوم الحاد على السيطرة الأجنبية ، وفكرت

فى مهمة كلفه بها السلطان العثمانى استهدف منها أن يجهز الثورة ، وأن يستدرج قيادتها الى الآستانة ، حيث يلحقون بحاشية السلطان فتخلص مصر للمخديو ومن شايغوه • وينتهى كل شىء : دستور الثورة ، وأحلامها بالاستقلال واستخلاص ثروتها من أيدي المغامرين الأجانب ولصوص العرق •

وفى ١٠ يونيو ١٨٨٢ قابل « درويش باشا » كل من « عرابى » و « البارودى » ، ورغم أن عرابى كان يجهل التركية - لهذا قام البارودى بالترجمة - فانه لم يكن يجهل الوطنية ، لهذا استخدم كل ذكائه لكى يجهز محاولة السلطان •• بدأ المشير حديثه منافقا فأكد أنه رجل عسكري كعرابى والبارودى ، وأضاف مخاطبا عرابى :

- أرسلنى مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته العزيزة ، وستسهلون على هذا العمل • أنا أعلم شكواكم وسأحلها • ان الأوربيين يطلبون ابعادك فاستعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى ، حيث أنى مرسل من قبل السلطان ، وكن نائبا عنى • ولتذهب مع اخوانك من كبار الضباط الى الآستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير فى بقائكم معه •

ولو أن الأمر أمر سلطة ومناصب ، لاختار « عرابى » أن يصبح نائبا للمشير ، ولو كان أمر مال فلم يكن هناك أوفر من مال السلطان • لكن عرابى كان يعلم أن ذهابه يعنى أن تنتهى الثورة الى لا شىء ، وأن الأوربيين لا يرفضونه كراهة فى شخصه أو استقلاله لظله • ولكن لأنهم يكرهون ما يمثله من أفكار ومبادئ •• كانوا باختصار يكرهون الاستقلال الذى هو رمزهم •

لكنه لم يرد مع هذا أن يقطع حبال الود مع السلطان • بذكاء قال :

- مشروءكم هذا فى غاية الجمال وأنا مختاره مع الشكر • لست حريصا على السلطة التى لم أعتصبها ، ولكن الأمة فوضتها لى ، فالواجب الا أذهب الا وأنا مطمئن على مطالبها •• أنا مستعد للانسحاب واتبع نصيحتك اذا تعهدت للقناصل بحفظ الأمن فى الديار المصرية وتحملت مسئولية ذلك بطريقة رسمية •

وأردف عرابى موضحا ، فقال :

- ان ممثلى الدول الأوربية فى مصر سيحاولون أن يلصقوا بنا كل شىء ردىء يحدث ويخل بالأمن فى البلاد • ولن يعترفوا لنا بفضل اذا جرت الأمور على خير ما يرام لذلك أطالبك أن تبرئى نعمتنا مما جرى أو سيجرى ، وتتحمل المسئولية أنت فى وثيقة مكتوبة •

أمام التهديد الخفى فى ثنايا الكلمات الذكية التى ساقها عرابى سكت « درويش باشا » ولم يطلب شيئا ، وبالطبع لم يكتب شيئا •

ومع ذلك يقول الجهلة ان عرابى كان رجلا جاهلا !

مولانا أبو العلا

الشيخ « أبو العلا الخلفاوى » واحد من أكثر عباد الله حبا فى الله ، لأنه كان من أكثرهم حبا لوطنه ، ومن أشجعهم دفاعا عنه ، ومن أصلبهم تحملا لنتائج ما اتخذ من مواقف ، وما اعتنق من آراء .

ولد عام ١٨٢٠ بميت خلف بالمنوفية - واليها ينسب - ، ودرس فى الأزهر طالبا ، ودرس فيه أستاذا ، وظل يترقى الى أن أصبح مفتيا لمجلس الأحكام ، وهو من أكبر المناصب القضائية فى زمنه .

وبمجرد قيام الثورة العرابية تشيع لها الشيخ الموقور الذى كان قد جاوز الستين من عمره ، وكان من أبرز المؤيدين لها والمدافعين عنها . وعندما تأزم الموقف بين الثوار و « الخديو توفيق » بسبب قبول الأخير للانذار النهائى ، الذى قدمته إنجلترا وفرنسا وطلبنا فيه نفى عرابى وزملائه ، كان الشيخ الخلفاوى من أعلى الأصوات التى اعترضت على موقف الخديو وواجهته بشجاعة .

وفى ٢٧ مايو ١٨٨٢ ، عقد الخديو فى سراى الاسماعيلية اجتماعا حضره كبار ضباط الجيش والعلماء والسياسيون السابقون ، ليشرح لهم مبررات قبوله الانذار وليحصل على تأييدهم للانذار . وبعد أن شرح الموقف قال :

- ان الظروف اقتضت استقالة الوزارة وقبول انذار الدولتين ، وقد حفظت لنفسى رئاسة الجهادية وادارة المصالح لحين تشكيل وزارة جديدة .

واحتج الحاضرون على تصرف الخديو ، وأعلن « اللواء طلحة عصمت » أن الجهادية ترفض أى رئيس خلاف « احمد عرابى » ، وتكلم المشايخ : « عليش » و « الخلفاوى » فاقترحا رفض طلبات الدولتين وخروج الأساطيل الحربية الأجنبية من المياه المصرية . وطالبا بالمقاومة ، وفسر أحدهما قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) . ولما أتم كلامه انسحب « طلحة عصمت » احتجاجا على ما قاله الخديو . وانسحب معه الحاضرون من ضباط ومشايخ .

فى ساحة القصر هتف « الشيخ الخلفاوى » بحياة « عرابى » ، وردد كل من كان معه فى الاجتماع الهتاف ، ووصلت أصواتهم الى الخديو ، فكانت تحديا صريحا لموقفه ورفضاً علنيا له ، وأصبح « الشيخ الخلفاوى » بعد ذلك نجم كل مواكب الثورة ، فكان أحد الذين وقعوا الفتوى الشرعية بخلع الخديو ، وكان عضوا بالجمعية العمومية التى انعقدت فى ٢٣ يوليو ١٨٨٢ وخلعت « الخديو توفيق » وأصدرت لعرابى أمرا بالاستمرار فى القتال حتى هزيمة العدو ، واجلائه عن أرض الوطن .

ويعد أن هزمت الثورة بالخيانة ، قدم « الشيخ الخلفاوى » للمحاكمة ،
وصدر الحكم بنفيه الى قريته ، وكان قد طعن فى السن وأصيب بالشلل ،
فأرسل للخديو توفيق رسالة قال فيها :

— ان الأرض سوف تحملنا بغير ارادتك ، وان السماء سوف تظللنا
بغير رعايتك ، وسأتعلق بأذيالك يوم القيامة وأقول : يا رب هذا ظلمنى
فاقتص لي منه .

فى منفاه كتب كتابا ما زال مخطوطا الى الآن اسمه « نفع الخلائق على
رمز الحقائق » .

الادميرال سيمور « وش القملة »

وصل الادميرال « بوشان سيمور » بأسطوله الى ميناء الاسكندرية فى
مايو ١٨٨٢ ، وهو فى قمة عنجهيته الاستعمارية ، مليئا بالصلف والكبرياء ،
يتعامل مع كل الناس باعتبارهم أشياء . ولم لا ؟ اليس قائد أسطول أكبر
قوة بحرية فى العالم ؟

ولسبب ما فان المصريين لم يستظرفوا الادميرال ، ولم يهتزوا من
صلفه ، وسخروا من وقاحته ، واستسخفوا الطلب الذى جاء لينفذه : نفى
زعيمهم « عرابى » خارج البلاد ، وتغريب زميليه فى قيادة الثورة — عبد العال
حلمى وعلى فهيمى — الى ريف مصر . ولأن الشعب المصرى خفيف الظل يكره
الابتذال ، فان تصرفات « سيمور » الطفولية التى لا تناسب مقامه الادميرالى ،
استفزته . فمئذ أوائل يوليو ١٨٨٢ ، أخذ الادميرال يكتاب « طلبية باشا
عصمت » قومندان الاسكندرية ، طالبا منه عدم تحصين طوابى الاسكندرية
لأن هذا يمثل فى رأى الادميرال المغرور اهانة للأسطول الانجليزى ، وهدد
بأنه لن يسكت عن هذه الاهانة ، ما لم يسحب القومندان المدافع من الطوابى ،
ويتركها مهددة كما هي .

وضرب المصريون كفا على كف ، وهم يرون ادميرالا طويلا عريضا
يقدم طلبا — بايضا — كهذا منتظرا من العساكر المصرية أن تتسحب من الطوابى
المصرية معتبرا وجودها فى طوابيها لا محاصرتها لها هو العمل الاستفزازى ،
وعلى الفور أطلق عليه المصريون اللقب الذى يتناسب مع طلباته المغريبة

فسموه « سيمور وش القملة » وسارت مظاهراتهم فى الشوارع تهتف سائلة
اياه :

– مين قال لك تعمل دى العملة ؟

وازدادت وقاحة الاميرال فضرب طواىى الاسكندرية بمدافع اسطوله ،
فأصبح بذلك عدوا للشعب المصرى الذى هدته غريزته التقليدية الى أسلوب
يحتفظ بواسطته بمعنوياته عالية ، هو السخرية من عنجهية المستعمرين
وسفالتهم . . وانتشرت فى هذه المرحلة ظاهرة غريبة ، فقد سار عوام القاهرة
يوما وبينهم حمار ، وعلى ظهره كلب أسود ، وعلى رأس الكلب قبة بالية ،
والكلب فى غاية الخمول والكسل كأنه أطمع شيئا من المخدرات ، ولسانه قد
تدلى من شدة الظم والتعب ، وهم يرفونه منشدين نشيد الاميرال :

– يا سيمور يا وش القملة . . مين قال لك تعمل دى العملة ؟

واستمرت المظاهرة حتى الأصيل ، وتوقفت أمام سراى الخديو فى
عابدين ، وكان قد هجرها وعاش فى حماية الاسطول فى الاسكندرية ، وأمام
الباب ذبح المتظاهرون الكلب سيمور .

واستمرت المظاهرات تتكرر يوميا ، وخافت الكلاب ، وهجرت شوارع
القاهرة ولجأت الى مواقع الحمامات ، وخرائب المدينة ، فاذا ظهر واحد
منها ، نادى عليه الصبيان باسم سيمور ، ذعر واختفى عن الأبصار فرارا
من الموت .

الطريف فى الأمر أن « سيمور » توفى عام ١٩٢٩ وكانت الدنيا قد
تغيرت ، فى مصر وفى انجلترا ، لكن الوجدان المصرى لم يكن قد نسى ،
وهكذا خرجت مجلة « الكشكول » وعلى صفحاتها الثالثة خبرا عنوانه :
« الاميرال سيمور وش القملة » .

البرائة الحقيقون

عندما سقطت الاسكندرية فى أيدي الغزاة البريطانيين فى يوليو ١٨٨٢ ،
كشفت الحضارة الأوربية عن وجهها الحقيقى ، وأثبت حزب « الأحرار »

البريطاني أنه لا يختلف عن « المحافظين » في شيء . وكان ما جرى في مصر هو بداية النهاية التي قضت على مستقبل رئيسه « جلاستون » وانتقلت به من حزب في الصف الأول الى حلقة ضيقة محدودة العدد وضعيفة التأثير .

كان « جلاستون » يتغنى بأنه ليس استعماريا ، يبرر عدوانه على مصر بأنه جاء لينقذها من العربيين ، الذين وصفهم بأنهم مجموعة من البرابرة المتعصبين المعادين للحضارة الاوربية ، والساعين الى عودة مصر الى القرون الوسطى .

وبسقوط الاسكندرية كشف الغزاة عن جوهرهم الحقيقي ، وأكدت حضارتهم أنها حضارة متوحشة وثبت للعالم كله من هم البرابرة الحقيقيون . وفي الوقت الذي كان فيه « الخديو توفيق » والمتعاونين معه من الخونة المصريين ، يتكاتفون لاتهام « عرابي » وجيشه بارتكاب الفظائع . . كانت الحقيقة تتكشف على الجانب الآخر ، بأقصى وأفظع أشكالها .

لقد أجبر جنود الانجليز أهالي الاسكندرية على الرحيل منها . فخرجوا مهاجرين في صفوف طويلة يطاردهم الرصاص وهم عزل من السلاح ، ونتيجة للارتباك الذي حدث بعد سقوط المدينة ، نفذ ما كان بها من غذاء ، وجاع الذين فضلوا البقاء في مدينتهم عن الرحيل عنها ، بينما كان الخديو يقيم في قصر رأس التين تحت حماية الغزاة ، يأكل حتى التخمته ثمنا لخيانته . . وظل الناس جوعى ثلاثة أيام ، خرج فيها صغار الناس على اختلافهم الى رحبة سراي رأس التين وهم يضجون ويعجون ، وكادوا يقتحمون السراي . . فخشى الخديو عاقبة ذلك وأمر بتوزيع بعض الطعام عليهم .

وأصدرت قوات الاحتلال قرارا بحظر التجول في المدينة خوفا من التحركات الشعبية ضدها ، وسمحوا فقط لبعض عملائهم بالخروج ليلا لبعض شئونهم وأمدوهم بكلمة سر الليل . أما الآخرون فكانت النار تطلق فورا على كل من يظهر منهم في الطريق أيما كان السبب الذي خرج من أجله .

ولأن كلمات السر كانت باللغة الانجليزية ، فان بعض المواطنين الذين كانت ظروف عملهم تضطرهم للخروج ليلا كانوا لا يحسنون نطق الكلمات الانجليزية مثل : « فرند » أو « هالت » فيكون الرصاص نصيبهم .

كان في مصر برابرة ، لكنهم لم يكونوا هم المصريين على كل حال !!

الأحرار والمحافظون

لم يأت الغزاة يوماً الى مصر ، الا وأثارت خططهم غضب العناصر الشريفة في بلادهم ، تلك التي كان يؤلها أن يذبح أبناءهم في حروب ضد شعوب لم تسيء اليهم ، وأن تتحمل تبعات حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل !

بعدما دبرت حكومة انجلترا لغزو مصر في عام ١٨٨٢ ، أثارت غضب كثيرين من أبناء الشعب الانجليزي ، وسارت المظاهرات في شوارع لندن تهتف بسقوط الغزاة ، وكان معظم الفقراء من أبناء الشعب الانجليزي يدركون أن العدوان قد تم لحساب المصارف المالية ، خدمة لحاملي سندات المدين ، ويدهشون لأن ذلك حدث في حكم حزب « الأحرار » الذي طالما ندد بسياسة الفتح التي اتبعتها خصومهم السياسيين من المحافظين .

وبمجرد أن انطلقت أول قذيفة من مدافع الأسطول البريطاني على طوابق الاسكندرية ، استقال « جون برايت » من الوزارة احتجاجاً ، وبعد الاحتلال بقليل ، تزايد سخط الأحرار الانجليز لسلوك الحكومة البريطانية لأنها عينت ضابطاً سييء السمعة هو « فالنتين بيكر » في منصب قائد الجيش المصري ، ومنحه الخديو لقب فريق ، وأطلق يده في تطهير الجيش المصري .

وأرسل « برايت » رسالة الى « تشمبرلين » - وكان زميله في الوزارة التي رأسها جلاستون - فذكره بأن حزب الأحرار يرتكب نفس جرائم المحافظين ، وقال له :

- لقد ضاعفتم من ديوننا وأضعفتم ثروة شعبنا ودمائنا ، لأنكم اتبعتم سياسة غير لائقة وعقيدة بغیضة ، ذلك أن ما حدث في مصر خطأ محزن .

ويعترف « تشمبرلين » في مذكراته بأن « برايت » كان يستطيع لو أراد أن يقضى على الحكومة ، اذا تزعم حركة ضدها ، لأن الشعور البريطاني العام كان قلقاً وأقرب للمعارضة ، وكان ينظر لانتصار التل الكبير كانتصار تافه ، لأنه تم بالخديعة . . فضلاً عن عدم التناسب بين الجيشيين .

والغريب أن برايت لم يفعل . . لكن جريمة غزو مصر كانت بداية النهاية لحزب الأحرار كله !

شماتة الخونة

عندما هزم « عرابي » في معركة « التل الكبير » ، شمت الكلاب والمتملقون والخدوعون وضعاف النفوس وأقاموا الأفراح والليالي الملاح

احتفالا بغزو مصر وفرحا بقتل أخلص أبنائها ونفى وتشريد الذين دافعوا عن كرامتها ووضعوا رؤوسهم على أكفهم لكي لا يذل أحد من أبنائها .

أيامها كان الخديو توفيق في « الاسكندرية » يعيش في حماية جيش الاحتلال ، ولما وصله النبأ ، وفد عليه الذوات والأجانب يهنئون بالفوز والنصر ، وصدحت الموسيقى بالأنغام ، ورفعت العساكر الانجليزية السلاح تعظيما واجلالا . . . وهتف الاوربيون :

– فليحيا توفيق الأول . . . ولتحيا ملكة الانجليز . . . وليحيا الجنرال ولسلى .

وقى كل مكان يضم خونة وعملاء وجبناء ، انطلقت زغاريد الفرح ، ولم يفكر أحدهم لحظة في أنه يشمت بمصر كلها حين يشمت في « عرابي » ، وفرحت دوائر رجال المال في كل أنحاء أوربا ، وارتفعت قيمة الأسهم في كل بورصاتها . لقد هزم الرجل الذي هدد أثناء الغزو بالغناء ديون مصر على أوربا لأنها كانت غشا وتديسا ونصبا دوليا ، والذي أعلن أنه سيصادر أراضي الخونة والهاربين ويوزعها على الذين يحاربون . وكتب « عرابي » في مذكراته عن معركة « التل الكبير » فنقل شهادة الجنرال بتلر أحد قواد الحملة الانجليزية فقال أن الهجوم كان بغتة فتشتت الجيش المصري ، ومع ذلك فقد كان لا يجتمع ١٠ أو ٢٠ أو ٥٠ من جنود الجيش ، الا وثبتوا في شجاعة ، وعلق عليها قائلا : فعلى العشرة آلاف الذين قتلوا من جنودنا في المعركة السلام .

– ولا ينبغي لجندى مصرى أن ينبس بكلمة ضدهم فيكفيهم ما يقوله فيهم المليون والمرابون وعبيد الاستعباد .

في سجنه كان « عرابي » يتابع الشامتين ، الذين ملكوا تذالة الهجوم على سجين أعزل لا يملك حق الدفاع عن نفسه ولا تفسير مواقفه التي شوهوها عامدين ، ويعجب لأن مصر بكل نبلها وجلالها ، تسمح بأن تعيش فيها حشرات من هذا النوع وخبائث بكل هذه العفونة ، في الوقت الذي سجن فيه وشرد ونفى كل الذين قالوا فيه كلمة حق . . . وأصبحوا عاجزين عن الدفاع عنه .

ووصل الصغار الى الحد الذي جعل والدة « الخديو توفيق » تتوجه بعريتها الى ثكنات قصر النيل ، لتشاهد موكب الباشاوات – زعماء الثورة – وهم يجردون من رتبهم ويسمعون أمر النفى فيبتل بذلك قلبها العفن الحقود .

يقول عرابي في مذكراته : ان الضباط المصريين الذين حضروا حفلة التجريد كانوا يذرفون الدمع من مآقيهم حزنا « على ما آل اليه أمرنا . . . وأمر بلادنا . . . أما الأهالي فكانوا في الطريق يبكون وينتحبون » .

وقاحة الخونة

فى عام ١٩٢٢ مات المحامى الانجليزى الشهير «برودلى» وبيعت مخططاته بالمزاد العلنى ، واشترى طالب مصرى كان يقيم فى لندن جزءا من هذه المخططات : كانت أوراقا بخط الزعيم أحمد عرابى ، ظلت على امتداد أربعين عاما فى حوزة محاميه برودلى .

وبرودلى واحد من أشهر الشخصيات البريطانية التى ارتبط اسمها بتاريخ مصر ، بدأ حياته محاميا فى لندن ، ثم ضاق بمادية الحياة اللندنية ، فهاجر الى الشرق وأقام فى تونس ، ومارس المحاماة هناك أمام المحاكم القنصلية والمختلطة .

وتابع «برودلى» وهو فى تونس حوادث الثورة العرابية المجيدة ورأى أهل «تونس» جميعا يملأون المساجد بالصلاة من أجل «عرابى» ويدعون الله أن ينقذ الشرق على يديه ، وسقطت الثورة بنفس الأساليب الاستعمارية المنحطة ، وقرأ فى الصحف الأوربية تحريضا ضريحا على اعدام «عرابى» ، وبمجرد أن جاءت رسالة من المستشار البريطانى «الفرد بلنت» يكلفه فيها بالدفاع عن «عرابى» شد رحاله الى مصر .

وظل «برودلى» يناور ويداور فى ظروف صعبة لكى يضمّن لعرابى محاكمة علنية عادلة ، وكانت الوزارة الانجليزية تأخذ موقفا مائعا وتتنوى ترك «عرابى» والثوار للخديو لكى يشنقهم ، بينما أدرك «برودلى» ومساعديه أن الحصول على شهود لصالح «عرابى» فى هذا الجو الارهابى مسألة مستحيلة ، وطالب أكثر من مرة بتأمين الشهود على حياتهم ، فلم يلق استجابة ، وفقط عندما تمكن بارشباد «عرابى» ومعاونة خادمه محمد أحمد وزوجة عرابى من العثور على أوراق كان «عرابى» يحفظها فى خزانة سرية بمنزله ، تحسن موقفه ، كانت الأوراق تضم رسائل سرية من السلطان العثمانى ، وكان بعضها يدين الخديو توفيق أدانة صريحة لا لبس فيها .

وبذكاء قدر «برودلى» موقفه ، فقرر استغلال الأوراق التى عثر عليها فى تهديد الخديو ومساومته لانقاذ رأس «عرابى» ، وفى نفس الوقت انتزعت الحكومة الانجليزية من ظهور هذه الأوراق ، لأنها ستكشف أن الخديو الذى زعمت أمام العالم أنها جاءت لانقاذه من بريية «عرابى» ، ليس الا انسانا بلا ضمير ، ولا شرف .

وقبل الخديو أخيرا أن يتنازل عن مطلب اعدام «عرابى» وزملائه ، مقابل محاكمة صورية يعترف فيها «عرابى» بالعصيان .

ونجح « برودلى » فى مهمته النبيلة ، وترك كتابا عظيما هو « كيف
دافعنا عن عرابى » ، يشكل ردا مفحما على الخونة الذين ارادوا تغطية
قذارتهم ، فاتهموا « عرابى » بالخيانة لأن الانجليز ضغطوا على الخديو
فالغوا شفقته .

وغدا لنا

عندما نفى « عرابى » من مصر ، بكت كل القلوب المصرية فى صمت ،
وما اكثر ما يمنح القهر العيون أن تبيكى فى العلن ، والأكسنة أن تنطق لتقول
ما تريد ، وأيامها كان القهر يملا مصر ، وغاب كل شيء فى ركाम من
الخدعية .

واختفى عبد الله القديم ، دون كل الثوار الذين تشتتوا بين المشانق
والمنافى ، وغاد كما كان صعلوكا مطاردا وفقيرا ، يقرأ ويكتب ، ويبحث
لنفسه عن عمل يعمى عنه أعين مطارديه ، فيشتغل قارئاً للبحث مرة ، ويتخفى
فى زى الدراويش مرة أخرى ، ورغم كل ما كان يعانیه ، وجد الفرصة ليكتب
لزعيمه النبيل الذى نفى الى سيلان ، فاخترت بنفيه أحلام الثورة وأمال
الاستقلال ، يعزیه ويعزى نفسه بأن مصر تستيقظ دائما رغم كل شيء ، وأن
الفرح يعقب الحزن كما يلي النهار ظلمة الليل .

فى مخبئه عكف « القديم » على كتابة مذكراته ، وختمها برسالة منه
الى « عرابى » قال له فيها : « فىا ابن الحسين . . ويا قرة العين . . لك
الغدر فقد بغت نفسك لله ، ولكنك كنت فى بلاد أمراؤها ذئاب ، واهلها أحزاب ،
فباعوك بثمن بخس دراهم معدودة » .

وحرص « القديم » فى رسائله على أن يذكر « عرابى » بأن المصريين
على عهده باقون ، لدرجة أن بعضهم اعتبره من أقطاب الصوفية ، فقال له
فى إحدى رسائله :

- فانت فى مصر وان كان جسمك فى سيلان بذرك فى الأسن ورسك
فى الأعيان ، وأنهم يرجون عودتك لتتقد مصر مما هى فيه ، ورغم التضحيات
البالغة التى تكبدها نتيجة لاجهاض الثورة ، لكنهم على الأمل لا يبكون
بل يرجون الغد .

وروى له قصة اليوزباشى يوسف أبو دية الذى شفق الخديو بدعوى أنه
أثار فتنة طائفية فى طنطا ، فى حين أنه هو الذى أحمدها ، ووقف « ابراهيم

أدهم ، مدير الغربية وأحد رجال الخديو والمتهم الحقيقي في فتنه طنطا بجواره يسأله عما يريد قبل أن يشنق ، وقال أبو دية :

— وأى شيء بعد أن قطعتم آمالنا ؟ ولكن اليوم لكم وغدا لنا .
في منفاه كان عراقى يعيش قسوة الغربية وآلامها ومعه كلمات هذا المصرى الشجاع الذى لم يفقد الأمل في المستقبل لحظة واحدة .

الخونة والسارقين

في السجن يتغير الناس ، فيختفى زحام الحياة وضجيجها : تقفز الهموم الصغيرة وأحيانا الزاكية ، يعانى المناضلون تجرية الحصار ، فالدنيا كلها جدران أربعة ، واليوم ألف يوم ، يمر بطيئا ، يعد الانسان ثوابه ، تتكرر الكلمات وتفقد الوجوه ملامحها من فرط تشابهها . . . يختفى تنوع الألوان والأصوات والأحداث والتجارب . . .

قليلون هم الذين يعرفون عذاب السجن الحقيقي ، لذلك يفقدون قدرتهم على تقييم ذلك النوع من الرجال الذى يخرج من السجن فلا يخاف العودة إليه من أجل مبدئه أو عقيدته ولا يفهمون معدنه الراقى ، وصلابة روحه ونفسه .

في الأوراق التى تركها المحامى الانجليزى « برودلى » — محامى الثوار العربيين — عثرت على صورة لخطاب سلمه الامام محمد عبده — وهو في السجن — لبرودلى ليسلمه الى أسرته . . . والخطاب نموذج لسيكولوجية الثائر السجين ، ها هي هموم الحياة الراقية تختفى لتزحف الهموم الصغيرة والمشاكل التافهة . والخطاب موجه لابن الامام وبدايته حديث عن سكن جديد انتقلت اليه الأسرة « فان شاء الله يكون مبارك ، ويكون متسع ونظيف وأرجو أن تخبرونى عن موقعه وهيئته ، وعدد المحلات التى فيه ، ، يلى ذلك حديث عن مبلغ من المال طرف الشيخ الباجورى ، وحساب معقد ، وحديث مقنع عن رجل لا يسميه الامام ويصفه بأنه « المقيم بشارع الشيخ سلامة » ، ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن الحمار الذى تملكه الأسرة « اذا تصرفتم فى الحمار فلا يكون بأقل من عشرين « بنتو » وأظن أنه يساوى أكثر اذا كنتم ملتفتين اليه فى الأكل والشرب والنظافة ، ومع ذلك فتخبرونا بما يرسى عليه ونعطكم الرأى ، .

ومن الحمار ينتقل الامام للحديث عن الكتب ، فما أبعد الشقة بين الاثنين ، لكنه السجن : تختلط فيه المسائل وتتشابك ، لذلك يتحدث الامام عن كتاب حاشية ابن عابدين « خمسة أجزاء كانت في الدولاب ، وأظن جزء منها كان على الثرابيزة ، اتركوا الجزء الأول وهاتوا بقية الأجزاء ، وإذا وجدتم منها غائب ، فيمكن أنه طرف الشيخ داغر » .

حديث آخر عن كتاب « الأحكام السلطانية » وثالث عن « شرح العقائد النفسية » وتفصيل عن هموم الحياة الصغيرة . . فما أمر تجربة الحصار بين الجدران الأربعة .

في نهاية الخطاب ، فقرة يوصي فيها الامام أسرته ، يقول :

- والذي أوصيكم به دائما ، وتوصوا به الجماعة ، هو الحذر من السارقين والخونة من النساء والرجال ، ويلزم أن يكون محل نوم الجماعة في مكان بعيد عن الطريق ، ويكون معهم في محل نومهم الشنطة والصندوق ودولاب الكتب ، وكل ما يخاف عليه ، وبالنهار يكون ذلك المحل مغلوقا مع التحفظ على المفتاح ، وتكون أقامتهم بالنهار في أودة أخرى غير التي فيها هذه الأشياء ، واشتروا لي نتيجة أوقات من حساب سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣ م) ، وأسرعوا بشراء قماش الفانلا بمعرفة من يعرف فيه ، وفضلوا لي جلابية وخيطوها بالسريعة عند « محمد عبد النبي » أو غيره ، وارسلوا الوقائع من بعد يوم ٢٠ ذي الحجة كما أخبرتكم سابقا .

وتنتهي وصايا الامام السجنين ، ويوقع الخطاب ، لكنه يتذكر بعدها شيئا فيكتب :

- قولوا للجماعة يخرجوا الثياب الجوخ لأجل تهويتها خوفا من العتة .

وتدمع العين وهي تقرا خط الامام محمد عبده الصغير الدقيق ، تتذكره مدافعا عن الحرية والديمقراطية ، واستقلال الوطن ، قويا وجسورا وشجاعا ، وتتصوره وحيدا في زنازين الكلاب ، على ضوء ضئيل يكتب بلغة بسيطة ، وصية لزوجته أن تحذر من « الخونة والسارقين » ، فلولاهم ما دخل السجن .

النديم والمرأة

بدأت النهضة النسائية فى عصر الخديو اسماعيل ، عندما أنشأت الزوجة الثالثة له « جشم آفت خانم أفندى » أول مدرسة للبنات بالسيوفية . وعينت ناظرة لها سيدة أجنبية هى السيدة « روضة » . ولما زاد الإقبال عليها اعتزمت زوجة اسماعيل انشاء مدرسة أخرى أعظم منها ، وأتمت بناءها فعلا ، وقبل افتتاحها كان « الخديو اسماعيل » قد بارح القطر معزولا ، ورحلت زوجاته معه . فأهمل شأن المدرسة ، وشغلها الحكومة ببعض الدواوين ، ومكانها الآن تشغله وزارتتا الأشغال والمواصلات بشارع القصر العينى بالقاهرة ، ثم أنشئت بعد ذلك مدارس مختلفة لتعليم البنات ، وبدأت المرأة تشترك بنصيبها فى النهضة الاجتماعية والأدبية .

وكان لرفاعة رافع الطهطاوى فضل كبير فى تعليم المرأة . فهو أول من دعا لتعليم البنات وتحمس لذلك حتى انه وضع كتابا مشتركا لتثقيف البنات والبنين على السواء سماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » وقد صدر عام ١٨٧٣ .

وكانت مدارس البعثات الاوربية قد انتشرت قبل ذلك ، فأنشئت مدرسة راهبات الراعى الصالح بشبرا عام ١٨٤٤ ، ومدرسة راهبات القديس منصور فى الموسكى وقد أنشئت فى العام التالى ، ومدرسة الرسالة الفرنسيسكانية الايطالية وقد أنشئت سنة ١٨٥٩ ، ثم أنشئت مدارس أخرى بالمنصورة وكفر الزيات والاسماعيلية .

وكان « عبد الله النديم » فى طبيعة الصحفيين والثوار الذين اهتموا بمسألة تعليم المرأة ، اذ دعا على صفحات مجلاته وصحفه الى تعليمها فى سن الطفولة ، وفتح المدارس لها لتدرس مع مواد المنهج الابتدائى : الدين والتاريخ والتدبير المنزلى ورعاية الطفل .

ورتب النديم فى مجلته بابا خاصا لتهديب المرأة سماه « مدرسة البنات » تكتب فيه الموضوعات بأسلوب علمى ، سهل وشيق ، على نمط المحاوره تدور بين امرأتين ، وقد أغرمت النساء بهذا الباب الى حد عظيم ، حتى انهن اعترضن على الغائه حين فكر النديم فى ذلك فعدل عن ذلك وأبقاه . وقد تضمن هذا الباب موضوعات عن تعليم المرأة وواجباتها الاجتماعية فى مختلف مراحل حياتها .

وفكر « النديم » فى اصدار مجلة باسم « المرى » تبحث فيما يهم المرأة من فهم للامور الصحية ، وتدبير المنزل ، ورعاية الطفل والأمومة والعادات والأخلاق . وأعلن أنه سيصدرها اذا اجتمع لديه عدد وافر من المشتركين لكن القدر أبى أن يحقق للنساء المصريات أمنيتهن بصدور أول مجلة لهن . . . اذ نفى النديم بعد ذلك التاريخ بقليل .

18th August 1944

While the school is closed, the children are being taught at home. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon.

The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon.

The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon.

The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon.

The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon.

The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon.

The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon. The school is now a day school, and the children are being taught in the afternoon.



قبل الفجر الثالث

الفتوى والسلاح - الجراد والعصا - المستعمرون والعنجهية - وان
عبست اخوك - المستشار الاحتلالى - عام الكف - الغفلة وحق الرقابة -
الكوليرا الحقيقية - ليل الصالحين بالنهار - تقرير خليفة افندى - كيارى
قطاع خاص - شيخ الصارة والامبريالية - باللوا فى قصر الهندينا - الإنشاء
وليس الثورة - مجلس الأتس الهنى - الأقباط فى الأزهر - هاللوا بوبى -
الكلب الانجليزى - الفلاحون والفواتير - المستشار بوند - بلاوى الناس -
ويركو الآستانة - آداب العرش - اداة صاحب الصارة - المفتى والخديو -
الراهب الشاعر - السياسة كل شيء - مشاكل الاتوييس - كلام جرايد -
حصان الخواجة - كلوب الفقراء - اللورد والوزير - المصرية الباهرة -
اضراب المستاجرين - العاشق - بكتك بالدمع الهتون غوان - خفراء مصلحة
الحضارة - ياميت صباح الفل - سينما ايديال - دروس فى الفشل - الحب
بالعافية - الوداع يوم الهول - ابواق الاستعمار - الثوروى - وان جارت
على عزيزة - المنطق والسياسة - السابقون لزمانهم - خط ١٧ فى المحكمة -
الأميرة المشاغبة - الدستور يا افندينا - تسعيرة الرتب - عاوزين ناكل
عيش - مقالب الشعراء - شيخ المعروية - اخص دا ديمقراطى - الشعب ٠٠
والشعب - كرامة الوطن - وكالة البلح - الاسلام والحياة - عباس جاى -
الشوارع والبطولة - النصيحة التى لم تسمع - لماذا عزل - عدم تربية -
شر البقر - نهاية كاتب تقارير - يا عزيز عينى - الفكر والكارو - اتعبتني
يا مولاي - ظاهرة الدكتور جيكل والمستر هايد - انطونيادس الخالد - قليل
من التشرد وبعض السلاطة - زمن الفكاهة السعيد - الأميرالاي هارفى باشا ٠

187

Mathematics

The first part of the book is devoted to the study of the
 properties of the real numbers. It begins with the definition of
 the real number system and the properties of addition and
 multiplication. It then discusses the properties of the
 rational numbers and the properties of the real numbers.
 The second part of the book is devoted to the study of
 the properties of the complex numbers. It begins with the
 definition of the complex number system and the properties
 of addition and multiplication. It then discusses the
 properties of the complex numbers and the properties of
 the real numbers. The third part of the book is devoted
 to the study of the properties of the real numbers.
 It begins with the definition of the real number system
 and the properties of addition and multiplication. It
 then discusses the properties of the real numbers and
 the properties of the complex numbers. The fourth part
 of the book is devoted to the study of the properties
 of the real numbers. It begins with the definition of
 the real number system and the properties of addition
 and multiplication. It then discusses the properties of
 the real numbers and the properties of the complex
 numbers. The fifth part of the book is devoted to the
 study of the properties of the real numbers. It begins
 with the definition of the real number system and the
 properties of addition and multiplication. It then
 discusses the properties of the real numbers and the
 properties of the complex numbers.

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
 LIBRARY
 187

الحجة بذلك .. وأعاد القاضى السؤال عما اذا كان تحديد الأرض يشمل شيئاً من ساحل النيل ، فلما جاءه الرد بالإيجاب اعترض على تسجيل البيع ، لأن الطريق المشرف على السواحل هو ملك السلطان حسب نصوص الشرع .

وقامت الدنيا ..

واندفعت صحف الاحتلال تؤيد « اللورد كرومر » ، وردت الصحف الوطنية مهاجمة اللورد ومؤيدة حق السلطان فى أن يحتفظ بملكته للسواحل ، لأنها طرق عسكرية ، وظاهر كثيرون موقف القاضى ، واعتبروه فرصة للنيل من صلف ممثل الاحتلال الانجليزى وغروره ، وانضم « رياض باشا » رئيس الوزراء الى صف « اللورد كرومر » ، وقال :

— فليصدر القاضى ما شاء من فتاوى .

وفى اليوم نفسه اجتمع مجلس النظار وأصدر قرارا بالموافقة على البيع متضمننا ساحل النيل .

وهكذا ظلت السفارة البريطانية فى القاهرة على شاطئ النيل أكثر من سنتين عاماً ، خلافاً لرأى قاضى القضاة ، الذى استند الى فتوى شرعية بالاحتفاظ بشاطئ النيل ضمن اطار الملكية العامة لضرورات عسكرية .

وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اضطر الانجليز للسماح للحكومة المصرية بشراء جزء من حدائقها ليكون امتداداً لشوارع الكورنيش .

وأثبت التاريخ غملياً أنه ليس بالفتوى وحدها يعرود المحتلون الى الحق .. ولكن أولاً بالسلاح .

الجراد والعصا

بعد سبع سنوات من الاحتلال الانجليزى لصير ملاها الجراد :

كان ذلك فى عام ١٨٩١م. إذ وردت الأخبار من بعض مديرى المديرية يظهر الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون .. وكثير من بلاد مديرية جرجا وأكثر بلاد القليوبية ، وسرعان ما انتشر الجراد فعلاً مصر كلها حتى وصل الى القاهرة فى أواخر رمضان من تلك السنة .

وانزعجت الحكومة المصرية ، وانتمت بالأمر اهتماما عظيما ، وأرسلت الى المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شافته ، وبرغم كل الجهودات تكاثر الجراد ، وانتشر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وفتك بكل ذى خضرة من النباتات والشجر والنخيل ، وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة .

وظلت أنباء الجراد هى أهم انباء الصحف المصرية لمدة شهر كامل ، فكانت أى هزيمة له ، مهما تضاعلت ، تعتبر من الأنباء السارة : حدث مرة أن نزلت سحابة منه على مزرعة قطن باحدى بلاد المنوفية فأكلتها ، وما أن آتت على آخرها حتى ماتت جميعها ، فجاءت أخرى الى مزرعة فى جوار المزرعة الأولى ، فلما رأت ما أصاب الأولى نفرت من النزول على شجر القطن وعاقته وفرت ، فلم يرد بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحول ضرره الى الأشجار والنباتات الأخرى .

يروى شاهد معاصر أنه رأى الجراد فى الطريق بين نفيشة والسويس ، وكان على هيئة صفوف الجند ، بعضها خلف بعض ساكن القلب ، لا يزعه مزعج ، ولا يحركه محرك . حتى ظهر له طائر غريب أقرب شبها بأبى قردان ولكنه أطول منقارا ، كان يضرب الجراد بأجنحته ومنقاره ، ويبتلع منه الاف ، فلا تستقر فى جوفه لحظة حتى يتقيأها ، اذا افلت منه شيء تعقبه وقتله .

واشدت حملة الحكومة على الجراد فقررت مكافأة قدرها قرشان لمن يأتى بأقة من بيض الجراد ، فتسابق الناس الى البحث عن مواطنه وأخراجه منها ، وأسرع الناس يحملون سعف النخيل والعصى ، يضرهون به الجراد ويقتلونه .

وفى أواخر شوال من نفس العام ، هبت رياح مختلفة ، بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ، فاكتسحت الجراد وقضت عليه . ولكن الناس الذين حملوا العصى للقضاء على الجراد لم يلقوها جانبا . كانوا يعلمون أن أخطر الجراد ما زال يأكل خير مصر ، وأنه لا يمكن القضاء عليه دون عصا .

المستعمرون والعنجهية

في يناير ١٨٩٤ حدثت أزمة ضارية بين « اللورد كرومر » والخديو « عباس حلمي الثاني » بسبب ملاحظة بسيطة أبداها الخديو على أسلوب تدريب الجيش المصري .

وكان الخديو قد انتهز فرصة سفر اللورد في إجازة الى إنجلترا ، فأحدث انقلابا في السلطة العليا للجيش المصري ، وذلك بتعيين وزير جديد للحربية هو « ماهر باشا » ، واستصحبه في رحلة لتفقد وحدات الجيش المصري المعسكرة في أسوان وجنوبها . وتعهد الخديو أن يعلق على كل شيء يراه بشكل يتضمن السخرية من جهل الضباط البريطانيين منددا بالنقص في كفاءتهم العسكرية .

وفي وادي حلفا استعرض الخديو وحدات الجيش بحضور قائده العام « الجنرال كتشنر » ، وعلى حد ما كتب الجنرال نفسه - في تقرير رفعه بعد ذلك الى كرومر - فان الخديو « أبدى ملاحظات شائنة للقواد البريطانيين ومحقرة لهم ، وبعد ذلك قال لي ان من رأيه أنه من العار أن يكون الجيش المصري في هذه الدرجة من عدم الكفاءة » .

وغضب « كتشنر » ورفع استقالته من الجيش ، وأثرت الاستقالة في الخديو الذي استدعاه وطلب منه سحبها فقال الجنرال :

- إذا كان الضباط البريطانيون يوبخون ويعنفون بهذه الصيغة العلنية فان مركزكم في البلاد يسوء ويصبح من الصعب الحصول على ضباط أكفاء يقبلون الخدمة في الجيش المصري غيرهم .

وأيد اللورد كرومر تصرف جنراله المتعنت ، وأضاف اليه أن تصرف الخديو يعيد للألمان تصرفات الضباط المصريين في عام ١٨٨٢ ضد السيطرة الجركسية على الجيش ، التي انتهت بثورة عرابي ، ولذلك رأى في مسلك الخديو تحريضا للضباط المصريين على العصيان ، وأصر على اقالة « ماهر باشا » وأن يصدر الخديو أمرا عسكريا يثني فيه على الجيش وعلى قادته من الانجليز .

وبعد ضغوط هائلة اضطر الخديو الى قبول شروط الانجليز ، فسقطت وزارة رياض باشا كلها - بما فيها وزير الحربية ماهر باشا - وأصدر الخديو بيانا نشر في الوقائع المصرية يقول فيه انه يهنئ الضباط المصريين والانجليز الذين يقودون الجيش ، ويعلم اعترافه بالخدمات الجليلة التي أداها الضباط الانجليز للجيش المصري !

وهكذا اثبت المستعمرون انهم لا يقبلون ان تمس عنجهيتهم الانجليزية باى ملاحظة ، حتى ولو صدرت من حاكم البلاد الذى كان المصريون يخاطبونه فيقولون عنه : ولى النعم .

•• وان عيست أخوك

اشتبك تاريخ مصر وسوريا فى العصر الحديث ، ومنذ اوائل القرن الثامن عشر بدأ السوريون يستوطنون مصر ، اذ انتقلت بعض العائلات المسيحية الدمشقية من الروم الكاثوليك الى القاهرة والاسكندرية ، لاتساع تجارتهم أو اعمالهم فيها ، واقتدى بهم جماعة من أبناء هذه الطائفة وغيرها من سائر انحاء سوريا وعرفوا باسم الشوام ، ويراد بهم أهل سوريا وفلسطين وحلب والعراق . وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة . واخذوا يفتحون الحوانيت للبيع والشراء ، وفيهم باعة الأجواخ والخردوات ، والسماسرة والصياغ والنساجون ، فالتزوجون منهم يقيمون فى منازل خاصة بهم ، وأما العزاب فينزلون فى الوكالات أو الخانات ، فى جهات الحمزاوى وما جاوره .

وعندما تولى « محمد على » حكم مصر كان فيها من السوريين حوالى اربعة آلاف : ثلاثة آلاف منهم بالقاهرة ، والباقى بين دمياط والاسكندرية ورشيد ، وكانوا قد جمعوا ثروة ضخمة لتوسطهم فى التجارة بين الافرنج وأمراء الممالك ، فيشترون الأجواخ والحراير وسائر أدوات المنازل والأثاث وغيرها من الافرنج ويبيعونها للأمراء وسائر الأعيان .

لكنهم هاجروا من مصر فى عهد « محمد على » بعد أن احتكر التجارة فضاقت امامهم السبل ، وذهبوا الى السودان ليتاجروا فى سنن العاج والريش والصمغ .

وفى أيام اسماعيل أغرى كثيرون من الشوام الذين يعرفون اللغات الأجنبية بالعمل فى وظائف الحكومة ، ورغم تفوزهم من هذه الوظائف ، فقد قبلوا خاصة أن المرتبات التى عرضت عليهم كانت مغرية . وبعد الاحتلال استقال عدد كبير من هؤلاء وعادوا للعمل بالتجارة بعد أن اتسعت أبوابها ، وانضم اليهم من تقاطر من بلاد الشام الأخرى ففتحو المتاجر واشتغلوا

بالمضاربة وأسسوا الشركات ، فضلا عن عدد كبير منهم اشتغل بالمهن العلمية كالحاماة والطب والصحافة وغيرها .
ولعب السوريون دورا هاما في مجالات الصحافة والعلم والفكر ، ونقلوا التمثيل العربي الى مصر ، وكان التعاون بين المصريين والسوريين في هذا المجال وثيقا ، اذ كان « الخديو اسماعيل » يحتضن المواهب الفنية والأدبية والعلمية الشامية ويمدها بالمال لتمويل مشروعاتها .

وبرغم تلك العلاقات الوثيقة ، فان الظروف المعقدة التي كانت تحيط بمصر في ذلك الوقت جعلت الاستعمار الانجليزي ينجح في خلق عدد من الحساسيات بين المصريين وبين الجالية السورية في مصر ، وتزعم بعض المصريين الهجوم على الثنوام ثا يمازسون من أعمال تجارية تشكل تنافسا لهم ، وأدرك الشاعر حافظ ابراهيم المفارقة الغربية بين الضيق بالسوريين في الوقت الذي تمتلئ مصر فيه بحثالة الاوربيين . فكتب قصيدة جميلة قال فيها مخاطبا مصر :

مناذا جنيت وما جنسناه أبوك

أظلمتهم يا مصر ام ظلموك

قبست للغرب الطموح وأهله

ومنحتهم فوق الذي منحوك

وعبست في وجه الشام وإنما

قطر الشام وإن عبست أخوك

المستشار الاحتلالي

في عام ١٨٩٤ ، ضبط رئيس مجلس شورى النواب متلبسا بتهمة شراء أربع جوار حيشيات مخالفا بذلك القانون الذي كان يحرم الاتجار في الرقيق أو شرائه . وانتهزت مصلحة عتق الرقيق التي كان يديرها ضابط انجليزي اسمه جيفر بك الحادثة لتشهر بالكبار من المصريين ، وتستبدل منها على عدم

صلاحياتهم لحكم أنفسهم بأنفسهم . وانتهاز اللورد كرومر - ممثل الاحتلال -
الفرصة ليفرض رأيه بضرورة تعيين مستشار انجليزي لوزارة الداخلية .

في ذلك الوقت كان المستشار الانجليزي في أى وزارة ، هو وزيرها
الفعلى ، ولأن وزارة الداخلية كانت وزارة الضبط والربط والعمد والخبراء ،
فقد كان تعيين مستشار انجليزي لها يعنى وقوع الإدارة المصرية بالكامل
في يد المحتلين .

وكان طبيعيا مع ذلك أن تثور الصحف الوطنية ، وأن تعترض بشدة
على تعيين مستشار انجليزي لوزارة الداخلية ، وما لبثت أن نحتت لهذا
المستشار اسما طريفا هو « المستشار الاحتلالى » . وفى الخريف تجمعت
فى القاهرة وفود من وجهاء البلاد وأعيانها ، كانت غايتهم الظاهرة حضور
مولد الاستاذ البيومى والامام الحسين ، أما هدفهم الأسمى فكان النقاش
حول مسألة المستشار الاحتلالى .

على صفحات جريدة « الأهالى » التى كان يصدرها اسماعيل أبازة ،
كتب صاحبها مقالا طريفا عن الحوار الذى دار بينه وبين الأعيان والعمد
حول هذا الموضوع ، والأسئلة التى وجهوها اليه ، فقال ملخصا الحوار :

- سئلتنا : هل تعيين المستشار يحول بين الدودة وبين الفتك بمزروعاتنا ،
فأجبنا بلا .

- سئلتنا : هل تعيين المستشار يدعّر لتحسين اثمان محصولاتنا ،
فأجبنا بلا .

- سئلتنا : هل تعيين المستشار يكفل لنا تعديلا للضرائب على اطياننا ،
أجبنا بلا .

- سئلتنا : هل تعيين المستشار يقيم ميزان المساواة بيننا وبين الأجانب ،
فلا يقاد كبيرنا الى سجون المحافظة والبوليس ويحتقل بتشجيع حقيرهم الى
دار القونصولاتو التابع لها ، ثم منها الى منزله ، فأجبنا بلا .

- سئلتنا : هل تعيين المستشار يؤدى الى فتح معامل وفابريقات بالعاصمة
وبسائر عواصم البلاد يشتغل بها الخالون من الأعمال وتأخذ مقدارا عظيما
من الأقطان ، فترفع بسبب ذلك اثمانها فى الجهات الخارجية وتستغنى عن
معظم - ان لم يكن سائر - المصنوعات الأجنبية ، فأجبنا بلا .

- سئلتنا : هل تعيين المستشار يطهر العواصم والبيئادر والبلاد من أدران
الفسق والفجور والفساد فلا ترخص الحكومة المصرية الاسلامية العربية
للنساء باستعمال البغى والفساد والاحتراف بمهنة الفحش والفجور ، ثم
يدفع اليهن الرجال بما كفلته لهم من نظافة المومسات وبراءتهن من كل مرض

يخش من مضاره على صحتهم وأبدانهم ، ولا تعطى رخص أيضا للمرافقات والمقاصرات عن درجة البلوغ بالخروج عن طاعة أولياء أمرهن والوقوف في مسارح الرقص والابتذال تحت حماية عدل الحكومة وشهامتها ومبروءتها وغيرها ، فأجبنا بلا .

وعلى هذا النحو استعرض « اسماعيل أباظة » أوجه الفساد التي كانت تعم البلاد . . . ساخرًا من الاحتلال الذي يزعم أنه حقق كل شيء وأكأنه لم يبق سوى تعيين المستشار الاحتلالي لتصبح مصر جنة . . .

وختتم « اسماعيل أباظة » مقاله بالتساؤل الأخير :

- سنلنا : هل تعيين المستشار يساعد على اجابة الطلبات التي طلبتها جريدة « الأهالي » للإهالي منذ نشأتها لحد اليوم ؟ فأجبنا بلا .

وانتهت تساؤلات جريدة « الأهالي » الى نتيجة واحدة ، هي أن المستشار يعين لأنه احتلالي . . . وهذا هو الموضوع الذي لا موضوع غيره !

عام الكف وعامل كفؤ

عندما عاد « إبراهيم المويلحي » الى مصر عام ١٨٩٥ ، كان قد أمضى ستة عشر عاما طويلة تنقل خلالها بين « نابولي » مصاحبًا للخديوي اسماعيل في منفاه ، ثم باريس فلندن ، وأخيرا « الآستانة » حيث قضى عشر سنوات في بلاط السلطان العثماني . . .

وخلال هذه السنوات اكتسب المويلحي رؤية أكثر مصيرية عن كثير من كتاب زمنه وصحفييه ، وكان من الأصل ينحدر من أسرة من كبار المشتغلين بتجارة الحرير ، وهو ما جعله أكثر انفتاحا على الفكر الليبرالي ، وأكثر تقبلا للاتجاهات الجديدة . . .

وعندما أصدر مجلته « مصباح الشرق » جعلها منبرا من منابر الهجوم والسخرية على سلوك الشرائع العليا في المجتمع ، وخاصة كبار ملاك الأراضي الذين كانوا يجمعون الأموال فلا يستخدمونها في صناعة ، ولا ينمون بها تجارة ، بل يصرفونها على شهواتهم البدائية ، وعلى المظاهر الفارغة . . . مما كان له أثره الضار في بقاء الاقتصاد المصري في قبضة الاحتكارات الأوروبية .

ولأن « مصباح الشرق » كانت تعتمد على الأسلوب الساخر فيما تكتب ، فإن ما كان ينشر فيها كان يستفز غضب الذين تسخر منهم ، وكان « محمد المويلحي » - ابن إبراهيم وشريكه في تحرير المجلة - صاحب قلم ساخر وشديد المقسوة في سخريته ، وقد استثار تعريضه المستمر بالأسر الكبيرة كراهية بعض أفرادها ، مما جعلهم يخططون للتحرش به ، والعدوان عليه .

وحدث أن التقى « محمد المويلحي » « بمحمد نشأت » أحد أبناء تلك الأسر في حانة « دركوس » فثارت بينهما مناقشة حادة حول ما كتبه المويلحي الصغير ، وانتهت المناقشة بأن رفع « محمد نشأت » ذراعه وصقع « المويلحي » صفة شديدة على قفاه . وعندما ذاعت أنباء تلك اللطمة في الأوساط الأدبية في مصر ، أثلجت صدور الكثيرين من الأدباء والشعراء ممن كانوا يكرهون المويلحي ، ولا تنقطع بينهم وبينه الملاحاه .

وأفردت صحيفة « المؤيد » لصاحبها « الشيخ علي يوسف » باباً يومياً سمته « عام الكف » كان يتضمن هجاء منظماً في المويلحي ، يتبادلته كثيرون من أعدائه ، ومنهم أمير الشعراء « احمد شوقي » ، الذي كتب قصيدة مطلعها : « خدعوه بقولهم فيلسوف ، حتى رنت على قفاه الكفوف » . وبعد أقل من عامين وقع « علي يوسف » في مطب قصة زواجه المشهورة ، عندما أعترض ثقيب الأشراف « السيد علي السادات » علي زواجه من ابنته لأنه غير كفؤ لها ، ورد « المويلحي » بفتحة باب يومي في مصباح الشرق جعل عنوانه « عامل كفؤ » .

الغفلة وحق الرقابة

استهل شهر رمضان عام ١٨٩٥ بكارثة لم تتحقق نتائجها إلا بعد ذلك التاريخ بأكثر من عشرة أعوام ، ففي أول الشهر المبارك استصدر الانجليز من الخديو « عباس حلمي الثاني » أمراً عالياً بتشكيل محكمة مخصوصة لمحاكمة من يعتدى على ضباط جيش الاحتلال أو جنوده ، ونص الأمر على أن تشكل هذه المحكمة من المستشار القضائي الانجليزي ، وضابط كبير من جيش الاحتلال ، وقاضى انجليزي من محكمة الاستئناف الأهلية ، ورئيس محكمة مصر أو الاسكندرية ، تحت رئاسة ناظر الحقانية ، وكان الأمر العالي

بتشكيل هذه المحكمة هو اغرب امر فى التاريخ ، ان نص على أن تحكم هذه المحكمة من غير قانون بحسب ما يتراءى لها ، وبأى عقوبة تراها حتى القتل ، كما نص على الا تنعقد الا فى احوال استثنائية عندما يطلب ذلك القنصل العام لانجلترا فى مصر بناء على تقرير يقدم اليه من قائد جيش الاحتلال .

وكانت حوادث اعتداء المصريين على جنود جيش الاحتلال قد تزايدت ، وفى الشهر السابق مباشرة على صدور القانون وقعت مشاجرتان عنيفتان من هذا النوع . ان كانت عربة القنصل الألمانى العام تقف أمام فندق شبريد المقدم بالأزبكية ، فأراد أحد الضباط الانجليز الذين يعملون فى البوليس أن يجبر سائقها - وهو مصرى - على الوقوف فى المحل المعد لوقوف العربيات العمومية فأبى قائلا :

- ان عربات القناصل تقف هنا بطريقة استثنائية .

فنهره الضابط . ولما طال الحديث ضربه الضابط الانجليزى ، وشاركه فى الاعتداء عليه بعض رجال البوليس بأمره ، فرد السائق عليهم أمانتهم ، وتحول الأمر الى مشاجرة .

وفى نفس الأسبوع حدثت مشاجرة فى الاسكندرية بين ثلاثة من عساكر الانجليز البحرية وفريق من الأهالى بحى البغاء ، وانتهت المشاجرة بأن ضرب الأهالى أحد الانجليز ضربا أصابه بجروح احتاجت لعلاج أكثر من أسبوع ، وأثارت الحادثة غضب الانجليز الذين شعروا بأن هيئة الاحتلال قد بدأت تهتز ، وأن انتصارهم العسكرى فى التل الكبير ، الذى بنوا على اساسه هيبتهم العسكرية ، أصبح فى مهب الريح .

وهكذا ضغطوا على الحكومة المصرية - التى كانت العوبة فى أيديهم - واستصدروا منها هذا الأمر العالى ، ووافق مجلس الوزراء عليه دون أى معارضة ، ولم يراع المجلس حرمة المصريين ولا احساسهم ، فقد كان واضحا ان الانجليز لا يقصدون بهذه المحكمة العرفية الا التثكيل بمن يعارضهم أو يقاوم تصرفات جيش احتلالهم .

بعد أحد عشر عاما من هذا التاريخ ، اثمر هذا القانون ثمرته ، فبمقتضاه حوكم أهالى دنشواى وسيقوا الى المشنقة والمجلدة ، وتعذبت مصر كلها بأمر عال صدر فى غفلة من الشعب ذات صباح من رمضان .

وما أكثر ما يعانى شعب يغفل عن حقه فى الرقابة على القوانين .

الكوليرا الحقيقية

كان الوباء جزءا من العذاب الطويل الذى ابتليت به مصر على امتداد تاريخها ، وطوال العصور الوسطى كانت الطواعين والأوبئة تحدث بشكل دورى : وراءها دائما الفقر والقحط والمضاربون .

كانت الكوليرا التى ظهرت بشائرها فى مايو عام ١٨٩٦ واحدة من أقسى وأضرى هجمات الوباء على مصر ، فقد تميز موسم الوباء فى تلك السنة ، لا بكثرة ضحاياه فحسب ، ولكن أيضا بذلك العنف الذى واجه به المصريون الاجراءات الوقائية التى أرادت الحكومة فرضها عليهم لمحاصرة الوباء ، والقضاء عليه ، وكان قد مضى على احتلال الانجليز لمصر ١٤ عاما عانى فيها الناس من الشعور بالذل والمهانة ، ومن كبت مشاعر الغضب مما جعلهم فى حالة توتر مستمر ، سرعان ما انفجر ضد الكوليرا الحقيقية .

وكان الأطباء من ناحيتهم يتصرفون بعصبية ، ويحاولون اذلال الناس دون مبرر ، ان كانوا يفتقدون للوعى البسيط بأن مصر موبوءة لا بالكوليرا وحدها ، ولكن أيضا بالفقر والاحتلال ، كانوا يدمرون غذاء الناس الذين لا يملكون غيره كاجراء وقائى يحول دون انتشار ميكروبات الكوليرا ، دون ان يفكروا لحظة واحدة فى بديل لما دمروه يقى أصحابه الجوع والمسيفة .

وفى يوم عيد الأضحى من عام ١٨٩٦ حدث هياج شديد فى مصر القديمة ، فقد أثلف أحد الأطباء الأجانب خبزا وقمحا لأحد الأهالى الفقراء ، بدعوى أنه ملوث بميكروبات الكوليرا ، وعندما احتج الناس فتح الطبيب زجاجة من حمض حارق كان يتلف بها الأطعمة الملوثة ، وألقى بها على وجه المتجمهرين ، وأصاب الحمض وجوه بعضهم ، لحظتها لم يعد فى قوس الصبر منزع ، هجم عليه الفقراء وأخذوا الزجاجة منه ، وصبوا ما بقى فيها على جسمه .

وفى نفس اليوم هاجم الأهالى طبيبا انجليزيا فى باب الشعرية ، وكسروا نراع أحد مساعديه لأنه أثلف طعامهم ، وفعل أهالى بولاق نفس الشيء فى طبيب ثالث .

لم تكن تصرفات الناس تخلفا أو رفضا للعلاج ، لكنهم وهم يواجهون الموت بالوباء أو بالجوع كانوا يعون أن الاحتلال هو الكوليرا الحقيقية .

ليل الصالحين بالنهار

ضاح كتاب « المسامير » ، أكثر الكتب بذاءة في أدب الهجاء المصرى ، وأحد الأعمال الكثيرة التى فقدت من كتابات « عبد الله النديم » . وصحيح أن البذاءة شئ مستكف فى الكتابة وفى الكلام ، لكن التاريخ يؤكد لنا أنها أحيانا الوسيلة الوحيدة للتغلب على بعض الناس ، فعندما يتهم لص الآخريين بأنهم غير شرفاء ، أو يرتدى منحل ثياب الدين ليتهم الآخريين بالاحاد ، كأنه شق عن قلوبهم ، فلا رد على هؤلاء - أحيانا - الا البذاءة . . . وذلك ما فعله « عبد الله النديم » فى ذلك النص الذى ضاع للأسف .

والمعلومات المتوفرة عن الكتاب تقول أنه كتب خصيصا للهجوم على « أبى المهدي الصيادى » ، أكبر مستشارى السلطان العثمانى « عبد الحميد » وأكثرهم نفوذا ، وكان « النديم » بعدما اختفى تسع سنوات طويلة فى قلب مصر ، قد ظهر ثم نفى الى « الآستانة » ، وكان لابد أن يصطدم بالصيادى الذى كان واسع النفوذ فى البلاط العثمانى ، مامرا فى تشكيك السلطان فى كل الناس والصفاق التهم بهم ، والغريب أن « أبى المهدي » كان منحلا بلا أخلاق ، لدرجة أنه كان له معشوق اسمه « محمد شكيب » أراد أن يتدل عليه ، فترك استانبول ورحل الى القاهرة ، ولما كان الصيادى لا يطيق فراق غلامه فقد بعث الى المسئولين فى مصر يطلب منهم البحث عنه والنصح له بسرعة العودة الى قصر المستشار السلطانى .

واهتزت مصر كلها ، وجندت قوى البوليس السرى والعلنى لتنفيذ رغبة الصيادى ، وكان الخديو « عباس حلمى » قد تلقى تقريرا من رئيس البوليس السياسى يقول فيه : « علمت أن الصيادى لا يكاد يصبر على فراق شكيب ، وأن جسمه قد هزل لغيابه عنه » ، ولحرصه على ارضاء أكبر مستشارى السلطان فقد أمر الخديو عباس حلمى بتكثيف البحث عنه ، وشغل رجال الحاشية والبوليس بذلك الأمر ، وأخيرا عثر البوليس عليه ، فبادر الخديو بإرسال برقية عاجلة للمستشار السلطانى يقول فيها : « لقد عثرنا عليه بعد أن بثنا العيون والأرصاد فى الاسكندرية وبور سعيد » .

الجانب الآخر من المأساة - بعد انشغال دولتين بالبحث عن المعشوق الهارب وتسجيل ذلك فى مكاتبات رسمية - كان يتمثل فى أن « أبو المهدي الصيادى » كان يدعى التقى والورع والتدين ، وكان مستشارا دينيا للسلطان ، ليس هذا فقط وانما كان يتهم الناس فى اخلاصهم للدين وفى حبهم للسلطان ، ويوزع عليهم فتاوى الاحاد والمروق عن الطاعة ، ولا يترك المسبحة ولا حلقات الذكر . . . يدعى أنه صالح فى الصباح ، وفى المساء يشرب الخمر ويرتكب الموبقات . . .

والى هذا النفاق أشار شاعر النيل حافظ إبراهيم فى قصيدة ساخرة له ،
يقول فيها :

أخرق السدف لو رأيت شـكـيـيا
وأقضى الأذكار حتى يغيبـيا
وهو ذكرى وقبلى وامامى
وطبيبى اذا دعوت الطبيـيا
أو ترانى وقد تعمدت قتلى
بالثنائى رأيت شـيـخـا غريبـيا
هو لا ينحى لغيرك أجـلـالا
ولا يشتهى سواك حبيبـيا
فسلوا سبحتى هل كان تسبـيحـي
فيها الا : شكيا .. شكيا

ولعل ذلك كان موضوع « المسامير » ، أكثر الكتب بذاءة فى أدب الهجاء
على ما يقول من قرأوه ، بسببه نفى « النديم » من استانبول ، فهل يعثر عليه
أحد هذه الأيام لتخرس بظهوره أقلام وألسنة الصالحين فى النهار يتهمون
الناس بالاحاد وتسبيحهم ليس الا : شكيا .. شكيا (!!) .

تقرير خليفة أفندى

كتابة التقارير أكل عيش .. ومهنة يلجأ اليها أحيانا فقراء لا يتقنون
مهنة غيرها ، وأحيانا يلجأ اليها كتاب لا يحسنون كتابة المقالات فيستبدلونها
بكتابة « تقارير » مزيفة .

وفى بعض الظروف قد يقود تقرير برىء الى السجن ، لكن - وتلك حكمة
الهيئة - معظم كتاب التقارير ينتهون الى الشارع متعطلين ، لا يكتبون مقالات
ولا حتى تقارير .

ولم يكن « خليفة أفندى » كاتب مقالات ، لكنه كان كاتب قيودات ، وفى
بعض الأحيان تقارير ، والحادثة حدثت فى أواخر القرن الماضى عندما كان
شيخ القضاة « عبد العزيز فهمى » معاوننا للإدارة بأحد مراكز المنصورة ،
وكان شديد الاعتدال بنفسه ، الأمر الذى أثار عليه شلة من المنافقين والأرزقية ،

كانت تحيط بباشكاتب المديرية ، رأت أن اعتزاز معاون الإدارة الشاب بنفسه يكشف تضاًؤلهم ، وتمسكه بكرامته يكشف أنهم بلا كرامة .

وانهمكت شلة الباشكاتب فى كتابة التقارير ضد « عبد العزيز فهمى » فنقل من ديوان المديرية فى المنصورة الى بلد قريية منها اسمها « قولونجيل » لكى يشرف على حماية جسر النيل التى كان يقوم بها مجموعة من الخفراء ، يقيمون فى أخصاص ويستمررون كذلك طوال موسم الفيضان ، وانهاالت التقارير على رأس « عبد العزيز فهمى » تتهمه بأنه يجب الأهالى ويسهر مع العمد والفلاحين ، ومعنى هذا أنهم لن يدفعوا لبقية الشلة الرواتب والأتاوى وبقية المكاسب ، وانتهت هذه التقارير بنقل « عبد العزيز فهمى » الى بلدة أخرى هى « سنبخت » فنقل إليها خصه ببوصه وأخشابه .

وشاعت الظروف أن يتزايد خطر الفيضان ، وكان الجسر فى سنبخت ضعيفا ، ولما علا النيل بدأ الماء يتسرب منه ، وكان معنى هذا أن يصبح « عبد العزيز فهمى » هدفا سهلا لشلة الباشكاتب لكى يكتبوا ضده لا تقرير بل منشورا ، لكن أهالى « سنبخت » كانوا قد سمعوا بأخلاق المعاون ، وعرفوا أن الذين يسومونهم العذاب يتريصون للرجل لكى يسجلوا عليه تقصيرا فى أداء واجبه ، فسارعوا - دون أن يطلب منهم ذلك - يمدون له يد المساعدة ، وعبأت البلاد المجاورة نفسها ، وجاءوا بأكياس الرمل وطرحوها أمام الجسور وأنشأوا جسرا جديدا خلف الجسر الأصىلى . . . ودفعوا بذلك خطر الفيضان .

فى ذلك الوقت كان الباشكاتب قد بلغه الخبر ، فأسرع بإرسال أقدم كاتب تقارير عنده ، وهو « خليفة أفندى » وكلفه بالذهاب الى « سنبخت » والعودة بتقرير يطيح برأس المعاون . . . ووصل « خليفة أفندى » ليجد أن الضرر لقد دفع وان الأهالى قد قاموا بالواجب .

ولأن « خليفة أفندى » كان كاتب تقارير محترف ، فقد أصر على ألا يعود خالى الوفاض ، فكتب تقريرا قال فيه : ان المعاون يهمل ، وأن الخفراء يهريون من العمل بعلمه ويسرقون العهدة الرسمية من المقاطف والفتوس . . . ووصل التقرير الى مدير المديرية الذى حوله الى « عبد العزيز فهمى » فرد عليه ردا عنيفا وقال : انه تقرير كاذب من الألف الى الياء .

واستفز الرد المدير فجاء بنفسه ليتفقد العمل فى صحبة الباشكاتب . . . وفوجيء الاثنان بالعمل يقوم على قدم وساق ، فليس الخفراء وحدهم هم الذين يعملون بل أهالى البلد ، وفتوس ومقاطف اضافية ، ونظر المدير الى الباشكاتب نظرة ذات معنى ، فقال هذا نافيا التهمة عن نفسه :

- ولكنى أرسلت لك « خليفة أفندى » وهو أحسن كاتب تقارير عندى . . .

وقطع المدير المناقشة . . . وانقطع عيش « خليفة أفندى » .

كثيرون يعرفون اليوم « عبد العزيز فهمى » لكن من ذا يذكر الأرزقية
والتقويرجية ١٩

كبارى قطاع خاص

فى مايو ١٨٩٢ افتتح الخديو « عباس حلمى الثانى » كوبرى امبابة
الذى أنشئ لتوصيل سكة حديد الوجه القبلى بنظيرتها فى الوجه البحرى .
وقبل انشاء هذا الكوبرى كانت هناك معدية بخارية فى نفس مكانه تقوم بنقل
المسافرين الى ضفة النهر الأخرى . واستطاع الكوبرى الجديد أن يغير فى
تخطيط المنطقة ، فقد أدى انشاؤه الى الغاء محطة السكة الحديد ببولاق
الدكور ، وانتقلت محطة الصعيد الى السبتية ، وبدئ فى نفس شهر انشاؤه
فى بناء محطة عمومية هى التى تعرف الآن باسم محطة مصر .

ويرغم أن ذلك الكوبرى قد بنى من عرق المصريين ويجهدهم ، فلم يكن
مسموحا لهم بالمرور عليه . ذلك أن الحكومة المصرية أيامها كانت تفرض
ضريبة اسمها « ضريبة الكبارى » ويمقتضاهما كان يحصل من كل مار على
كوبرى امبابة رسم مرور قدره مليمان ، وكالعاده سارع بعض الناس لاستغلال
الآخرين . فقرروا منافسة كبارى الحكومة بكبارى قطاع خاص . وهكذا
سارعوا بشراء عدد من القوارب المستعملة والمتواضعة وحولوها الى معديات
كانت تعبر النهر من تحت الكوبرى ، وتحمل الناس وأمتعتهم وتنقلهم مقابل
رسم قدره مليم واحد فقط .

أيامها كانت امبابة منطقة ريفية تنقل للقاهرة حاجتها من الخضروات
والبيض والسمن ، وكان يسكنها كثيرون ترتبط مصالحهم بالمدينة الأم ،
وهكذا ازدهمت المعديات وراجت سوقها . ولم تهتم مصلحة السكة الحديد ،
التي كانت تحصل على رسم المليمين ، بهذه المنافسة التى شنها القطاع
الخاص . فقد كان هناك كثيرون يمرن على الكوبرى ويدفعون الرسم المقرر .

وحدث فى أكتوبر ١٨٩٢ أن كانت احدى المعديات تمر تحت الكوبرى ،
وكانت تحمل ستين فلاحا بأحمالهم وهمومهم وبخير الريف الذى ذهبوا
يتاجرون به فى المدينة الواسعة ، ويعد أن قبض صاحبها ستين مليما رسم

المرور بدأ رحلته إلى الضفة الأخرى للنهر ، وفي وسطه تماما ناعت. المعديّة
يمن تحملهم وانقلبت في النهر . فلم ينجو من ركابها سوى سبعة فقط وغرق
الباقون في النهر . وثارت الصحف ونددت بمصلحة المسكة الحديد التي تريد
أن تكسب حتى من الكبارى ، وتساءلت عن مبرر الرسم الذي تحصله وماذا
يضيف إلى ميزانيتها وحملتها مسئولية ضياع حياة هؤلاء الفقراء ، إذ لو لم
يكن الرسم فوق احتمال الناس ، لما ألقوا أنفسهم بين براثن هذه الكبارى
غير الحكومية ، ولما ضاعوا بلا ثمن .

وأثمرت الحملة ثمرتها . . . فبعد ستة أشهر صدر أمر عال من الخديو
« عباس حلمي الثاني » بإلغاء رسوم المرور على الكبارى في جميع أنحاء
القطر المصري . . . وأفلست كبارى القطاع الخاص .

شيخ الحارة والامبريالية

كان عمره قصيرا كعمر الزهور لكنه كان عميقا وضاربا في الجذور
ككل الأشجار العمرة ، ترك في حياة هذا الشعب أثرا لا تمحوه الأيام ، وصنع
معجزة حقيقية :

جنود مجهولون لا يعرفهم أحد ساندوه ، صدوا عنه حراب دولة كبرى ،
كان يحاربها بلا سلاح . . . لا يملك إلا مقالات يكتبها وقصائد من الشعر وخطبا
بليغة ، ومجهودا مضنيا في عواصم العالم ، ووعيا سياسيا عظيما يؤكد نكاء
شعبه وقدرته الفائقة على التقاط الخط الصحيح في أكثر السنوات ظلما
وظلما .

واحد من هؤلاء الذين ساندوه اسمه « الشيخ محمد زايد » . . . وظيفته :
شيخ إحدى حارات حي الخليفة في القاهرة عام ١٨٩٦ .

أيامها كان « مصطفى كامل » في أوروبا يشن الغارة على الاحتلال ،
وفكر المحتلون في وسيلة يحاربونه بها ، فهداهم تفكيرهم إلى تجنيده في
الجيش ، وكان الجيش آنذاك تحت سيطرة الانجليز ، يأتمر بأمرهم . . . وتجنيده
« مصطفى كامل » وسيلة لضربه في الضميم يمنعه من العمل السياسي من
جهة ، ويضعه تحت إمرة أعدائه من الضباط الانجليز من جهة أخرى .

وأوعز « رئيس مجلس القرعة » إلى مأمور قسم الخليفة أن يعمل كل ما فى وسعه لتبليغ اعلان اقتراح « مصطفى كامل » لأحد أفراد عائلته ، حتى اذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الاعلان يكون اقتراحه واجبا كما تقتضيه القوانين ، وسلم الاعلان بالفعل للشيخ « محمد زايد » - شيخ الحارة - بين الاعلانات الأخرى ، ولأن الشيخ لا يعرف شيئا عن المكيدة ، فقد توجه إلى منزل « مصطفى كامل » وسأل عنه أحد الخدم فقال له أنه فى أوروبا ، وحفظ الشيخ الاعلان فى جيبه اعتمادا على قرب حضوره ليسلمه له بنفسه .

ومضت الشهور الثلاثة ، وعاد « مصطفى كامل » ليفاجأ بدعوة تطلبه للمثول أمام مجلس القرعة العسكرية لحلول موعد تجنيده لأنه لم يبد أقل معارضة بعد الاعلان الذى أرسل إليه .

وانهمك مصطفى كامل فى دراسة قوانين القرعة ، فوجد أنه يجب عند عملية الاقتراح بأى قسم ، اعلان ذلك بالوقائع المصرية ، وتعليق أسماء المقترعين بلوحة فى القسم التابعين له ، وارسال اعلان خاص لكل مقترح ، أو لمن لهم به أية علاقة من أهله أو من خدمه .

بمقتضى ذلك كانت شهادة شيخ الحارة هى الفيصل فى الموضوع ، ولهذا استدعاه « مصطفى كامل » وشرح له الموقف ، وطلب منه أن يشهد بما اذا كان قد سلم اعلان اقتراحه لأحد من أهله ، وهل علقت أسماء المقترعين فى قسم الخليفة . فقال له شيخ الحارة على الفور :

- ما حصل شىء من هذا .

وتحمس لأن تكون شهادته مكتوبة ، وكتبها بالفعل .

وتوجه « مصطفى كامل » إلى مجلس القرعة ، وقدم الشهادة التى كتبها شيخ الحارة ، ولما رفضها رئيس المجلس بحجة ورودها بعد الميعاد ، تركه « مصطفى كامل » قائلا :

- افعل ما شئت .

فى اليوم التالى صدرت جريدة « الجورنال اجبسيان » المسائية فى الصباح خصيصا لتشرح المسألة ، وطيرت وكالة « هافاس » النبأ إلى أنحاء أوروبا ، وقامت القيامة .

وهكذا أفضل شيخ الحارة مؤامرة الامبريالية العالمية .

باللو فى قصر أفندينا

كان أفندينا « عباس حلمى الثانى » يهوى حفلات الرقص الأوربى ، وكانت تعرف أيامها بحفلات (الباللو) وهى كلمة ايطالية بمعنى حفلة راقصة .

وكان أفندينا أخصائيا عظيما فى مسألة « الباللو » هذه . بمعنى أنه كان نصابا ومحتالا يبيع الرتب والنياشين ، ويسرق ايراد الأوقاف ، وكان شهرها للمال بشكل مرعب ، وقد أخرج شرهه هذا كل القوى الوطنية التى تحالفت معه فى تلك المرحلة بسبب موقفه المعادى من الاستعمار ، والذين كانوا يخجلون عندما كان اللورد كرومر - ممثل الاحتلال الانجليزى - يشهر بالخديو لأنه يسرق استحقاق مصريين فقراء فى وقف خيرى يتنظر عليه ، ويسرح مجموعة من السماسرة يعلنون فى كل مكان عن أسعار البيكوية والباشوية حتى فقدت الألقاب الرفيعة قيمتها أيامها من فرط ما عرضت للبيع فى الأسواق . وكانت حفلات « الباللو » هى الفرصة التى ينتهزها الخديو وسماسرته للتعاقد على كل ما كان يمارسه من باللو .

وحدث مرة فى عام ١٨٩٦ أن كادت احدى حفلات « الباللو » التى اقامها أفندينا أن تفشل بسبب حادث خارج عن ارادته .

فى ١٢ فبراير من ذلك العام ، دعا الخديو الى حفلة كبرى من هذا النوع ، وامتلا قصر عابدين بالدعويين والمدعوات من زهرات الجاليات الأوربية ، وكان من بين المدعويين « عثمان بك مرتضى » سكرتير نظارة الحقانية ، ويبدو أن « عثمان بك » قد أفرط فى الشرب ، فقد فوجئ به المدعوون يتقيأ على مشهد من كل أزهار وزهرات « الباللو » ، وعندما أحاط به البعض مشفقا عليه ليساعده على أمره ، فوجئوا به يقوم فيتبول علنا فى قاعة الرقص الفخمة ، ويحولها الى مرحاض عمومى .

وغضب الخديو غضبا شديدا وطلب من وزيره أن يأمره بالاستقالة من وظيفته ، وبالفعل استقال وقبيلت الاستقالة ، ولكثرة خصومه فقد أخذوا يغرون الخديو بالانتقام منه ، لا بنفيه ولكن بابقائه فى القاهرة ، وفى وزارة الحقانية ، مع تخفيض درجته الى وكيل أقلام بعد أن كان ناظرا للأقلام .

وعندما شاعت الحكاية فى الشارع ضرب المصريون كفا بكف ودهشوا من غضب الخديو على رجل قال رأيه الحقيقى فى هذا الباللو الذى يحدث فى قصر أفندينا .

الإنشاء وليس الثورة

فى عام ١٨٨٩ التحق « احمد لطفى السيد » بمدرسة الحقوق التى كانت وقتذاك مزيجا من كليتى الحقوق والآداب ، اذ كان طلبتها يدرسون فيها الى جانب العلوم القانونية ، علوما أدبية كالنحو والصرف وآداب اللغة ، وتفسير القرآن ، وآداب البحث والمناظرة والمنطق .

وخلال فترة دراسته كان « لطفى السيد » يكتب فى الصحف ، ويعاون « المؤيد » فى ترجمة تلغرافاتها الخارجية ، ويهتم بالقراءة فى الفلسفة والتبشير بالآراء الديمقراطية ، ويثير مناقشات فى ذلك كله وسط زملائه من طلبة المدرسة . وقد أنشأ وهو طالب « مجلة التشريع » وخصصها للتبشير بالآراء الليبرالية فى اصدار القوانين ، ملحا - ومطالبيا - بأن تكون تعبيراً عن الأمة وليس عن الحكومة .

وكان السبب المباشر فى اصدار هذه المجلة حوارا دار بينه وبين « الامام محمد عبده » الذى كان عضوا فى لجنة امتحان العلوم العربية المقررة على طلاب مدرسة الحقوق ، ففى امتحان السنة الثالثة طلب الامام من الطلبة أن يكتبوا موضوع انشاء عن « حق الحكومة فى معاقبة الجانى » وتناول « لطفى السيد » فى اجابته ، عرضا لكل المذاهب التى كتبها علماء الجنائيات فى هذا الموضوع ، والشروح التى قدموها لمواد قانون العقوبات ، ونقد كل هذه المذاهب ورفضها لأنه كان من المتأثرين بأراء « روسو » عن العقد الاجتماعى ، وهو ما دفعه الى القول فى اجابته بأنه ليس لأى حكومة مصرية الحق فى معاقبة أى جان مهما فعل ، فالحكومة المصرية وقتها نشأت بالقوة ، وليس من خلال عقد اجتماعى وقعه الحاكمون والمحكومون .

وعندما خرج « لطفى » من الامتحان أخذ يقارن اجابته باجابة زميله « محمود عبد الغفار » ، الذى ما أن عرف ما كتبه « لطفى » حتى أخذ يضرب كفا بكف ، مؤكدا له انه سيأخذ صفرا مكعبا على هذا الجواب ويؤنبه على فلسفته التى ستنهدب به فى داهية .

وأثارت كلمات محمود عبد الغفار القلق فى نفس لطفى السيد ، وبات متأكدا من سقوطه ، ودخل الامتحان الشفهى بهذه الروح ، وما أن جلس أمام اللجنة التى كانت تضم المشايخ : محمد عبده وحسن الطويل وعبد الكريم سلمان حتى قال له الأستاذ الامام :

- لقد صححت لك اجابتك فى التحريرى ، وأعطيتك أعلى درجة . .
لا على ثورتك على الحكومات ولكن على الانشاء .

وخرج لطفى السيد لينشئ مجلة « التشريع » محاولاً أن يأخذ بها أعلى درجة فى الثورة ، وليس فى الانشاء .

مجلس الأئس الهنى

فى يونيو ١٨٨٢ وقعت مذبحة الاسكندرية الشهيرة أثناء الثورة العرابية ، وكان بطل هذه المذبحة هو عمر لطفى محافظ الاسكندرية آنذاك الذى تأمر مع الخديو توفيق ضد عرابى ، وبعد الاحتلال أصبح عمر لطفى وزيراً للحربية ، ثم عين رئيساً لمجلس « شورى القوانين » وكان هذا المجلس مؤسسة صورية أنشأها الاحتلال بديلاً للمجلس النيابى الديمقراطى والوطنى الذى عاش فترة قصيرة أيام الثورة العرابية .

وكانت روح السخرية والتجريح قد انتشرت بعد هزيمة الثورة العرابية ، وتبع هذا صدور أكثر من عشرين صحيفة ومجلة هزلية كانت تسخر من الاحتلال وعملائه ومؤسساته وخاصة مجلس الشورى .

وفى عام ١٩٠٠ نشرت مجلة « الخلاعة » هذه الفقرة تسخر فيها من مجلس الشورى ورئيسه وأعضائه وقالت :

— انه فى يوم زى وش الأبعد ، أنا محضر محكمة « هزياون » ، قد انتقلت الى محل اقامة رئيس مجلس الأئس الهنى الشهير باسم شورى القوانين ، وأعلنته أن يدفع للطالب ، الملى هو أنا ، مبلغ وقدره خمسين حمار حساوى ، وفاء للحكم الصادر ضده ، فى جلسة يوم ماطلعتلوش شمس ، ولما زمجر وبرطم ، وتمتم وطمطم ، أوقعت الحجز على المنقولات الآتية :

عدد ٦ لسان انجليزى مزركش بالذهب الابريزى ، طول شير ونصف ، مسحوب على الوطنيين ولا الخساليين . عدد ٢٥ عضو خشب لطان منجدين بالسلك وعلى كل منهم مخدة ولحافين عليهم العين . عدد ١٨ بطانية محلاوى وبر النعام ، يتغطى بها المجلس عندما ينام ، مقاس ٣٠ قلم فى ستين داهية . عدد ١٥ شلوات عثمانلى بالترتر . عدد ٣٠ عفرية انجليزى راكبين على أنفاس الأعضاء وحاطين مناخيرهم فى الأرض بعد ما كانت فى السما ، وحده لبيع هذه الأصناف يوم ماناكل العيش الحاف ، فعلى راغب الشراء الحضور بدون دستور .

وأهل مصر - كما يقول ابن اياس - لا يطاقون من ألسنتهم اذا أطلقوها
فى حق الناس .

الأقباط فى الأزهر

تدعمت العلاقات بين الأقباط والمسلمين فى مصر ، فى فترات مختلفة
من التاريخ . الى درجة أن شملت هذه العلاقات كافة مجالات الحياة
دون عقد أو حساسيات .

وعلى مشارف القرن الماضى ، كان الأقباط يتلقون تعليمهم على يد
علماء من المسلمين ، فيتعلمون عليهم الأدب والنحو والمنطق . بل ان عددا
من كبار أديباء الأقباط وشعرائهم قد تعلموا فى الأزهر الشريف ، ومن هؤلاء
« ميخائيل عبد السيد » صاحب جريدة « الوطن » ورئيس تحريرها ، الذى
كان يهتم بأبناء تردد الأقباط على الأزهر وشجعهم على أن يدفعوا أبناءهم
اليه ليتلقوا العلوم المنطقية والشرعية ، وقالت الجريدة فى خير نشرته عام
١٩١٤ أن هناك عددا كبيرا من الأقباط يترددون على حلقات الدروس المختصة
بعلوم المنقول والمعقول فى الأزهر ، وقالت ان بعضهم قد برع فيما تلقوه من
دروس المنطق والنحو والصرف .

ومن المعروف أن المذهب الحنفى يجيز تلقى أهل الذمة لعلوم المسلمين
وفى معاهدهم ، ومن هنا تلقى عدد كبير من الأقباط العلم فى الأزهر ، الى
الدرجة التى استمر فيها ميخائيل عبد السيد يدرس فيه وانتقل الى دار العلوم
ليدرس لطلبها ، وقد درس به أيضا تادرس وهبى ، وهو من أشهر شعراء
الأقباط ، وكان يحفظ القرآن ويفهمه ويكثر من الاقتباس منه فى خطبه وأحاديثه
وكتاباته . وكان يحفظ كذلك الأحاديث النبوية .

وفى عام ١٩٠٢ ظهر وجه فرنسيس العتر ، فى مجلس الشيخ محمد
عبد ، وكان الشيخ يحبه ويقربه ويرحب به ، ويتيح له فرصة للاشتراك فى
المناقشات الأدبية والفقهية .

وكان بعض الأقباط يلتحقون للدراسة بالأزهر بأسماء اسلامية ، ومنهم
جندي ابراهيم ، وهو صحفى مشهور ، وقد درس بالأزهر تحت اسم الشيخ
« ابراهيم الجندي » .

ومن أشهر المساسة الأقباط الذين تأثروا بالثقافة الاسلامية ، مكرم عبيد
الذى كان يستخدم أسلوب القرآن الجزل فى خطبه وأحاديثه ومقالاته ، وكان
من أكثر الأقباط - مساسة وأدباء - قراءة للقرآن الاسلامى ، وتأثرا به .

هالو •• بوبى

فى زمن الاحتلال الانجليزى لمصر ، كان كل شىء مصريا بالاسم ••
انجليزيا بالفعل : على رأس كل وزارة وزير يحمل الجنسية المصرية ، يلبس
طربوشا مصريا فوق رأس انجليزية التركيب بالانتماء أو الخوف •• وكان
الخوف عادة هو وكيل الوزارة أو مستشارها الذى كان انجليزيا بالجنسية ،
مهمته أن يعقل لسان أى وزير لئلا يصاب بنوبة طارئة من الوطنية أو على
الأقل من احترام الذات •

أيامها كان لوكيل وزارة الزراعة الانجليزى كلبا مدللا ، وكانت هوايته
الدخول الى مكتب الوزير ومعه كلبه ، ويرغم أن الوزير كان يتضايق من
دخول الكلب الى مكتبه ، فانه كان يتحمل الاهانة صاغرا وخاصة أن الوكيل
كان يفعل ذلك أمام الموظفين فيمر بردهاات الوزارة ساحبا الكلب الى مكتب
الوزير •• وحاول الوزير أن يظهر أمام موظفيه بمظهر الرجل القوى ، فقال
لهم مرة :

- اننى أحتج كل مرة على دخول الكلب مكتبى وأجبر الوكيل على
إبقائه وراء المسائر الموجود فى الغرفة •

وسمع موظف من دلاديل الانجليز هذه القصة ، فنقلها الى الوكيل
الانجليزى ، الذى فتحت القصة - ولو أنها مكتوبة - عينه على أن كلبه
العظيم لا يعامل معاملة ممتازة تليق بكلب ممثل بريطانيا العظمى التى كان
اقتصاد مصر كله تحت سيطرتها ، وينبغى لهذا أن يكون أهلها أقل من كلاب
المحتلين •• وعلى الفور رسم الوكيل خطة لتأكيد هبة كلبه ومكانته الممتازة •

فى اليوم التالى دخل الوكيل الانجليزى الى مكتب الوزير ساحبا كلبه ،
وانتحل الموظف الدلدول عذرا أتاح له أن يدخل مكتب الوزير ليعرض أوراقا ••
وبينما أنهمك الوزير فى توقيع الأوراق قام الوكيل الأحمر فأزاح جانبها من

الأوراق ثم ضرب بيده الكلب فقفز على مكتب الوزير متربعا عليه ، وكان المنتظر أن يغضب الوزير أو يتجهم وجهه أو يسكت ، وهو أضعف الأيمان ، لكنه نسى أكاذيبه ، التي راح يروج بها لهيبته المصطنعة عن رفضه القوى لكلب الوكيل ، ونسى الموظف الذى طالما روى أمامه هذه الأكاذيب . . . وقام بوقار وانحنى على الكلب ، يداعبه قائلا :

- هالو بوبى !

الكلب الانجليزى

ما أكثر ما تحمل الشعب المصرى من اذلال الاستعماريين وعنجهيتهم . . . فبعد اجهاض الثورة العرابية وقعت السلطة بالكامل فى يد انجلترا : كان الوكيل الانجليزى لوزارة الزراعة على مشارف القرن يقتنى كلبا يدلله ويصر على أن تكون له هيئته ومكانته التى يستمدها من جنسيته الانجليزية والتي تجعله - رغم أنه مجرد كلب - فى مكانة أعلى من مكانة كل موظفى وزارة الزراعة من المصريين .

وكثيرا ما كان الوزير الانجليزى يستمرىء الكسل ولا يذهب الى الوزارة ويكتفى بالجلوس فى نادى الجزيرة ، ويرسل الكلب وحده للوزارة ، ومعه عصاه فى فمه وقبعته فوق رأسه . ويصل الكلب الى مبنى الوزارة ويعرف طريقه الى مكتب سيده ، فيدخله ويضع العصا التى فى فمه على المكتب ويحتفظ بالقبعة على رأسه .

فى بعض الأيام كان الوكيل يصل بعد الكلب ، وفى احيان أخرى كانت الجلسة فى نادى الجزيرة تجتذبه فيظل ينتقل من ملعب الى ملعب ، ويظل الموظفون المصريون فى وزارة الزراعة فى مكاتبهم ، لا يجسرون على مغادرتها طالما أن السيد الكلب جالس فى مكتب السيد الوكيل ، وحين يتنبه الوكيل الى الوقت ويغادر نادى الجزيرة ، ويصطحب كلبه الى الخارج ، كان الوزير المصرى يرفع سماعة تليفونه ويسأل سكرتيره :

- هو الكلب نزل ؟

فاذا رد السكرتير بالاجاب اطمأن الوزير ، وغادر مكتبه وبعده باقى الموظفين المصريين من السكرتير العام الى اصغر كاتب !

الفلاحون والفواتير

حتى الآن ما زالت بعض أحياء القاهرة تضم عمارات من أطرزة متعددة اسمها « عمارات الخديو » وكلها أنشئت لحساب الخديو « عباس حلمي الثاني » ، الذي كان تاجرا ناجحا ومستثمرا عبقريا ، يعرف كيف يكسب القرش وكيف يحافظ على المليم ، فقد كان شرها في قبض النقود بخيلا في صرفها ، لدرجة أن زوجته الأوربية وصفته فقالت انه كان من النوع الذي لا يسرب الماء من بين أصابعه .

وبدأب شديد نذى الخديو الشاطر ثروته ، واستطاع بجهد أن يملك « تفتيش ادفينا » و « تفتيش الاسماعيلية » وكانت كلها أراضى جرداء ، لكن مركز الخديو ومكانته وسلطة الدولة منحته فرصة دائمة لكى يجد فلاحين فقراء يقبلون العمل بأى أجر ، وغالبا بلا أجر ، لكى يحيلوا الأراضى الصحراوية والملحة الى أرض خصبة يأكلون منها ما يعينهم على مجرد الوجود، ويكسب منها جلالته ما يمكنه من السياحة فى بلاد العالم والتمتع بكل خيراته وملذاته . وبلغ من بخل جلالته أنه كان يرفض اعطاء الملابس القديمة للفقراء من أتباعه ، بل يأمر بتكريب بطانات ورقع جديدة لبعضها كى يلبسها .

وكان يكثر من ترديد عبارة : اننى أعرف كيف أحافظ على المال ، وبيالغ فى الاهتمام بمشاريعه العمرانية والتجارية ، ويضع فى بداية كل عام ميزانية لمشروعاته المعمارية فى القاهرة ، ويمقتضى تخطيط طويل الأمد ، حرص على أن ينشئ فى كل عام عمارة ، حتى أصبح يملك أحياء بأكملها ، وكان يخرج فى بعض الليالى فى المساء متنكرا مع زوجته للاشراف على ما تم من البناء ، فيصعد أفندينا السقالات ، ويتنقل فوقها بخفة مدهشة ، وكان اذا مر على عمارة أدرك عيوبها على الفور . ساعتها كان يصدر أوامره للمهندسين والمقاولين بما ينبغى عليهم عمله .

ولأن مال الكنزى للنزهى ، فان ما سفحه عباس باشا من دم الشعب المصرى ، كان يتبدد على يد بعض المحيطين به ، ومنهم زوجته الأوربية التى أدركت مدى بخل زوجها وكانت تتعامل معه يفهم نكى لسيكولوجية الرجل البخيل ، الذى يهتم عادة بالتفاصيل أكثر من اهتمامه بالكليات ، ويزعجه المليم أكثر مما يزعجه القرش ، فقد كان ينزعج بشدة اذا ما اشترت - وهما فى باريس - زهورا بخمسة فرنكات ، ويسعد اذا ما أخذت الزهور بلا مقابل ، وسرعان ما أدرك أصحاب بيوت الأزياء بباريس اللعبة ، فأذا حط الركب الخديوى السعيد رحاله فى بلد النور ، تقاطروا يعرضون ما لديهم من قبعات وفساتين وعبور ، وأهدوا الخديو وزوجته زهورا مجانية ، كان الخديو

يسعد لأنها بلا ثمن ، فلا يتنبه لما تطلبه الزوجة من ملابس ومهمات ، ولأن أصحاب مصلات الأزياء كانوا خواجات من النوع الذى تمرس على نهب أموال الشعوب الفقيرة التى يبدها حكام شديدي السفاهة ، فقد أدركوا على الفور أن الخديوى من النوع الذى تزعه المفردات أكثر مما يزعه المجموع الكلى ، كان لا يهمنه مثلا أن يدفع مائة ألف فرنك ثمن ملابس لزوجته ، ولكنه اذا قرأ فى الفاتورة أن أحد الفساتين يساوى ٨٧٥ فرنكا فإنه يرى أن هذه الفرنكات زيادة عن اللزوم ، وبالاتفاق مع الزوجة الأوربية الأصل كانوا يضعون أثمان المفردات دائما بالبسط الصغير جدا بحيث لا يراها الخديوى . فيدفع المجموع الكلى دون ألم ، تاركا الشقاء للفلاحين الفقراء ، يصلحون له الأرض لتبدها عصايات الخواجات .

المستشار بوند

عندما يدخل المحتلون من الباب تخرج كرامة الوطن من النافذة ، ذلك أن المستعمرين يعملون دائما بعقلية من لا يقبلون أن يمس أحد شخصيتهم . فى بداية القرن كان « يحيى ابراهيم باشا » رئيسا لمحكمة الاستئناف ، وكان القاضى الانجليزى مستر بوند وكيلها ، وكالعادة أصبح المستر بوند هو الرجل الأول فى المحكمة .

وحدث أن خلا منصب أحد المستشارين ، وعلى عكس المتبع ، قامت السراى بترشيح خلف له من رجالها هو توفيق رفعت ، وثار « المستر بوند » لأن فى ذلك تعديا على اختصاصاته إذ كان هو الذى يرشح المستشارين . لكن مجلس الوزراء عين توفيق رفعت بضغط شديد من الخديو ، وأراد بوند أن يزد اللطمة فعين المستشار الجديد عضوا معه فى دائرة النقض والابرام ليكون تحت رئاسته المباشرة وليتاح له أن يثبت تفوق جنسه الانجليزى وسيطرته على كل عبيد الاحتلال من المصريين .

وكان توفيق رفعت يجهل كل هذه الضجة التى أثارها تعيينه ، وظن أنه قوى لصلته بالسراى فأخذ يعمل بشكل طبيعى ، الى أن كلفه بوند بكتابة حيثيات الحكم فى قضية هامة ، فكتبه مجتهدا ، وفوجيء فى اليوم التالى برئيس دائرة النقض يستدعيه ، ويناقشه مناقشة قانونية خشنه ، وأخذ صوت المستر بوند يعلو شديدا فشيئا ، وبدأت لهجته تحتد حتى امتعض رفعت وقال :

- لا لزوم لهذه الحدة يا جناب الوكيل فالمسألة مسألة نصوص وتطبيق ،
فلنعرض الخلاف على زملائنا أعضاء الدائرة ليقرروا أيننا المخطيء وأينا
المصيب .

وعز على الانجليزى المتفوق أن يكون رأيه محل نقاش ، فضرب مكتبه
بقبضة يده وصاح :

- ان ما تقوله كلام مغفلين !

وثار **توفيق رفعت** وخرج يعلن انه سيستقيل اذا لم يعتذر له
« **المستر بوند** » ، وكتب تقريراً بالحادثة الى ناظر الحقانية ، وأعلن أنه لن
يجلس فى دائرة **مستر بوند** ، الا اذا قدم اليه اعتذاراً كاملاً صريحاً أمام
جميع مستشارى المحكمة مجتمعين فى هيئة جمعية عمومية .

واجتمعت الجمعية العمومية لمستشارى محكمة الاستئناف . ووقف
المستشار الانجليزى لا ليعتذر ولكن ليقول بصلافة أنه يقدر زميله **توفيق رفعت**
كل التقدير .

وفتح المصريون أعينهم ذهبوا من عنجهية المستعمرين ، وهوان الذين
يقبلون التعامل معهم .

بلاوى الناس

صدر أول قانون للمطبوعات فى مصر عام ١٨٨٢ ، وفى أوج شهور
الثورة العربية ، والغريب أن هذا القانون كان يتضمن قيوداً شديدة على
حرية الرأى ، وفى حين كان المنتظر أن تتصدى له العناصر الديمقراطية التى
قامت بالثورة وتمنع صدوره ، فقد كانت هى التى تحملت مسئولية إصداره
وسط ظروف معقدة وبضغط عنيف من السراى ، وكانت أول صحيفة عطلت
تطبيقاً لهذا القانون هى (الطائف) جريدة الثورة التى كان يصررها
عبد الله البنديم .

بعد حوالى ربع قرن فكرت الحكومة فى إصدار قانون جديد للمطبوعات
يمنع نشر الدعوة الى الثورة ومعاداة الاحتلال ، وثار الصحف ، واحتج
السياسيون ، ووسط هذه الضجة كتب المحامى الكبير **عزيز خانكى** مقالا

طريفا ، ذكر فيه المتصارعين بالمثل الشعبي الذى يقول « ان من رأى بلانيا
الناس تهون عليه بليته » ، فقال ان هناك لائحة للمطبوعات كان معمولا بها
فى تركيا على عهد ديكتاتورية السلطان عبد الحميد خان ، ونشر نصوص
هذه اللائحة المضحكة ، وكانت من تسعة بنود ، تنص على « أن يحسن نشر
كل ما يتعلق بصحة مولانا السلطان ، وتقدم حالة الزراعة والتجارة والصناعة
فى الممالك الشاهانية ، والولايات العثمانية ، ولا يجوز تذييل الجرائد
بقصص الا اذا وافقت الأخلاق ، وصادق عليها وزير المعارف العمومية ،
ولاحتمال غلق الجريدة ، فجأة ، فانه لا يجوز نشر المقالات الطويلة التى
تنتهى بكلمة « البقية تاتى » أو « البقية غدا » كما لا يجوز ترك بياض أو وضع
بياض نقط بين الكلمات منعا للظنون أو التأويلات » .

ونصت اللائحة على انه « لا يجوز الكلام على كبار الموظفين ، فاذا بلغ
الجريدة أن أحدهم سرق أو اختلس فعليها أن تجتهد بستره قدر الامكان » ،
ومنعت اللائحة منعا مطلقا نشر عرائض الأهالى والطوائف ، كما انها منعت
نشر حوادث الاعتداء الذى يقع على أشخاص الملوك فى البلاد الأجنبية ،
مهما كانت الظروف التى تفترن بالحادثة ، ولا يجوز الكلام على المظاهرات
والثورات التى تحدث فى الخارج ، لأنه ليس من حسن السياسة أن يعلم
رعايانا المخلصون بوقوع مثل هذه الحوادث .

وفى ديوان السلطان العثماني ، كان هناك موظف اسمه « المكتوبجى » ،
مهمته أن يفحص ويراقب الصحف . وتطبيقا لبنود اللائحة جرى المكتوبجى
على حذف كلمات مثل : ثورة وحرية ودستور وظلم وحقوق الأمة .

وحدث عندما بدأت ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية فى روسيا ضد
القيصرية ، أن عرضت احدى الصحف على المكتوبجى خبرا عن الثورة ،
فوجده يحوى كل الكلمات التى تحرمها اللائحة مثل (الدستور والحرية
والظلم والطغيان) فشطبها جميعا ، ولم يبق من الخبر سوى سطر واحد
نشرته الصحيفة فى اليوم التالى وكان نصه : « حدثت أمس مشاجرة فى
روسيا » !

وكان أطرف بند فى لائحة المطبوعات العثمانية ، بندها الأخير الذى
يقول : انه لا يجوز نشر هذه اللائحة فى أعمدة الجرائد كى لا يندد بها
أصحاب الأفكار المشوشة .

على هذا كله علق « عزيز خانكى » قائلا : أن من يعرف ألم المرض
يقدر قيمة الصحة ، ولعله قصد أن يقول : أن من رأى بلاوى الناس هانت
عليه بلوته .

ويركو الأستانة

فى عام ١٩٥٥ - وبعد ثلاث سنوات من ثورة يوليو - دفعت مصر آخر

قسطين من نصيبها فى ويركو الأستانة .

وهذا « الويركو » هو الضريبة التى فرضها العثمانيون على مصر عندما سنقت تحت سننابك السلطان العثمانى سليم الأول فى عام ١٥١٧ م . فأصبحت ملزمة كواحدة من ولايات الامبراطورية العثمانية أن تدفع سنويا جزية للباب العالى ٥٠ وكانت هذه الجزية مئثار حروب وكروب بين أمراء الممالك والسلطنة العثمانية ، فبعد أن تدهورت سلطة العثمانيين ، وارتخت قبضتهم على مصر ، سارع أمراء الممالك بمنع الجزية ، ورد الباب العالى بتجريد حملات تأديب عسكرية على الممالك ، كانت تنتهى بدفعهم الويركو من جديد .

وكان مفروضاً أن تسقط الجزية عن مصر بسقوط سيادة تركيا عليها ووضعها تحت الحماية البريطانية ، فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ ، فقد كانت تركيا تتقاضى تلك الجزية مقابل التزامها بحماية مصر والدفاع عنها عند اعتداء دولة أجنبية عليها ، ومقابل تمثيلها سياسيا فى الخارج ، وهو ما انتهى كله بإعلان الحماية . الا أن الحكومة المصرية لم تلتفت الى هذا الأمر وظلت تدفع أقساط الدين بسبب تعهد سابق بدفعها ، وقعه الخديو توفيق ، غفر الله له ما ارتكب من آثام فى حق شعب مصر .

وما حدث هو أن تركيا فى عام ١٨٩١ أرادت أن تستدين من بنك روتشيلد وأولاده فى لندن وباريس مبلغا من المال تسدد به ديونا استحققت عليها وعجزت عن دفعها . فقبل آل روتشيلد اقراض تركيا المال ، ولكنهم اشترطوا أن تتعهد مصر بأن تدفع أقساط هذا الدين خصما من الجزية المفروضة عليها ، وأصدر السلطان العثمانى « عبد الحميد » أمره الى الخديو توفيق بذلك ، وأصدر هذا تعهدا على نفسه بأنه يقبل دفع مبلغ ٣٨٠ر٦٢٢ جنيها سنويا الى آل روتشيلد لمدة ٦٠ سنة ، من « ويركو مصر الواجب علينا وعلى خلفائنا - فى الحال والاستقبال - دفعه الى الحكومة العثمانية » ، وزاد فقال : « على أن يدفع هذا المبلغ ذهبيا » ، وأهمل النص فى تعهده على أن دفع الأقساط يكون معلقا على استحقاق الجزية ، واستمر السلطان العثمانى اللعية فافترض من « آل روتشيلد » مبلغا آخر فى عام ١٨٩٤ ، وأمر الخديو عباس حلمى الثانى بالتعهد بدفعه ، وهكذا ارتفع القسط الذى تدفعه مصر للخوارج نيابة عن تركيا الى ٣٢٩ الف جنيه القسط الذى تدفعه مصر للخوارج نيابة عن تركيا ٥٠ وحتى عام ١٩١٥ كانت مصر قد دفعت ١٤ مليون جنيه قيمة التعهدين .

ورغم سقوط السيادة التركية ، فقد استمرت مصر فى الدفع ثمانى سنوات أخرى دفعت خلالها خمسة ملايين جنيه ، ثم تبهت الحكومة لذلك فى عام ١٩٢٤ - وبعد ثورة ١٩١٩ - فأصدر مجلس النواب قرارا بالكف عن دفع أى قسط لتركيا ، وقال « سعد زغلول » رئيس الوزراء فى المجلس :

— ان مصر لن تدفع شيئا منذ الآن .

ولأن « روتشيلد » خواجه ، وفى مصر وقتها محاكم مختلطة يلبس قضاتها قبعات ، فانه بدلا من أن يعود الى تركيا مطالبا اياها بما استدانته منه ، سارع برفع دعوى أمام المحاكم المختلطة ، مطالبا بالزام مصر بأن تدفع لهم أقساط الدين من أولها الى آخرها ، وردت الحكومة بأن المحاكم المختلطة ليس من حقها أن تحكم فى أعمال الحكومة التى تجريها بموجب سلطتها العامة ، ورفضت المحكمة دفع الحكومة ، وحكمت بالزامها بأن تدفع الى « روتشيلد » جميع أقساط الدين التى تنتهى فى عام ١٩٥٥ .

وهكذا أجبر عدل الخواجهات مصر على دفع ٢٣ مليوناً من الجنيهات اقترضتها تركيا من « آل روتشيلد » الكرام .

وذلك هو العدل عندما يلبس قبعات !!

آداب العرش

كانت العلاقة بين « الامام محمد عبده » و « الخديو عباس حلمى » علاقة شديدة التعقيد ، تكشف بعض من فصولها عن عديد من الغرائب .

كان الأستاذ « الامام محمد عبده » قد عاد من المفنى بأفكاره الإصلاحية ، ورأى أن هناك بعض الادارات الحكومية التى لا يستطيع المختلون التدخل فيها ، بسبب صبغتها الدينية ، هى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، ولذلك أشار على الخديو أن يبدأ باصلاح الأزهر ، وقدم له مذكرة بذلك ، وبدأ تعاون وثيق بين الاثنين فى هذا الصدد سرعان ما انتهى الى خلاف فى وجهة نظرهما الى الأمور .

ومن أهم أسباب الخلاف بينهما ، أن الخديو كان يتنظر على أوقاف أهلية وخيرية كثيرة ، بالإضافة الى تنظره على أوقاف أسرته ، وكانت حسابات كل هذه الأوقاف متداخلة ، وكان من ضروب الاصلاح التى اقترحها

الشيخ محمد عبده أن يفصل بين حسابات هذه النظارات جميعا ، وهو ما انتهى بتشديد الرقابة على الميزانية وخضوعها لرقابة المجلس الأعلى للأوقاف . واهتدى الخديو الى طريقة يتغلب بها على هذا القيد فاخترع نظاما للاستبدال ينص على أن تصلح وزارة الأوقاف وتعمر بعض أراضيها ثم تعرضها للبدل ، فيبادلها الخديو - بعدئذ - بمزارعه التي لا تساويها في القيمة ولا في الجودة بالطبع .

وحدث أن عرضت وزارة الأوقاف أرضا للبناء في الجيزة للمبادلة ، وتقدم خواجه يوناني اسمه « زوفوداكي » يطلب مبادلتها بأرض له في مشتهر . وكان واضحا أن الموافقة على الصفقة غبن للوزارة ، إذ وصل الفرق بين السعيرين الى ثلاثين ألف جنيه ثبت بعدها أن هناك خمسين ألف جنيه فرقا آخر نتج عن انقاص تقييم أرض الجيزة ، وزيادة مدعاة في قيمة أرض مشتهر . . . والأنكى من هذا أن الخواجه « زوفوداكي » كان مجرد « قنطرة » يعمل لنقل الأرض بعد ذلك الى مولانا .

كان مولانا الخديو لصا ، لكن الأستاذ الامام كان له بالمرصاد ، فرفض الصفقة واغتاط الخديو وأضافها الى كشف سيئات الامام . . . لكن الرجل لم يصمت ولم يكف عن التصدي لشهره الخديو في الاستيلاء على أوقاف المسلمين .

عشرات من تلك الحوادث انتهت بقطع الصلة بين الرجلين . . . لكن الخديو كان صغيرا في خصومته ، فعندما مات الأستاذ الامام في عام ١٩٠٥ ، وسار « احمد شفيق باشا » رئيس ديوان الخديو في جنازته ، استنقز هذا « عباس حلمي » فسمح أدب العرش له أن يعاتبه على ذلك قائلا :

- انها جنازة حارة والميت كلب .

ثم قال :

- يظهر أنك أردت أن تجامل رجلا مات . . . وهو كما تعهده عدو الله ، وعدو النبي ، وعدو الدين ، وعدو الأمير ، وعدو العلماء ، وعدو المسلمين ، وعدو المجاملة !!

ادانة صاحب الحمارة !

أراد الأستاذ « الامام محمد عبيده » أن يسهل على المسلمين أمور دينهم ،
فتعرض له البلطجية والأفاقون وأثاروا عليه الدنيا .

ذات يوم وصل للاستاذ الامام - وكان مفتيا للديار المصرية - سؤال
من بعض مسلمي « الترانسفال » يسألون عما اذا كان يحل لهم أن يلبسوا
القبعة ، وأن يأكلوا من طعام أهل الكتاب ، وأن يؤديوا الصلاة خلف أى امام
أيا كان مذهبه . وشرحوا له ظروفهم . ان ازدحمت بلادهم بالأوروبيين الوافدين ،
واضطرتهم مطالب الرزق الى العمل معهم ومخالطتهم . . . وأفتى علماءهم بعدم
جواز لبس القبعة أو مآكلتهم . . . فابتدأ معظمهم يخالفون هذه الفتاوى بحكم
ضرورات الحياة . . . وانتهى الأمر بأن شق على المبشرين بالاسلام دعوة أهل
البلاد - وهم وثنيون - للدخول فى الاسلام وسهل الأمر على المبشرين
بأديان أخرى !

وأفتى الأستاذ أهل « الترانسفال » بأن ذلك كله مباح لهم بحكم القرآن
والسنة . وبرغم أن « الخديو عباس » وأتباعه كانوا جميعا يلبسون القبعات
اذا سافروا الى أوربا ، ويأكلون فى المطاعم الأوربية ، وفى بيوت الأجانب ،
الذين كانوا يشاركونهم الطعام فى الولائم الرسمية وغير الرسمية داخل
القطر المصرى وخارجه . الا أنهم استغلوا الفتوى للتشهير بالامام الذى أراد
أن يبسط للناس أمور دينهم ، وأن يلغى تناقضا وهميا بين الاسلام والحياة
فى تلك البلاد المبدائية البعيدة . كان وراء هذه الحملة الخديو عباس الذى
لم يغفر للاستاذ الامام أبدا أنه وقف ضد لصوصيته واتهمه بسرقة أموال
المسلمين .

وكعادة هذه الأنماط المنحطة من الناس ، فانها لم تهتم بالحوار الفقهى
حول فتوى أصدرها امام لا ينكر أحد مكانته العلمية ، ولكنها نقلت المعركة
الى مبادئ الافتراء على أخلاق الرجل . ان كان قراء الصحف يجهلون أن
الصور الفوتوغرافية يمكن تزويرها باتقان ، عن طريق ما يعرف (بالتروكاج) ،
وهو دمج عدة صور فوتوغرافية فى صورة واحدة ، وهكذا صدرت إحدى
المجلات وفى صدرها صورة للاستاذ الامام فى حلبة الرقص يخاصر فتاة
أوربية ، وكليها يعبث بأطراف جيبته . . . ورغم انه لم يكن من العادى أن
تصحب فتاة كليها فى حفلة رقص . فانهم لجأوا اليها مستغلين جهل الجمهور
بفنون التصوير .

وأثار نشر الصورة ضجة كبرى لأنها اتهم صريح للامام فى دينه وفى
مكانته ، ولذلك سارع الامام برفع قضية ضد صاحب المجلة التى نشرتها ،

وكانت من مجالات الفكاهاة والتشهير . واسمها « حمارة منيتى » ، وأحيلت الصورة الى التحقيق ، وكشف خبراء التصوير تزييفها . وصدر الحكم بادانة صاحب « الحمارة » وفضح المزورون ، وكادت المحاكمة تصل الى قصر القبة نفسه الذى دبرت فيه المؤامرة . لولا أن جهات التحقيق آثرت التستر .

المفتى والخديو

الامام محمد عبده - كسياسى - نموذج للشائر الذى ندم على ثوريتة كثيرا ، وكفر عنها طويلا ، لأنها كانت فوق طاقته ، ولأنه تورط فيها فوق قدرته ، وخلافا لجوهره .

كان منذ البداية معتدلا ، أيد حكومة رياض (١٨٨٠ م) ، ودافع عنها برغم انها كانت حكومة الانجليز ، وكانت تنفذ سياستهم ضد ارادة الأمة ، وعندما تفجرت الثورة العراقية ، أخذ منها موقفا محافظا فى البداية ، ثم نقدها ودعا الى الاعتدال ، وساند فكرة خروج الجيش من الحلية السياسية ، وعندما تازم الموقف ، وظهرت خيانة السرائ واضحة ، لم يستطع أن يغالط ضميره أكثر مما فعل ، فانضم للثوار وساندهم وتحمل معهم كل المسئولية .

وتجهض الثورة ، ويسقط الجميع فى يد الخديو والانجليز ، فيكون « محمد عبده » أول النادمين ، وفى سجنه يكتب قصيدة شهيرة يتبرأ فيها من كل شىء ، ويقضى ثلاث سنوات فى منفاه بببروت ، ثم يعود فيعلن توبته عن السياسة ويستعيد بالله من اسم السياسة ومن فعل السياسة ومن « سياس ويسوس وسنايس ومسوس » ، ويقرر أن يهب حياته للإصلاح والتعليم ، وهو يعلم جيدا أن الإصلاح فى بلد محتل لا معنى له ، لأنه مجرد تزيين لواجهة البيت المخرب من الداخل .

ويُدفعه موقفه ذلك الى صداقة اللورد كرومر - عميد الاحتلال فى مصر - ويظاهاه اللورد فى حملته على الخديو عباس ، الذى كان يسرق الأوقاف ، ويبيع النياشين ، بهدف تنحية الخديو الذى كان - برغم كل عيوبه - يؤيد الحركة الوطنية ، وتدور المعركة بين المفتى والخديو ، وتخرج صحيفة هزلية اسمها « حمارة منيتى » . وفى صدرها صورة للامام محمد عبده ، مفتى

المسلمين ، وهو يراقص بعض السيدات الافرنجيات ، ويثور الشعور العام ، وتشتد الحملة على الامام فيتقدم اللورد كرومر لساندته (!!) ويعلن أن المفتى يزور أحيانا دار الوكالة البريطانية ، وقد يحدث أحيانا أن تشهد مجلسنا ليدى كرومر وبعض سيدات السفارة وليس في هذا شيء .

ويسرها المفتى في نفسه للخديو حتى تأتي ذكرى الاحتفال بالعيد المئوى لجلوس « محمد على » على عرش مصر عام ١٩٠٥ ، فيشن الأستاذ الامام حملة ضارية على ملوك الأسرة العلوية ، ويعترض على الاحتفال بالذكرى في رحاب الأزهر ، لأن المساجد هي بيوت الله ولا يجوز أن تسخر لحياء ذكرى الحكام الظالمين .

وفي النهاية يروق الجو بين المفتى والخديو ، فيكتب محمد عبده تأريخا للثورة العرابية ، هو أسوأ ما كتب عنها على الإطلاق . . . فقد أراد أن ينصف ذكرى توفيق والد عباس ، فلم يجد ما ينصفها به الا بالهجوم على العرابيين ، وتخطئة كل رأى قالوه ، وكل تصرف سلكوه ، وبذلك ترك الامام وثيقة تقدم نموذجا لذلك النمط الذى نجده كثيرا فى التاريخ : الشائر الذى ندم على ثوريته . . . لأنها كانت فوق طاقته .

الراهب الشاعر

هذه واقعة تاريخية تحتاج الى تحقيق . . . وربما يكشف تحقيقها عن كثير من الحقائق الخافية . الواقعة رواها المرحوم « حافظ نجيب » فى الجزء الأول من اعترافاته التى مات ولم يكملها ، ولم يضع نقاطا على كثير من الحروف والوقائع الغامضة فيها .

و« حافظ نجيب » مغامر مصرى شهير مات عام ١٩٤٦ ، عرفه الجيل الأسبق بمغامراته التى تحتاج الى خيال خصب لتصديقها .

فى فترة من فترات حياته قرر « حافظ نجيب » أن يختفى من مطاردة البوليس له . وقرر لهذا السبب أن يدخل الدير لبتريهين رغم أنه كان مسلما ! الى هنا والواقعة عادية : مغامر مطارد ، قرر أن يفر من مطارديه فاختار مكانا لا يخطر فى ظن من يطاردونه احتمال وجوده فيه . . . خاصة أنه كان مسلما .

لكن ما يدعو الى الدهشة أن حافظ نجيب يقول فى اعترافاته : أنه عرض الأمر على بعض المشتغلين بالسياسة من منشئى الحركة الوطنية فحبذوا رأيه ، وقال له أحدهم :

- يجوز أن يكون الدير وسيلة لذهابك الى الحبشة فى منصب مطران الحبشة ، وذلك البلد لا يزال مستقلا ومنصب المطران هناك منصب عظيم جدا . واحترام الأحباش للجالس على كرسى المطرانية أعظم من اجلالهم للجالس على العرش .

وقال الثانى وهو على فراش مرضه الأخير :

- وفى مقدور المطران المثقف ثقافة عالية أن ينشئ هناك جيشا يعلم ضباطه فى النمسا أو المانيا فيصير فى مقدوره اغتصاب السودان وانقاذ مصر من المحتلين .

وقال الأول :

- هذا سر خطير فاحتفظ به لنفسك ، ولا تيسر لأى صديق معرفته .

وكان واضحا أن الرجلين اللذين يتكلم عنهما حافظ نجيب فى مذكراته هما الزعيمين محمد فريد ومصطفى كامل ، ذلك أنه حدث بعد ذلك بشهور أن مات مصطفى كامل ، وكان حافظ نجيب وقتها قد دخل الدير ، وتسمى باسم « غبريال ابراهيم » فهزته الفاجعة فكتب قصيدة يرثى فيها الزعيم الشاب ، ورأها رئيس الدير فعرضها على بعض أصدقائه معجبا بها ، فاقترحوا عليه ارسالها الى احدى الصحف ، وأثار نشرها ضجة كبرى . اذ دارت مناقشات حول صحة تصرفه ، فالرهبنة تقتضى اعتزال العالم ، لذلك أدين تصرف الراهب غبريال ابراهيم ، بينما رأى آخرون أن ذلك عمل طيب يقتضى ارسال الراهب الى أثينا ليديرس اللاهوت .

وغضب البطريرك كيرلس الخامس بشدة - وكان من رجال الكنيسة المتشددين - واستدعى الراهب غبريال ابراهيم ، وبدلا من أن يتجه لمقابلته على القور ذهب الى منزل الزعيم محمد فريد ، فاستاء لقصده اليه ، وأنبه فى غضب بسبب نشره قصائده فى الصحف وقال له :

- لقد ذهبت الى الدير لتختفى ولتعتزل العالم وقتا طويلا لينسأك الناس ، ولتصل من الدير الى الهدف الذى تهدف اليه . . وطرده شرطردة .

والوقائع التى يرويها حافظ نجيب لو صحت لكشفت عن تفكير يستحق الدراسة والتأمل والبحث فى تاريخ تلك المرحلة . فما أكثر علامات الاستفهام التى طرحها قصته . .

ان ما هي العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين مغامر مثل حافظ نجيب ، اتهم في عشرات من قضايا النصب والتبديد وبين زعيمين كمحمد فريد ومصطفى كامل ؟

وما هو تحديدا الدور الذي أرادا له أن يقوم به خلال تنكره في زى راهب ؟ ٠٠ ولماذا كانا يفكران بمناوأة انجلترا في السودان عن طريق الحبيشة ٠٠ ؟

بعض علامات الاستفهام الغامضة ٠٠ التي يتركها التاريخ عادة معلقة !

السياسة كل شيء

كان موقف « مصطفى كامل » من قضية زواج « الشيخ على يوسف » واحدا من مواقفه التي حيرت المؤرخين ، إذ وقف الزعيم الشاب في صف خصوم الشيخ وكان أغلبهم من غلاة الرجعيين والمتخلفين .

وقضية زواج الشيخ على يوسف واحدة من أخطر القضايا الاجتماعية التي عاشتها مصر في أوائل القرن ، إذ تقدم لخطبة ابنة الشيخ السادات ، وكان والدها من البيوت الكريمة المعروفة ببيوت الأشراف والمنتسبة للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، ورغم أنه وافق إلا أنه تردد في عقد الزواج . وعندما مل الشيخ من التسويف سارع بالاتفاق مع الفتاة نفسها وعقد قرانه عليها دون علم والدها .

وأثار ما فعله على يوسف - وكان صحافيا مشهورا وصاحباً لجريدة المؤيد أكبر صحف زمانها - غضب الوالد الذي سارع برفع قضية في المحكمة الشرعية يطلب التفريق بين الزوجين على أساس عدم الكفاءة ، فهو شريف من نسل أشراف . في حين أن الشيخ على يوسف مجرد صحفى أو « جرنالجي » ، يمتن مهنة رديئة تطعن في أعراض الناس وتنتشر الافك » .

وانقسمت مصر كلها معسكرين :

٠٠ معسكر يؤيد الشيخ على يوسف ويقول ان الانسان بعمله وليس بحسبه ونسبه ويؤيد حق البنت الرشيدة في تزويج نفسها بنفسها .

•• ومعسكر يؤيد « والد البنت » ، ويقف مدافعا عن الأحياء والأنساب ، ويسخر من الشيخ الذي لم يحفظ وقاره وتصرف كالمراهقين حتى أنه حرض ابنة السادات على الخروج عن طاعة والدها •

وكان غريبا أن يقف زعيم وطني متحرر ومعاد للاستعمار مثل « مصطفى كامل » في صف المعسكر الأخير ، وأن يدافع عن الأحياء والأنساب ، ورغم أنه هو نفسه كان ينتمي لأسرة صغيرة لم يعرف لها أحد تاريخا في الجيب والنسب •

وقد وصل تعصب « مصطفى كامل » ضد الشيخ « علي يوسف » الى الدرجة التي ويخ فيها الخديو عباس حلمي الثاني - بسبب مساندته لصاحب « المؤيد » في موقفه وضغطه على القضاة لكي يحكموا لصالح الشيخ علي يوسف - توبيخا شديدا غضب منه الخديو • وعندما أيدت المحكمة الاستئنافية حكم أول درجة القاضي بالتفريق بين الزوجين ، كان « مصطفى كامل » في برلين ، فسارع يرسل برقية الى صديقه مدام « جوليت آدم » يبشرها بنبا الحكم ضد علي يوسف ، وهكذا وقف « مصطفى كامل » في القضية الاجتماعية موقفا مناقضا تمام التناقض لموقفه المستنير في القضية السياسية •

لكن تفسير ذلك كله لم يكن عسيرا •

كان « مصطفى كامل » من ناحية لا يريد أن يغضب الشعب ، الذي كان يجهد من أجل أن يجمع صفوفه في حركة معادية للاحتلال الإنجليزي ، وكان الشعب بحكم تقاليد - لم تكن قد اهتزت بعد - ضد الشيخ ، فرأى مصطفى كامل أن واجبه يفرض عليه ألا يصدم الشعب فيما يعتقدوه •• ومن ناحية أخرى فإنه كان ينقم على صاحب المؤيد لأنه انتقل من تأييد الحركة الوطنية الى تأييد الاحتلال ، لهذا وقف ضده ، وأثبت « مصطفى كامل » أنه يفهم أن « السياسة هي كل شيء » وأن العداء للاحتلال هو المحك الذي يقيس على أساسه كل مواقفه •

مشاكل الأوتوبيس

لم تكن مصر تعرف - الى عام ١٩٠٦ - الأوتوبيس كوسيلة للمواصلات ، فحتى ذلك التاريخ كانت الوسائل المستخدمة للانتقال الداخلى ، هى الحمار والترام ، وعربات سوارس ، وهى عبارة عن ترام يجره حصان ، فضلا عن عربات الكارو وبعض السيارات الخاصة .

وفى عام ١٩٠٦ فكرت احدى الشركات فى تسيير قليل من سيارات الأوتوبيس فى المناطق التى لا يصلها الترام ، فسيرت اثنتين بين ميدان عابدين وباب الحديد ، وبين ميدانى السيدة زينب والقلعة . بيد أن السيارات المستخدمة كانت من نمط قديم كثير الاهتزاز ، يصدر عنه صوت مزعج نتيجة سيرها بالجنائزير ، وهو ما أدى الى فشل المشروع .

وفكر « منصور شكور باشا » ، فى تسيير سيارات « أومنبوس » لتتنقل جمهور الركاب من مكان لآخر ، وأحضر لهذا الغرض سيارات من النوع الذى كان يستخدم فى فرنسا ، لكن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف المشروع .

وعندما وضعت الحرب أوزارها فى عام ١٩١٨ وبدأت السلطة العسكرية فى بيع مخلفات الحرب اشترى « حسنين أفندى المصبان » عددا من السيارات القديمة ، وعندما بدأت اضرابات عمال الترام ، وانقطعت المواصلات ، دفع بما اشتراه من سيارات الى العمل لتحل محل الترام ، وبانتهاء الاضرابات عادت السيارات الى مخازنها .

بيد أن الاضرابات التى أثارها العمال عادت فتجددت وتكررت ، فعاد المصبان الى العمل .

وفكر « سيد ياسين » - صاحب مصانع الزجاج الشهيرة - فى نفس الفكرة . فبنى سيارات أوتوبيس على شاسيه اللورى . وتعددت الشركات . وانتشرت سيارات الأوتوبيس فى القاهرة ، ووضعت الدولة نظاما لعملها ، وتعريفه للركوب ، وتعقدت العلاقات بين الشركات وعمالها وركاب سياراتها وبينها وبين الدولة .

وفى سنة ١٩٦٠ انتهى جزء من هذه المشاكل ، عندما أممت الدولة هذه الشركات وأنشأت مؤسسة النقل العام بالقاهرة . وبدأت مشاكل أخرى .

كلام جرايد

كانت حادثة دنشواى تجربة كشفت كل شىء وعرت الجميع . وفى مصر - كما فى كل بلاد العالم - كان هناك الذين يعيشون وقلوبهم مع الوطن : مع مشاكله وآلامه ومآسيه ، وكان هناك الذين يمالئون القوى ، ويدافعون عن المستعمر ، ويستترزقون من وراء بيع ضمائرهم وأقلامهم ، وكان هناك الذين لا ينتمون الا لأنفسهم ولا يبيحئون الا عن السلامة ، لا يهمهم الوطن فى شىء ، ولا يشغلهم ما يجرى فيه .

وانذا جاز أن يتسامح الشعب فى شىء ، فانه لا يسامح ولا يعرف المغفران اذا تعلق الأمر بمصالح الوطن ونضاله ضد الذين ينتهكون حريته . لذلك فان الشعب لم يغفر أبدا لصحيفة وقفت موقفا محايدا اثناء مأساة دنشواى . فما بالك بالذين أيدوا المستعمرين فيما ارتكبوه من آثام فى حق الفلاحين العزل .

منذ اللحظة الأولى للحادث أعلنت الصحف الوطنية موقفها بوضوح - نددت « اللواء » و « الظاهر » و « المنبر » و « خيال الظل » بالحادثة ، وهاجمت كرومر بشدة ، وهاجمت أيضا تصريحات الجنود البريطانيين ، وموقف المدعى العام المصرى « ابراهيم الهلباوى » الذى شنق الضحايا بلسانه الطويل ، وكشفت النقاب عن حقيقة الشهود الذين جلبتهم الحكومة ، وسخرت من عدالة بريطانيا العظمى ، عدالة تحضير المشانق قبل صدور الحكم ، واصدار الأحكام قبل اجراء المحاكمة .

وعلى الجانب الآخر وقفت « المقطم » و « الوطن » و « مصر » تهاجم الفلاحين الأجلاف الذين قتلوا ضابطا بريطانيا رقيق القلب كان فحسب يتسلى بصيد الحمام ، فأخطأ وقتل امرأة لا قيمة لها وحرق جرننا تافه الشان .

وبين هؤلاء وهؤلاء وقفت « الهلال » موقف المحايد المتفرج ، وضنت صفحاتها التى لم تكن تخلو من شىء ابتداء من طحن البن الى طبخ الأرز ، الى وفاة أى ملك فى العالم ، على حادثة دنشواى ولو حتى بسطور قليلة ، فى حين توسعت فى نشر كل شىء جرى فى حفلة تكريم أقيمت لكرومر بدار الاوبرا الخديوية يوم ٤ مايو سنة ١٩٠٧ وبعد الحادث بعام .

وأخذت « الأهرام » موقفا مضحكا ، فهى تقف يوما بجانب الصحف الوطنية المخلصة ، ويوما تصبح محايدة ، وأياما تظاهر المحتلين وتتعصب للمغتصبين .

فى اليوم الأول علقت على الحادث أسفة على قتل ضابط من ضباط الاحتلال ، فقالت أن الفلاحين فى دنشواى حملوا على الضابط حملة الهمج ، ثم انتقلت بعد تنفيذ الأحكام - بكل بشاعتها - لتطالب بإصلاح نظام العمد باعتبار أن الحادث وقع ، لأسباب ليس من بينها همجية المحتلين وبربريتهم ، واصطيادهم للحمام والبشر ، وحرقتهم للاجران ، ولكن لأن « العلة فى العمد وحدهم ، لشدة جهلهم » . وفتح الله على « الأهرام » أخيراً فأعلنت رأيها الصريح . . . وقالت : « ان اخراج الانجليز من مصر أمر يعتقد كل واحد منا الآن انه ليس فى حيز المستحيل ، فالباقي لنا اذا ، هو أن ننال حقوقنا فنشاطر الانجليز حكم بلادنا وتكون لنا كلمة بجانب كلمتهم » .

كان جرح دنشواى عميقاً ينز حزناً ويستفز غضب كل انسان فى مصر ، لكن المحايدىين والمالئين تركوا كل ذلك وكشفوا فى اللحظة المناسبة عن معدنهم .

ولذلك لم يغفر لهم الشعب أبداً ما فعلوه ، فهو طيب وغفور ورحيم حقاً . . . لكنه لا ينسى من يبيعونه وقت الشدة لكى يأكلوا على موائد الجميع . . . وحصن الشعب عقله من هذه الصحف الصفراء بجملته الماثورة « كلام جرايد » وهى جملة لا تنطبق على كل الصحف . . . ولا كل الصحفيين .

حصان الخواجة

بعد حادث دنشواى ، نشرت سلطات الاحتلال جوا من الارهاب والابتزاز ، فانتهزت الظروف التى نجم عنها الحادث ، والآثار التى ترتبت عليه ، لتهدد المصريين فى كل لحظة بتكراره وتكسب من ذلك أموالاً .

بعد الحادث بشهرين ، كان المستر « اشتون » وهو موظف انجليزى يعمل مفتشاً للرى ، يمر على ترعة الباجورية على حصانه ، ورغب فى زيارة عمدة الباجورية « احمد الخولى » ، فتوجه الى منزله ، ودخل عليه وترك حصانه على باب منزل العمدة ، وأثناء وجود مستر « اشتون » بمنزل العمدة ، ووجود حصانه على الباب ، مر به حصان لمواطن يدعى « محمد زيد » . . . يقوده فتى صغير ، وجفل الحصان المصرى ، وانطلق من يد قائده ، وذهب

الى حصان مستر « اشتون » ، ووقف بجانبه وضهل عليه ، فجأويه الأخير بصهيل قوى تنبه له المستر « اشتون » ٠٠ فخرج من المنزل هائجا وصائحا :

- هذه مشاكل جديدة مثل مشاكل دنشواى ٠٠ أين صاحب الحصان ؟
اضبط يا عمدة ٠٠ هاتوا الطبيب ليكشف على الحصان ربما كان به داء
معد ٠٠

وخرج العمدة يهدىء من روع المستر « اشتون » ويلطف من حدته وغضبه بالفاظ المجاملة المعهودة ، وبعد وقت طويل ، انتهت المناقشة بأن أعلن المستر « اشتون » انه سيرض حصانه على الطبيب ، فاذا أقر بأنه أضير ، فعلى صاحب الحصان المصرى أن يقدم له تعويضا يناسب الحال . وفى اليوم التالى عاد المفتش الانجليزى ليطالب بخمسة جنيهاً تعويضا عما حدث ، بدعوى أن حصانه كان يسير به يوميا نحو ٦٠ كيلو مترا ، فقلت قدرته الى خمسة عشر كيلو مترا فقط ، وبعد مساومات مضنية ارتفع فيها صوت المفتش مهددا غاضبا ، انتهت المناقشة بأن قبل « اشتون » أربعة جنيهاً فقط .

ونشرت الصحف الوطنية الحادث غاضبة . وروت « المؤيد » الواقعة بلهجة ساخرة ، وأكدت للمحتلين أنه من البديهي أن حصان محمد زيد ليس متعصبا دينيا وأنه ليس فى صهيل الخيل حادث مكر للأمن العام .

والغريب فى الأمر أن الوكالة البريطانية قد سارعت - بضغط من الصحافة الوطنية - للتحقيق فى الحادث ، فقدم « اشتون » شهادة طبية من بيطرى انجليزى بأن الحصان أصيب ، وثبت أن الشهادة مزورة ، وحقق « مورلى بك » مفتش الداخلية أوجه الحادث ، ورأى أن يتخذ اجراء يحفظ الكرامة الانجليزية فأمر برد المبلغ لصاحبه ، ونقل مفتش الرى لنفسه وظيفته بالغربية .

كلوب الفقراء

كان قد مضى على احتلال مصر ما يقرب من عشرين عاما ، عندما نشرت صحيفة « المؤيد » خبر انشاء « نادى الفقراء » .
وأيامها كانت الدعوة لإنشاء النوادى عالية الصوت ، وكانت الصحف تمتلئ بين الحين والآخر بأخبار انشاء ناد أو كلوب لبعض أصحاب المهن

وانتهز بعض أصحاب المزاج « التراجيكميدي » الفرصة ، فأرسلوا للمؤيد يخطرونه بأنهم قرروا انشاء ناد للفقراء . وذكرت « المؤيد » فى عدد ٣٠ أكتوبر ١٩٠٥ أن بعض فقراء الموظفين والمدرسين وكتبة البنوك ، قد أسسوا النادى . وجاء فى لائحته أنه يقبل فى عضويته كل من كان فقيرا خالى الوفاض ، نظيف الجيوب ، تقيسا منحوسا لا باب رزق له غير ما يعمل به ، على ألا يزيد مرتبه عن عشرة جنيهات شهريا يدفع منه اشتراكا لا يزيد عن خمسة قروش . هذا اذا أسعفه الحظ وقام بدفعها .

وجاء فى اللائحة أنه لا يقبل فى عضوية النادى كل من اشتهر بالكذب والنصب ، لا حفاظا على الفضيلة ، ولكن لأن الكذب يجر على أصحابه دائما الفائدة ، أما النصب فهو يؤدى دائما للغنى ، وعلى هذا فان شرط العضوية - وهو الفقر - لا ينطبق على الكذابين والنصابين .

وكلوب « الفقراء » مؤسسة ديمقراطية ، والكلمة فيه - كما جاء فى اللائحة - مباحة لصالح التعاسة والشقاء ، وينتخب الأعضاء مجلسا للإدارة من أكثر الأعضاء شقاء وفقرا ، فاذا قدم العضو أربعة انذارات جاءت من الدائنين ، وأربعة حجوزات جاءت من الحكومة ، اعتبر من الأعضاء المؤسسين ، فاذا جرده القضاء العادل مما يملك من منقولات ، عين فى وظيفة مفتش للنادى ، فاذا طارد الدائنون عضوا الى باب الكلوب ، يرقى الى منصب الرئيس فورا . وتسقط العضوية ، اذا أثرى العضو من ارث أو يانصيب فجائى ، أو بأى وسيلة غير منتظرة ، وعليه عندئذ أن ينسحب من النادى بهدوء .

وقد جاء فى هذا الاعلان الغريب أن على كل من يرغب فى الانضمام الى النادى أن يخاير سكرتيره العام « محمد » بالاسكندرية . وقد وعد أن يخاير طالبى العضوية لدفع الاشتراك الشهرى .

أيامها كانت مصر تحكم حكما غيبيا ، وكانت الصحف حافلة بأنباء الحجوزات ، وموظفى الرى الانجليز يرتشون ، وكثيرون يسرقون ، والجهاز الحكومى ملئ بالعناصر الطفيلية التى لا تعمل ولكن تتقاضى المرتبات العالية ، بينما يعيش صغار الموظفين فى فاقة ، وأصحاب رؤوس الأموال الانجليزية يستغلون المصريين فيعملون أشق الأعمال وينالون أقل الأجور .

فى وسط كل هذا نشرت المؤيد اقتراح « كلوب الفقراء » فبعث على المشفاه بسمة حزينة .

المسرد والوزير

بعد بداية الحرب العالمية الأولى بقليل ، توفي « مصطفى فهمى باشا » ،
الوحيد الذى تولى رئاسة الوزارة المصرية ثلاثة عشر عاما كاملة ، لأنه كان
أطوع رؤساء الوزارات للاحتلال البريطانى .

جاء الى مصر صغيرا من تركيا ، فتكفله أحد أخواله ، وأدخله المدرسة
الحربية ، وبعد تخرجه عين ياورا « للخديو اسماعيل » ، وظل يترقى الى
أن أصبح ناظرا للخاصة الخديوية ، ودخل الوزارة لأول مرة عام ١٨٨٠ ،
وظل وزيرا فى وزارة الثورة العرابية - وزارة البارودى - واستقال منها
وانضم الى الخديو عندما طلب هذا من عرابى أن يكف عن المقاومة وأن
يستسلم للغزاة .

وبعد الاحتلال تولى رئاسة الوزارة للمسرة الأولى فى عام ١٨٩٠ ،
واستقال منها بعد ثلاث سنوات ، ثم عاد فى عام ١٨٩٥ ، ليظل رئيسا لها
ثلاثة عشر عاما طويلة ، انتهت فى عام ١٩٠٧ ، وذكرت جريدة « المؤيد »
فى تقرير استمراره رئيسا للوزراء كل هذا الزمن غير المسبوق ، أن اللورد
كرومر حلف لمصطفى فهمى أن يبقى فى رئاسة الوزراء ما دام حيا . وما بقى
اللورد فى مصر .

وعندما غادر اللورد مصر شبه مطرود ، بعد فاجعة دنشواى ، تحدث
فى حفل أقيم لتوديعه فذكر مصطفى فهمى بالخير ومبده وقال :

... أنه من أعظم الذين التقيت بهم فى حياتى لطفًا وأكرمهم أخلاقًا ،
وأحسنهم مناقب .

وقد علق « المؤيد » على ذلك قائلة : « ان مصطفى باشا أنكر مصر
وعرف اللورد ، فاستحق أن يكون سامى المقام فى عين اللورد لا فى عين
الأمّة المصرية » .

وبمجرد ذهاب كرومر ، طرد مصطفى فهمى من رئاسة الوزارة ، وأنعم
عليه ملك الانجليز بنيشان الحمام من الدرجة الأولى اعترافا بخدماته ، ولأنه
طوال ١٣ عاما رأس فيها الوزارة « أفاد بلاده وبريطانيا العظمى ، فائدة
دائمة لا تزول » .

والغريب فى كل هذا أن « مصطفى فهمى » هو والد « صفية زغلول »
زوجة « سعد زغلول » التى اتخذت منذ الثورة ، موقفا وطنيا ، وكانت من
طلائع الحركة النسائية المعادية للاستعمار .

المصرية الباهرة

كانت « نبوية موسى » أول فتاة مصرية تحصل على شهادة البكالوريا - الثانوية العامة - فى مصر ، وكانت أول ناظرة وأول مفتشة مصرية عرفت وزارة المعارف ، ان كانت هذه الوظائف مقصورة على الانجليزيات . وكان والدها ضابطا وكان أخوها طالبا بالدرسة الحربية ، فشغفت بالكتب التى كان يدرسها ، وطلبت منه أن يعلمها القراءة والكتابة ، وظلت مثابرة على الدراسة حتى تعلمت الكثير بمجهودها الشخصى ، وفى عام ١٩٠١ - وهى فى الخامسة عشرة - فكرت فى دخول المدرسة السنوية فتقدمت سرا لامتحان النقل الى السنة الثالثة الابتدائية ، وقبلت بالمدرسة ، وبعد عامين تقدمت لامتحان الابتدائية بين ١١ فتاة و ٢٧٨٣ طالبا ، فنجحت وتفوقت وكان من الذين حصلوا معها على الابتدائية محمود المقرشى وعباس العقاد .

وفى القسم العالى بمدرسة السنوية ، أكملت نبوية دراستها ، ولم يكن يدخل هذا القسم من الرجال ، سوى الشيخ « حمزة فتح الله » والشيخ شريف اللذين كانا يدرسان للمطالبات اللغة العربية ، ولم يكن مسموحا لهما بالقاء الدرس دون حضور مدرسة مع الطالبات ، لضمان الحفاظ على التقاليد ، وتخرجت نبوية لتعين مدرسة بمرتب ستة جنيهات ، واكتشفت أن زملاءها من المدرسين المتخرجين من مدرسة المعلمين يحصلون على مرتب قدره عشرة جنيهات لأن مؤهلهم يوازى البكالوريا ، فرفعت لوزارة المعارف طلبا بذلك ، فأحدث ضجة كبرى لخروجها عن التقاليد المتبعة ، وحاول « المستر دفلوب » - المستشار الإنجليزي لوزارة المعارف - أن يثنىها عن عزمها ، ولكن جهوده معها لم تفجح ، وأخيرا لم تجد النظارة بدا من اجابة طلب الفتاة ، واضطرت الى قبولها ضمن المتقدمين لامتحان البكالوريا سنة ١٩٠٧ .

وقتها كان حصول بنت على البكالوريا حادثا جلا ، وقد خصصت وزارة المعارف لها قاعة خاصة لتمتحن فيها وحدها بالمدرسة السنوية ، بينما كانت اللجنة العامة للذين منعقدة فى المدرسة الخديوية بدرب الجماميز ، ونشرت الصحف الخبر ، فجمع الناس أمام المدرسة السنوية ، ينتظرون خروج هذه الفتاة الغربية التى تقدمت للحصول على البكالوريا ، وعندما ظهرت النتيجة نجحت الفتاة المغمرة بتفوق .

وتنقلت نبوية موسى فى الوظائف التعليمية بالمدارس الحكومية ، ثم قررت فجأة أن تخرج الى ميدان تشجع من خلاله الفتيات على التعليم ، فاستقالت من وظيفتها وأنشأت مدرسة ابتدائية للبنات بالاسكندرية ثم ثانية

بالقاهرة ، وثالثة تجمع بين الابتدائي والثانوى فى الاسكندرية أيضا ، وأمضت ما تبقى من عمرها تشجع على تعليم البنات ، وتبشر بمقولة واحدة ، هى أن المرأة تكون فاضلة بقدر ما تتعلم ، وتكون طاهرة بقدر ما تعمل ، وتضيف الى الحياة جهدها الخلاق .

وفى عام ١٩٥١ ماتت هذه المصرية الباهرة التى حصلت على البكالوريا ، ومضت ٢١ عاما قبل أن تحصل مصرية أخرى على ما حصلت عليه ، بعد أن قضت حياتها فى محاولة لكى تحصل كل المصريات على البكالوريا وما هو أعلى منها .

اضراب المستأجرين

فى عام ١٩٠٧ ارتفعت أجور المساكن حتى بلغت ٢٩ ضعفا عما كانت عليه فى عام ١٨٠٠ عند قدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، واهتمت الصحف ببحث أصول الأزمة وجذورها ونشر شكاوى الناس من الغلاء وقلة المساكن .

كان عدد سكان القاهرة على زمن الحملة الفرنسية ٢٠٠ ألف نسمة ، ارتفعوا فى عام ١٩٠٧ الى ٥٨٠ ألفا ، وكان عدد الأجانب فيها لا يتجاوز مئات فأصبحوا أكثر من ٤٠ ألفا ، وكانت القاعدة فى مشكلة السكان أنه كلما زاد عدد الأجانب الأثرياء ، تغير النمط الاجتماعى للمدينة ، فأنشئت أحياء جديدة فاخرة يسكنها السادة ، وتركت الأحياء القديمة لأهل البلد ، يتمتعون بقدمها وتهالكها . وكان الخديو اسماعيل أوفر حكام مصر اهتماما بتعمير القاهرة ، فهو الذى شق شارعى « كلوت بك » و « محمد على » وباع ثمانية أفدنة من حديقة الأزليكية لتكون أرضا للبناء .

وباعت الحكومة الأرض المحيطة بسراى الاسماعيلية - منطقة ميدان التحرير وما حولها الآن - واشترطت على الشارى أن يبني بيتا لا تقل قيمته عن ألفى جنيه ، فضلا عن بيعها الأرض بسعر مرتفع هو نصف جنيه للمتر ، وفى عام ١٨٨٠ قسمت منطقة التوفيقية وبيعت بنفس الشروط ، وبسبب ارتفاع أسعار الأرض فى هذه المناطق ، فقد اقتصر شراؤها على الأجانب الذين كانوا يملأون مصر كالوباء ، بينما وجه المصريون أنظارهم نحو أرض أرخص فى الفجالة والظاهر والعباسية .

وحتى عام ١٨٦٠ لم تكن القاهرة تعرف البيت المتعدد الطبقات ، إذ كان المعتاد أن يبني الانسان المنزل طبقة واحدة لسكناء مع عائلته أو لتأجيره ، وبتضاعف عدد السكان بدأت طبقات المسكن تتعدد ، وفى نفس العام بدأت القاهرة بالخروج من حدودها القديمة ، فامتدت غربا نحو بولاق حتى تجاوزت النيل من جهة الجيزة والجزيرة ، وشمالا نحو شبرا والعباسية وجنوبا نحو السيدة زينب ومصر القديمة ، وأخذ الأغنياء والمتوسطون من ذلك الحين يهجرون أواسط المدينة ويقيمون فى خارجها ، فأصبح كثير من المنازل داخل المدينة خاليا مهجورا ، وكثير منها هجرها أصحابها ليقيموا فى الضواحي ، اقتداء بالفرنج أو التماسا للهواء النقى ، وهكذا أصبحت قصور ومساكن درب سعادة ودرب الجماميز والدرب الأحمر وغيرها مساكن للفقراء ، وأصبحت حدائقها عششا .

ولم يكن غلاء المساكن راجعا فى الحقيقة الى زيادة عدد السكان فقط ، بدليل أن أجور المساكن زادت - فى تلك الفترة - ٢٨ ضعفا ، بينما لم يزد عدد السكان عن خمسة أضعاف ، وهو ما يفسر ارتفاع الايجارات بالمضاربة على أرض البناء .

فى مواجهة ذلك حدث أطرف اضراب فى تاريخ مصر ، إذ تجمع المستأجرون فى القاهرة والاسكندرية ، وشكلوا جمعية وأضربوا عن دفع ايجارات مساكنهم حتى تنخفض .

العاشق

« مصطفى كامل » واحد من أنقى وأطهر عشاق مصر .

كان متصوفا تتوحد ذاته فى ذات المحبوب كما ينحو المتصوفة ، ولأن المحبوب « مصر » كان جريحا ، فإن حبه كان حزينا . ومجموعة الرسائل التى كتبها للمكاتبة الفرنسية « جوليت آدم » هى قصائد من « الشعر الصوفى » قبل أن تكون شيئا آخر .

وفى هذه الرسائل ، كان يصف مصر بأنها « الوطن السيء الحظ والتعس الى آخر درجات التعاسة » - ويعتبر نفسه مثلها - « انى تعس الحظ

جدا ، ولا شيء فى الوجود يسعد حالى » ، ولم لا يكون تعبسا ، وهو يشاهد
- كما قال - « مشهدا من أفظع المشاهد هو سقوط وطنى » .

ويوما بعد يوم تتركز تعاسته ، فالزمن يمر ، ومصر ما زالت محتلة ،
« اننى حزين يا سيدتى ، فالיום هو الذكرى العشرين لهزيمة مصر ، وانى
لأسأل نفسى حائرا : ما معنى الحياة فى بلد محتل ؟ وماذا أفعل لكى
يتحرر ؟ » .

وفى احدى الليالى كان بمكتبه بمبنى « اللواء » وكان فى مواجهته قصر
عابدين ، حيث كان الخديو يحتفل يومها بعيد جلوسه على العرش ، وأصداء
الموسيقى تتسلل الى غرفته ، وسحب ورقة وكتب لجولييت آدم :

- انهم يرقصون فى قصر عابدين ، وأنا الآن بعيدا عنهم أكتب لك ،
وأسأل نفسى : هل من حق أمة مظلومة ومحتلة وذليلة أن تقيم أفراحا ؟

وعندما مات فى شرح الشباب ، وصفه أمير الشعراء بأنه « صب مصر
وشهيد غرامها » وخاطبه قائلا : « هذا ثرى مصر فقم بأمان » أما هو فكان
قد كتب قبل هذا التاريخ بشهور :

- انى لا أرتاب فى أن انجلترا ستجلو يوما عن مصر ، ولكن متى ؟
أعيش ولو دقيقة واحدة بعد اعلان استقلال وطنى ١٩٠١ ؟

وذهب قبل أن تتحقق أمنيته ..

بكتك بالدمع الهتون غوان

كانت جنازة « مصطفى كامل » ، هى أولى الجنازات الكبرى فى تاريخ
مصر ، وفيما تلا ذلك من أعوام ، فان ما حدث يومها أثار دهشة كثيرين ،
وبدا الشعب المصرى - أمام من لا يعرفونه - لغزا صعبا على الفهم ، وهو
ما تجسد الاحساس به ، عند تشييع جنازة « سعد زغلول » ، وعند توديع
« جمال عبد الناصر » .

وقد استخرج قاسم أمين من جنازة مصطفى كامل دلالاتها الحقيقية ،
فاعتبرها اعلانا « بمولود جديد خرج من أحشاء الأمة » ، هو الأمل الذى
يبتسم فى وجوهنا البائسة .

بدأت الجنازة من مبنى جريدة « اللواء » - وهي الآن مدرسة عابدين
المواجهة لمبنى وزارة الداخلية - فسارت في شارع نوبار ، ثم شريف ،
وانحرفت يمينا الى شارع عدلى ، فميدان الأوبرا وميدان العتبة وشارع
محمد على ، فميدان القلعة ، ومنه الى مدافن الامام الشافعى ، ووصلنى على
الجثمان فى جامع قيسون ، وقدر عدد المشيعين بربع مليون مواطن ، ووصف
أحد الصحفيين الأجانب هذا المشهد بقوله : ان شوارع القاهرة ، قد بدت
كأنها مفروشة ببساط أحمر ، اشارة الى طرابيش المصريين الحمراء :

ومن الظواهر التى لفتت الأنظار فى جنازة مصطفى كامل ، خروج
المحجبات من النساء عن وقارهن فى الحزن على الزعيم الشاب ، ومن
المعروف أن خروج النساء غازيات الوجه ومحلولات الشعر كان من ظواهر
الحزن الشديد ، وخاصة فى عهد لم يكن قد عرف بعد خروج المرأة للعمل ،
أو للدراسة ، ولم تألف شوارعها ظهورها سافرة ، والذين درسوا قصائد
الرتاء التى قالها الشعراء بعد وفاة مصطفى كامل ، لاحظوا تلك الظاهرة ،
وهزم أن الحزن على الزعيم الشاب قد أخرج المستورات من نساء المصريين
عن صوابهن ، فقال أمير الشعراء « أحمد شوقي » فى قصيدته :

شقت لمنظرك الجيوب عقائل .. وبكذك بالدمع الهتون غوان

وقال شاعر القطرين خليل مطران :

مشيت الخوادر حاسرات والأسى ملق على الأبنصار سترا أغدقا

وقال حافظ ابراهيم معبرا عن المعنى نفسه :

كم ذات خدر يوم طاف بك اليردى هتكت عليك حرائر الأستار

سيفرت تودع أمة محمولة فى النعش لا خبرا من الأخبار

كثيرون اتهموا مصطفى كامل بأنه كان رجعييا لأنه وقف ضد دعوة
« قاسم أمين » لتحرير المرأة ، ولزق الحجاب ، لكن الرجل الذى اتهم بهذه
التهمة كان أول ميت تتحرر النساء فى جنازته :

خبراء مصلحة الحضارة

« تيودور روزفلت » هو أول رئيس أمريكي يزور مصر وهو في منصبه ، كان ذلك في مارس ١٩١٠ ، وأثارت زيارته موجة من الهجوم والكراهية ، لأنه - كالعادة - هاجم حقوق الشعب المصري .

وكان « روزفلت » قد زار الخرطوم ، فألقى خطبة وقصة يمجدها فيها الاحتلال الانجليزي لمصر والسودان ، ويدعو شعب البلدين للخضوع لحكمه ، ثم كرر دعوته تلك في محاضرة ألقاها في الجامعة المصرية ، قال فيها : ان مطالبة المصريين بالدستور والحكم الذاتي سابقة لأوانها ، لأن ذلك يتطلب زمنا طويلا ويتطلب أجيالا متعاقبة الى أن يصبحوا أهلا للحكم الدستوري . ولم يكتف الرئيس الأمريكي بذلك بل توجه من القاهرة الى لندن وخاطب الانجليز هناك قائلا :

- انكم لستم فقط خبراء على مصالحكم في مصر ، بل خبراء على مصلحة الحضارة عموما ، فقد قدمتم لمصر أفضل حكومة رأتها منذ ألفى عام ، وربما أفضل حكومة رأتها منذ بدء التاريخ .

ونصح الرئيس الأمريكي المستعمرين الانجليز أن يعاملوا المصريين بشدة لأن « مصلحة الحضارة تقضى أن تعامل الشعوب غير التمدينه معامله غير مألوفة عندنا » ، ودعاهم الى أن يتذكروا أن معاملة الرفق واللين والضعف في مركز كمبرككم في مصر « يضر بأكثر مما تضر معاملة الشدة والظلم » .

وأثارت هذه التصريحات موجة نقد حادة ، وأرسل « الزعيم محمد فريد » الى « روزفلت » يحتج عليها ، ويحتج على ادارة الجامعة المصرية لأنها سمحت لروزفلت بالقاء محاضرة تتضمن طعنا في المصريين ، بل ومنحته في نهايتها درجة الدكتوراه . وعقد الحزب الوطني مؤتمرا في أحد مسارج شارع عماد الدين ، وخرج المجتمعون - بعد المؤتمر - في مظاهرة قادها محمد فريد الى فندق شبرد - حيث يقيم الرئيس الامريكى - فهتفوا بسقوطه ، وبحيادة مصر والاستقلال والدستور .

وتيودور روزفلت الذي أحدث هذه الأزمة هو سمي - وقريب الرئيس الأمريكي روزفلت الذي زار مصر أثناء الحرب الثانية - وهما الوحيدان من رؤساء الولايات المتحدة اللذان زارا مصر قبل عام ١٩٧٤ .

وما أشبه الليلة بالبارحة .

يا ميت ٠٠ صباح الفل

« ابراهيم ناصف الوردانى » هو أول قاتل سياسى فى تاريخ مصر المعاصر .

فى يوم بارد من فبراير ١٩١٠ ، أطلق الوردانى النار على بطرس غالى رئيس الوزراء فأرداه قتيلا ، واعترف بالجريمة ببساطة وقال انه فعل ذلك لأن بطرس غالى رأس المحكمة المخصوصة التى حكمت على ضحايا دنشواى ، فضلا عن أنه كان يحاول مد امتياز قناة السويس .

وكانت تلك أول واقعة قتل سياسى فى تاريخ مصر المعاصر .

كان « الوردانى » صيدليا ، تلقى تعليمه فى تركيا ثم ألمانيا ، وتأثر هناك بالأفكار الفوضوية المتطرفة ، وقد دافع عن نفسه فى التحقيق دفاعا سياسيا رائعا ، وتحمل مسئولية عمله . وتركت الحادثة أثارا بالغة ، وأحدثت ضجة كبيرة ، ومع ذلك فقد كانت انذارا منع المتآمرين على مصلحة الشعب المصرى من مد امتياز القناة .

وعندما تطوع « ابراهيم الهلباوى » للدفاع عن المتهم ، رفض الوردانى تطوعه ، وقال : أنا لا أقبل أن يدافع عنى جلال دنشواى ، الذى طالب برأس فلاحين أبرياء ليرضى المستعمرين ، ولكن الهلباوى بذل مجهودا خارقا حتى أقنعه بقبول تطوعه ، وبدأ « الهلباوى » دفاعه بقوله :

— ان بطرس باشا رجل يتقاضى كل سنة ألفا من الجنيهات ، ولو كان صائما لا يأكل ولا يشرب لما استطاع أن يترك أكثر من أربعين ألفا من الجنيهات ، لكن تركة بطرس غالى يا حضرات المستشارين قومت بأكثر من مليون من الجنيهات . فمن أين جاء بهذا المال الوفير ؟

وبرغم حرارة دفاع الهلباوى ، فان القضية كانت معقدة ، ومن أغرب ما حدث فيها أن بعض زملاء الوردانى حاولوا تهريبه ، لكن ادارة السجن نقلته مصادفة الى زنزانة أخرى ، فلما نجحت المحاولة هرب آخر .

وبسبب هذه القضية صدر تشريع خاص ، فقد قدم سبعة من المتهمين مع الوردانى بتهمة أنهم اتفقوا معه على الجريمة ، ولكن قانون الجنائيات لم يكن يعاقب على المشاركة فى التدبير والتخطيط فأفرج عنهم ، واستصدرت الحكومة تعديلا على القانون يعاقب بمقتضاه على الاتفاق الجنائى . ما زال ساريا الى الآن .

وهو على درجات المشنقة ، قال الوردانى : « أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وان الموت فى سبيل الاستقلال آية من آيات الله » .
أما الشعب المصرى فقد صاغ فى الوردانى موالا جميلا مطلعته :
« يا ميت صباح الفل على الوردانى » .

سينما ايدىال

اختفت « سينما ايدىال » كما اختفت كثير من ذكريات القاهرة .

ويوما ، كانت أشهر دور السينما فى العاصمة ، وذات مساء من يوليو ١٩١١ عقد فيها عمال الترام اجتماعا تاريخيا حضره أربعة آلاف منهم ليناقشوا أحوالهم ، ومعاملة الشركة البلجيكية لهم . وصاغوا مطالبهم فى هذا الاجتماع ، فطالبوا الشركة أن تنشئ صندوقا ، يمول بالمشاركة ، ويستثمر المال فى مشروع تخصص إيراداته لاقراض العمال لمواجهة ظروف حياتهم التعيسة ، وطالبوا أيضا بانقاص ساعات العمل وبأن تعطى الشركة الملابس المصلحية للعمال بلا ثمن . . وأن تكون المرتبات شهرية لا يومية . . وأن يعطى العامل مكافأة عند نهاية الخدمة .

وكما هو متوقع رفضت الشركة المطالب ، وفصلت ثلاثة من العمال الذين نظموا اجتماع سينما ايدىال . ووصل الأمر الى عطوفة رئيس النظار ، فوعد خيرا ونصح العمال بعدم الاعتصام . واستدعى رئيس النظار المسئولين فى الشركة واجتمع بهم فى حضور ممثلين عن العمال . . وبعد أن توصل الطرفان الى اتفاق ، فوجيء العمال بالمسئولين عن الشركة يخرجون ليعلموا رفض المطالب . وببساطة قرر عمال الترام الاضراب ، وبدأوه بالفعل فى ٢٠ يوليو ١٩١١ ، ونفذه ٤٠٠٠ عامل ومستخدم فى الشركة . . وأضردت ادارتها منشورا تطالب فيه العمال بالعودة الى العمل خلال ٢٤ ساعة ، والا اعتبروا مفصولين وعين آخرون بدلا عنهم . . ورفض العمال جميعا تهديد الشركة ، وقرروا استمزاز الاضراب حتى تجاب مطالبهم ، وتمكنت الشركة من كسب عدد قليل منهم لا يتجاوز السبعين عاملا .

وفى باب الحديد وبولاق والجيزة والعباسية ، ركب العمال عربات الكارو ، وحملوا صناديق لجمع التبرعات من الأهالى لمساعدتهم اذا قطعت الشركة مرتباتهم . . وسارع الناس يتبرعون ، ولأن الشركة كانت تخسر فى اليوم ١٢٠٠ جنيه ، فقد أرادت أن تسير قاطراتها بواسطة العمال السبعين الذين ساندوها ، فتجمع المصريون أمام مخازن العباسية فى خيمة أقاموها هناك ، ووضعوا كتلا من الحديد لمنع تسيير المركبات ، وجاء البوليس يقوده كونستبلات الانجليز وبدأ صدام عنيف .

ونجحت الشركة أخيرا فى تسيير بعض المركبات . لكن الجمهور سرعان ما هاجمها هو والعمال ، وعاد تبادل اطلاق النار . وسقط كثير من الجرحى . وأطلقت الصحف على ما حدث « مذبحه العباسية » .

أيامها كانت مصر تعيش تحت ظل حكم بريطاني صريح ، وكان
الرأسماليون الأجانب يسرقون عرق أبنائها في المدن والريف • وانهالت
برقيات الاحتجاج من القرى ، وكتب أهالي دمنهور الى صحيفة « اللواء »
يقولون : « العدل يندب حظه ، وملاك الرحمة ينتحر على ربوة الأهرام من
اجراءات البوليس ازاء عمال الترام » • وسخر أهالي طنطا من « باكستون بك »
وكيل حكمدار البوليس وطالبوه بالاستقالة ، وطالبوا ناظر الداخلية « أن
يعين بوليسا جديدا لمراقبة البوليس فى أعماله » •

ووجه العمال المضربون النداء الى عمال المرافق العامة لمساندتهم فى
اضرابهم ، بالأضراب تأييدا لهم وتضامنا معهم ، ولبى النداء عمال ترام
الاسكندرية •

كانت سنوات غريبة ، ملتعبة ، مرت كالعاصفة ، وجاء يوم ذهب فيه
البلجيكويون من شركة الترام والانجليز من البوليس وذهبت أيضا سينما
ايديال •• دنيا !

دروس فى التشلل

الكتاب قديم •• وككل قديم فيه عبرة •• وعنوانه « أسرار النشالين
وما يتخذ لكافحتهم » ، واسم المؤلف غريب وهو « الهيد كونستابل يورجزانو »
الاسم ايطالى غالبا ، لكن الكتاب باللغة العربية ، ووظيفة المؤلف هى آخر
ما يخطر على البال : كان - غفر الله له ونفعنا بعلمه - رئيس فرقة البوليس
السرى المعينة لضبط النشالين بمحافظة مصر •

وقد يبدو غريبا أن يكون « الهيد يورجزانو » رئيس فرقة فى البوليس
المصرى ، لكن اهداء الكتاب يدفع للضحك •• فهو مهدى الى حضرة صاحب
السعادة الميرالاي « بيكر بك » وكيل حكمدار العاصمة • فى كل صفحة من
الكتاب القديم مفاجأة مذهلة ، وفى المقدمة يقول « الهيد » أنه ألف كتابه هذا
« خدمة للإنسانية » ، وخصوصا فلاحنا المسكين الذى هو مطمع السواد
الأعظم من النشالين لأنهم يتوسمون فيه البلاهة وحسن النية لأنهم أكثر
دهاء منه •

هذا هو « البورجزانو » الذى يعمل مع « بيكر » يقدم كتابا للفلاح ، وهو بالقطع رجل ذكى غاية فى الذكاء ، لأنه يعود بعد سطرين من المقدمة ليقول ان سبب الأمراض الاجتماعية فى جسد كل أمة هم « الوافدون عليها لافسادها ممن نبتهم بلادهم ولفظتهم أوطانهم وضاعت بهم مرافقهم فعاثوا فى الأرض فسادا » والتجأوا الى وسائل البطش والقوة ، فسلبوا الناس الراحة ، وقضوا على سعادتهم ، وعكروا عليهم صفو حياتهم ، وسلبوا ما راق فى أعينهم ، فهم مثل الذئب الخاطفة ، لا هم لهم الا اسعاد أنفسهم باشقاء غيرهم .

وبالطبع فقد نسى « البورجزانو » أنه هو ورئيسه « بيكر » من هؤلاء « الوافدين عليها » للافساد وأن الجاليات الأجنبية التى حطت رجالها فى مصر سرعان ما اجتذبت - كما رصد دافيد لاندز بحق - أكثر فئات المجتمعات الأوربية انحطاطا ولا أخلاقية ، وأنه مع وفود رؤوس الأموال الأجنبية فى عهد اسماعيل ، وفد معها المغامرون والأفاقون ، وبياعات الهوى والبلطجية والنشالون .

يخاطب « البورجزانو » القضاة ، متباكيا على الفلاح مطالبيا اياهم أن ينظروا الى بساطته ، وأن يقدروا جهله الذى يدفعه الى الوقوع فى الشرك ، ويقول « فلو كان هذا الفلاح ممن أعطاهم الله بسطة من العقل لأدرك وجود الجنة فى ذلك المكان ، أو فى الجهة التى ضربوا له فيها موعدا » .

حنونا كان « البورجزانو » على الفلاح ، لذلك كان أمثاله من الأجانب يمرحون فى القرى : يأتون فقراء ومشردين ، يجمعون الثروات بدأب ، ويحرصون على أن يقضوا على كل بسطة من العقل أعطاهها الله للفلاح .

صفحات الكتاب كلها بعد ذلك عناوين واضحة . عن البلطجى ودهائه ومروقه من التهمة ، عن أنواع النشل ومدارسه : النشل على الواقف ، والنشل بقطع الجيب ، ثم النشل بالطريقة الانجليزية ، والايطالية والفرنسية ، ونصف الكتاب بعد ذلك عن النشل بالطريقة الأمريكية .

يتتبع المؤلف مدارس النشل . لكنه ينسى أن يجيب على سؤال واحد :

- لماذا تبدأ مدارس النشل كلها بالحروف اللاتينية ؟ صحيح . لماذا ؟

الحب بالعافية

مات مصطفى لطفى المنفلوطى فى يوم هول ٠٠ ففى ذلك اليوم كان سعد زغلول فى طريقه الى الاسكندرية ، عندما هاجمه شاب أطلق عليه بضع رصاصات أصابته فى ذراعه ، وارتجت مصر لهول الحادث ، ولم يبق فيها صحيفة ولا ناد ولا تجمع ، الا وقد اقتصر همه على الاطمئنان على صحة زعيم الثورة سعد زغلول .

ووسط هذا الهول ، وفى نفس يوم الحادث ، مات المنفلوطى ٠٠ فلم يأخذ حقه من الحزن ، وقلت الدموع التى ذرفت عليه ، وهو الذى استنزف بأدبه الحزين دموعا كثيرة من أعين أجيال متتالية من المصريين ٠٠ وعندما رثاه أمير الشعراء احمد شوقى تنبه لهذه المأساة وقال فى مطلع قصيدته :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك فى عصف الرياح الناعى

وفى ثلاثة نجيب محفوظ يقول أحد الأبطال :

- موت المنفلوطى وضياح السودان ووفاة سيد درويش أسود أيام

حياتنا .

وهكذا ارتبط المنفلوطى فى وجدان الجيل الذى كان شابا فى عشرينات القرن بمجموعة من العواطف المركبة بعضها بأحلام مجهضة - كضياح السودان بعد مقتل السردار - والآخر مزيج من الفرح والحزن والكبرياء الوطنى ونشوة الطرب ، كانت تمثله موسيقى سيد درويش ، أما المنفلوطى نفسه فكان آخر صيحة فى أدب الانشاء والخواطر ، حيث يجد الكاتب فرصة ليذخرف اللفظ ويوشى الفكرة ببعض الحسنات ، وكانت الحياة فى مصر تتعقد يوما بعد يوم وتنتشر المصانع والأفكار الجديدة ، فتتوارى الى الخلف أهمية الألفاظ الجزلة لتتقدم عنها فى الأهمية لغة العلم البسيطة والمباشرة .

وفى زمنه كان « المنفلوطى » قمة من قمم الانشاء العربى ، تنشر الصحف نظراته الشهيرة فى صدر صفحاتها ، وتطبع المطابع كتبه وتعيد طبعا ، ويعتبر البعض كتبه جزءا من مكتبة كل أديب ومعجب بالأدب .

وقد دخل المنفلوطى السجن مرة واحدة فى حياته ٠٠ كان ذلك بسبب قصيدة هجاء قاسية كتبها ضد الخديو عباس حلمى الثانى ، ونشرها فى مجلة « الصاعقة » دون توقيع ، وكان الخديو عائدا من مصيفه فى الاسكندرية ، عندما نشرت المجلة أغرب تهنئة بعودة سموه ، قال فيها المنفلوطى :

وملك وان طال المدى سبيد
وعدت وحزن فى الفؤاد شديد
ولا قلب من القلوب ودود
علينا خطوب من جدودك سود
مصوب سهم البلاء سيد
كما ود آباء لك ورام جدود
نكون بطن الأرض حين تسود

قدوم ولكن لا أقول سعيد
غربت ووجه الناس بالبشر باسم
تمر بنا لا طرف نحوك ناظرا
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
أعباس ترجو أن تكون خليفة
فياليت دنيانا تزول وليتنا

وأثارت القصيدة مصر كلها .. وترجمتها الصحف الأجنبية ونشرتها ،
ورغم انها كانت تصب فى مجرى صراع كان قائما فى هذا الوقت بين الخديو
عباس وبين الانجليز ، الا أنها فجرت فى المجتمع المصرى قضايا ومناقشات
هامة . وفى المحكمة دافع المتهمان - المنفلوطى وأحمد فؤاد صاحب مجلة
« الصاعقة » - عن نفسيهما دفاعا طويلا .. وقالوا :

- ان كون الرعية لم تسر بقدم الخديو ليس خيانة عظمى ، ولا خيانة
للوطن ، لأن محبة الرعية لراعيا أمر اختياري ، وما من ملك الا وله من
ينقد أعماله ولا يسر بقدمه ، والملك ليس فى وسعه أن يرغم الرعية على
محبته لأنه ملك الأجسام .. لا ملك الأرواح والقلوب .

وأدانت المحكمة المنفلوطى .. فقد كان فى مصر وقتها قانون غير مكتوب
يجبر المصريين على أن يحبوا الخديو والا دخلوا السجن .

الوداع يوم الهول

أحيانا يموت الانسان فى وقت ليس هو الملائم تماما ؟

ذلك حديث للكاتب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى ، الذى مات يوم
أصيب سعد زغلول فى محاولة لاغتياله ، وشغلت مصر بالحادث ، تحدثت
عنه كل صحفها ومنندياتها وجماهيرها ونظم فيه كل شعرائها وأدبائها ،
ونسى الكل الى حين أن الكاتب العاطفى الكبير قد مات .

كان شيوخا معمما ومع ذلك تغزل فى الحب وكتب عن القبلات ، ونثر
العاطفة فى كثير من أعماله .. بدأ حياته فى قريته منفلوط ، وأتم حفظ

القرآن ، وانتقل الى القاهرة فدخل الأزهر ، وسرعان ما وجد أن طريقة التعليم - التي كانت متبعة في الأزهر وقتها - لا تتلاءم مع مواهبه الأدبية فأهمل دراسته ووقعت بينه وبين مشايخه في الأزهر مشادات بسبب ادمانه قراءة الكتب الأدبية وقرض الشعر ؛ وهو في السادسة عشرة ، التقى بالامام محمد عبده وتتلذذ عليه ، وعطف عليه الامام وقربه منه ، إلى أن مات فعاد المنفلوطى الى بلده ٠٠ فأقام بها وعندما تولى سعد زغلول وزارة المعارف لأول مرة عام ١٩٠٦ خلق له وظيفة أطلق عليها « المحرر العربى » وبقي فيها مدة حتى جاء الرئيس الأمريكى الأسبق تيودور روزفلت الى القاهرة ، وأدلى فيها بتصريحات أيد بها الاحتلال الانجليزى لمصر ، وثار الصحفيون فى مصر ثورة عارمة ، وتصدى له المنفلوطى بمقالات متوالية أثارت مستشار المعارف الانجليزى دنلوب ، فتوجه الى سعد زغلول طالبا فصل المنفلوطى من الوزارة لأنه يكتب فى السياسة ، لكن سعدا رفض بتاتا ، وقال للمستشار :

- ان الحكومة فى حاجة الى رجال مثل الشيخ المنفلوطى ، ولكنه ليس فى حاجة اليها ، والوظائف قبور للادباء ، ومن الخير للحكومة أن يكون مثله داخلها .

وعندما انتقل سعد باشا لوزارة الحقانية فى وزارة محمد سعيد باشا نقل المنفلوطى معه ، وخلق له أيضا وظيفة « المحرر العربى » وبقي بها الى أن انتخب سعد وكيلًا للجمعية التشريعية عام ١٩١٣ ، فأخذه معه ضمن سكرتاريتها وبقي بها الى أن نفى سعد فانتصر له المنفلوطى وكتب يسانده ، وأثار ذلك ثروت باشا ففصله من خدمة الحكومة ، وعاد بعد ستة أشهر الى عمل فى السراى الملكية ، تركه ليعمل رئيسا فى سكرتيرية مجلس الشيوخ .

كان فى الثامنة والأربعين يوم مات ٠٠ لكن زحام الحياة حجب عن الناس خبر موته فى حمى الضجة التى أحدثتها محاولة شاب طائش لاغتيال سعد زغلول ، وعندما هدأت الضجة تذكره الأدباء والشعراء وبكوه بشدة .

أبواق الاستعمار

كانت « المقطم » أشهر أبواق الاحتلال الانجليزي في مصر .

كانت صحيفة غربية ، وقحة في الدفاع عن مصالح ساداتها ، كتبت في مصر لتدعو المصريين الى شكر الاحتلال والاعتراف بأياديه على مصر ، والدعوة علنا الى الاستسلام له ، وتدافع عن سمومها بفجاجة شديدة ، فتتحدث عن الثورة العرابية باعتبارها « البلاء الذي نزل بالبلاد عام ١٨٨٢ ، وكيف صال شيطان الفوضى » ، ثم تقول « ولم تكن اليد المنقذة سوى انجلترا التي أرجعت المياه الى مجاريها وشيدت دعائم الحضارة . فهل نلام اذا شكرناهم ؟ نلام لاعترافنا بالجميل ؟ » .

وكان الاحتلال سخيا مع المقطم ، الى الدرجة التي جعلت مصانع انجلترا تبتكر آلة خاصة ، لطى صفحاتها بحيث يسهل على قرائها من العمد وأعيان الريف وضعها في جيوبهم ، وأعطيت مطبعتها امتياز طبع المطبوعات الحكومية رغم وجود المطبعة الأميرية ، وأخذت حق نشر التقارير السنوية التي كان يكتبها اللورد كرومر عن مصر ، وترجمتها في كتب وكسبت من ذلك مئات الألوف من الجنيهات .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى ، كانت « المقطم » تنفرد بالأخبار العسكرية الهامة ، تصدر بها « ملاحق » متعددة كانت تنتشر كالنار في الهشيم ، وقد اقتنى فارس نمر باشا أحد أصحاب المقطم عزية من ربح هذه الملاحق ، سماها عزية الملاحق .

وفي كل مناسبة وطنية كانت المقطم تتصدى للهجوم على المصريين ، فعلت هذا في حادثة دنشواي ، فهاجمت الفلاحين الأغبياء المتعصبين ، لدرجة أنها وقعت في خطأ بالغ ، فنشرت نيا إرسال المشائق الى دنشواي قبل صدور الحكم في القضية ، مما نبه الى أن الاستعماريين كانوا يخططون لاعدام المتهمين قبل أن تبدأ المحاكمة .

ولم يكن غريبا ان أن يشاع عن « اللورد كرومر » أنه قال انه يستطيع أن يحكم مصر بخمسين جنديا فقط بشرط أن توصل المقطم الصدور .

واختفت « المقطم » تماما في عام ١٩٥٢ بعد أن عاشت ٧٥ عاما .

الثوروى

يوما ما كانت كلمة الثورة حراما .. يرفضها الناس .. يزورون عنها ، يقف كل من يتهم بها ليعلم براءته من هذه التهمة الشنيعة .. مؤكدا أنه ليس ثوريا وأنه فقط من دعاة النهضة أو التقدم .. أو الإصلاح ؟

وحتى فى المسائل التى لا تتعلق مباشرة بالسياسة ، كانت الثورية تهمة تلتصق بالتمرديين ودعاة الإصلاح والرافضين للارواح فى أى مؤسسة .

واحد من هؤلاء « الثورجية » الذين عاشوا فى وجدان مصر وحياتها عمرا طويلا ، هو « القمص سرجيوس عبد الملك » الذى فرض نفسه على الوجدان العام طوال نصف قرن أو يزيد ، أصاب كثيرا وأخطأ كثيرا ، لكنه مضى وقد ترك ذكريات عزيزة يذكرها المسيحيون المصريون عنه باعتباره من أوائل الذين ثاروا داخل الكنيسة الأرثوذكسية المصرية مطالبين بإصلاحها ، وتهيئة حياة دينية وثقافية ومعاشية أفضل لرجال الدين ، ويذكرها المصريون جميعا - مسلمين ومسيحيين - لرجل كان من الطلائع التى دعت للوطنية المصرية وقاتلت من أجل وحدة كل المصريين ضد الاحتلال والقهر .

فى جرجا - وفى نفس السنة التى شهدت اجهاض الثورة العرابية - ولد « ملطى سرجيوس » من أسرة من القسس ، وحلم وهو طفل أن يكون واعظا ، وتتبع بشغف وعظ الوعاظ الذين يجوبون البلاد .

وهو فى السادسة عشرة التحق بالمدرسة الكلييركية ، واشتهر بالنبوغ والذكاء وسعة الاطلاع وتخرج بعد أربعة أعوام واستبقته المدرسة ليعلم الصف الأعلى .

ولأنه كان متمردا من الأصل ، فقد تزعم زملائه فى المطالبة بإصلاح المدرسة الكلييركية ، والنهوض بمستواها العلمى ، بتعيين أساتذة لاهوتيين ، ووضع برنامج واف ، وتعيين الخريجين وعاظا ، وقصر رسامة القسس عليهم ، واعداد ما يلزم الطلبة من مسكن وماكل ليتفرغوا للدراسة . ولما لم يجب الى طلبه قام بالاضراب . وكان أول اضراب يحدث فى مصر .

وأحدث الاضراب أصداء واسعة فى الصحف ، ولقى حماسا شديدا من الناس الذين اندفعوا يؤيدون الطلبة المضربين . ولما هدد مراقب الدار البطريركية باستدعاء البوليس لطردهم والقاء اثاثهم فى الشارع لجأ « الطالب سرجيوس » الى عميد الأقباط « بطرس باشا غالى » فأمر بفتح أبواب جمعية التوفيق - وهى جمعية اصلاحية قبطية - لاقامة الطلبة حتى تحل مشكلتهم .

منذ ذلك الحين أطلقت البطريركية لقب « الثوروى » على القمص سرجيوس ، ذلك اللقب الذى كان تهمة فى ذلك الزمن البعيد . . . والذى ما زال كذلك عند الذين ما زالوا يعيشون فى الزمان الذى مضى .

وان جارت على عزيزة

يوما قال احمد شوقى أمير الشعراء :

بلادى وان جارت على عزيزة وأهلى وان ضنوا على كرام
كثيرون يرددون هذا البيت ، عندما يجدون أنفسهم - لسبب أو لآخر - جوعى أو مشردين أو مهانين لا لسبب الا أنهم يحبون وطنهم ، ويجتهدون فى سبيله على قدر ما يطيقون . فينهال عليهم الذين لا يعيشون ، الا ببيع الضمائر والذمم ، ولا يرتفعون الا اذا اتهموا الآخرين . ورغم ذلك لا يفضلون أن يتركوا بلدهم ، ويرفضون أن يخونوا عهد الحب ، مهما ادلهمت الظروف !

شئ من هذا « للقمص سرجيوس » ، وكان رجلا جسورا الى حد التحدى ، ويوما فى أكتوبر عام ١٩٠٤ دعوه ليمثل أمام المحكمة فى الدار البطريركية ، فلما حضر أمام المجلس الاكليركى سألوه عن تهمة ملفة فاجابهم : « انى لم أبيع ضميرى بمثل ما تبيعونه وأنتم جلوس على هذه الكراسى » .

وانتهى الأمر باحالته الى الاستيداع ، وبعد عامين بدون عمل ذهب ليقابل البطريرك فطرده من مكتبه ، وخرج جائعا ومفلسا فعاد الى جرجا بنقود اقربها اياه بعض أهل الخير ، وما أن وصل حتى وجد دعوة من « البابا كيرلس مقار » بطريرك الكاثوليك يدعوه فيها لزيارته ، واستقبله بطريرك الكاثوليك استقبالا حارا .

وقام أحد المطارنة يمتدح « سرجيوس » ومواهبه ، ورد البطريرك قائلا :

- لا يا نيافة المطران ، انه لا يستحق شيئا من هذا المديح لأنه يضيع مواهبه فى كنيسة لا تقدره بل تحاربه ، وكان أولى به أن ينضم الى الكنيسة الكاثوليكية لتنتفع بمواهبه .

كان مشهد المقابلة بين سرجيوس وبين البطريرك الارثوذكسى لم يغادر ذاكرته بعد ، وعودته بنقود اقترضها من أهل الخير . لكنه رغم هذا رد قائلاً :

- يا صاحب الغبطة .. رجل أحنته الأيام وأضعفته الشيخوخة فاذا به يتوكأ على عصا ، فجاء رجل واختطف منه العصا .. ماذا تقول سيادتكم عنه ؟

فقال البطريرك مقار :

- أقول انه ظالم .

فقال القمص سرجيوس :

- لا أريدك أن تكون هذا الظالم .

وشارت كلمات حادة من الكاثوليك الذين كانوا يشهدون المناقشة لما عدوه تطاولاً من سرجيوس على مقام بطريركهم ، لكن البطريرك طلب منهم أن يسكتوا لأنه يريد أن يسمع ما يقوله سرجيوس ، وقال له :

- لماذا أكون ظالماً عندما أدعوك للانضمام الى الكنيسة الكاثوليكية ؟

فرد سرجيوس :

- ان كنيسة القبطية قد هدت الظروف والأحوال من قوتها .. فكلما قام واحد من أبنائها ليأخذ بناصرتها ، وتوسمت فيه أنتم أو البروتستانت خيرا دعوتموه للانضمام اليكم .. وكنيستكم غنية بالرجال .. أقول هذا وقد طردنى بطريكي بالأمس فى حر الظهيرة وليس فى جيبى مليم واحد .

حط الصمت على الكل .

دمعت عينا بطريرك الكاثوليك .

لم يكن شوقى قد قال بعد : بلادى وإن جارت على عزيزة .

قالها قبله سرجيوس .

المنطق والسياسة

كان الصراع بين « مصطفى كامل » و « لطفى السيد » ، وبين « الحزب الوطنى » و « حزب الأمة » ، وبين « اللواء » و « الجريدة » هو الملمح الرئيسى لحياة مصر السياسية فى العامين الأخيرين لحياة مصطفى كامل .

كان الحزب الوطنى - بزعامة مصطفى كامل - يطالب بالجملاء ، ويهاجم الاحتلال ، ويتبع سياسة المعاندة مع المحتلين على صفحات « اللواء » ، بينما كان « حزب الأمة » يطالب بالإصلاح التدريجى ويسالم الانجليز ، ويطلب بأن تنفصل مصر عن تركيا ، وكان المعبر عن كل هذه الآراء هو « لطفى السيد » فيلسوفه ورئيس تحرير صحيفته « الجريدة » .

ونشبت الخصومة السياسية بين الحزبين ، والصحيفتين ، والرجلين ، حادة وعنيفة ، ونال كل منهما الآخر بقوارض الكلمات ، وتناثرت الاتهامات ، وخطب كل منهما خطبا ساخنة ضد الآخر ، كان « لطفى السيد » عقلانيا متوهج العقل ، وكان « مصطفى كامل » عاطفيا متوهج العاطفة ، لذلك لم تتوقف المساجلات السياسية بين الاثنين يوما واحدا .

فى قمة تلك الخصومة ، مات مصطفى كامل ، وكان قد نجح قبل وفاته ، وبعد تضال شاق ، فى استصدار قرار بالعمو عن المحكوم عليهم فى قضية دنشواى ، لهذا جاءت وفاته المفاجئة ، صدمة قاسية للشعب ، وحزنت عليه الأمة وزاد من حزنها أنه كان شابا لم يتخط الرابعة والثلاثين من عمره .

وكان متوقعا أن ما كان بينه وبين لطفى السيد من خصومة سياسية ، ستقتصر ما يؤديه على أداء الواجب الانسانى فى رثائه ، وفى مجاملة أسرته ، ومجاملة مصر فى فقدته ، ويقول د . هيكل فى مذكراته : أنه لعلمه بعقلانية أستاذه لطفى السيد ، وحرصه على الصراحة والوضوح ، فقد توقع منه ألا يزيد عن ذلك ، ومع اعتقاده هذا ، حرص على أن يقف منه شخصيا على حقيقة رأيه فى هذه الفاجعة القومية ، فذهب غداة مشهد الزعيم الشاب الى سراى البارودى - مقر الجريدة - وصعد السلم يريد أن يستأذن على لطفى السيد كعادته ، وكان عجبه شديدا ، حين رأى باب حجرته مفتوحا على مصراعيه ، ورأى حاجبه لا يصد أحدا عن الدخول ، ودخل الحجره فرأى بها عددا كبيرا غير مألوف من الزوار الذين أحاطوا بالنضدة الطويلة الممتدة أمام مقعد لطفى ، وكان عجبه أشد من ذلك ، حين رأى أستاذه وقد ارتدى السواد واشتمل عنقه برباط أسود كبير ووقف وكأنه فجع فى أعز الناس عليه وأقربهم اليه .

وقف هيكل مبهوتا أمام منظر لم يكن يتوقعه ، ثم انسحب ولم يرد أن يطيل السماع لحديث لم يكن يآلفه من قبل ، لأنه لم يكن حديث المنطق الذي تعوديه من لطفى ، بل كان حديث مآثم تجرى فيه العواطف أدمعا أو ما يشبه الأدمع ، فلما ظهرت الجريدة بعد ذلك اليوم كان لطفى السيد أول داع لاقامة تمثال لمصطفى كامل ، ولجمع التبرعات الشعبية لهذا الغرض ، وأثار هذا عجب د . هيكل ، لم يسعفه منطق الشباب بما يرضاه عقله تفسيرا لما رأى وما سمع ، ولم يستطع أن يقنع نفسه بأن السياسة يمكن أن تبلغ من مخالفة المنطق هذا المبلغ ، فكتم ما فى نفسه حتى أفضى به الى استأذنه لطفى السيد بعد أيام فابتسم الأستاذ قائلا له أنه ما زال صغيرا لا يقدر مثل هذه المواقف .

لم يكن الكلام مقنعا ، وظل د . هيكل طويلا يتساءل عن العلاقة بين المنطق والسياسة ؟

السابقون لزمانهم

فى عام ١٩١٥ رفعت الأنسة « أسماء منصور » دعوى على وزارة المعارف العمومية ، تطالبها بالسماح لها بدخول امتحان الكفاءة . وكانت الوزارة قد سمحت للبنات فى السنة السابقة مباشرة بالتقدم الى هذا الامتحان ، ونجح بعضهن ، وبقيت الأنسة « أسماء » للاعادة ، وأخذت تستعد للامتحان بالفعل ، ودفعت رسومه ، ثم فوجئت قبل مواعده بأيام بخطاب من الوزارة يدعوها لاسترداد رسم الامتحان الذى دفعته فرفعت القضية تطالب بتمكينها من أداء الامتحان ، وتعويضها عما لحقها من تعطل وضرر .

ورفضت المحكمة الابتدائية كل الطلبات ، وترافع الأستاذ « مرقص حنا » (باشا فيما بعد) - وكان محاميا شهيرا - عن الدعية ، شارحا قضية تعليم البنات ، ووجوب فتح أبواب المدارس كلها أمامهن ، ولكن المحكمة المؤلفة من قضاة مصريين وانجليز لم تأخذ برأى المحامى ، وأصرت على أن لتعليم البنات حدودا معينة يجب ألا يتعدونها وأن جلوس الصبيان بجوار البنات فى الامتحانات العامة مما لا يمكن قبوله حسب العرف والتقاليد .

وبعد ذلك التاريخ بسبع سنوات فقط ، تقرر حق التعليم الثانوى للبنات بشكل كامل . وحققن نسب نجاح مرتفعة جدا ، وفى نفس السنة بدأ التفكير فى الحاقهن بالجامعة ، وتأجل المشروع الى عام ١٩٢٨ ، وفى تلك السنة قبل فى القسم الاعدادى لكليتى الطب والعلوم ثمانى طالبات مصريات من الحائزات على البكالوريا . وفى نفس السنة دخل الفوج الأول من الطالبات الى كلية الآداب .

وفى هذا العام دخل امتحان الثانوية العامة عشرات الألوف من البنات . فمن يذكر وسط زحامهن « أسماء منصور » أو « مرقص حنا » فألف رحمة على من يسبق زمنه .

خط ١٧ فى المحكمة

عندما انشئ خط ترام الجماميز رقم ١٧ لأول مرة ، كان يمر على بيت ثرى كبير من أثرياء ذلك الزمن ، كان يملك مزارع واسعة وأملاكا كثيرة ، يعيش كما يعيش ثرى خالى الببال ، ينفق أيامه فى المتع ، يبذل جهدا قليلا لتنمية ماله ، وجهدا اكبر لتنمية أهبته ، وللحفاظ على كبريائه ، ولائبات وجوده لا على اتداده فقط ، ولكن أيضا على الفقراء والمساكين . يفرض سيطرته على من يحيطون بمنزله ، بل ويعتبر الشارع نفسه ملكا له .

وكان أصحاب الأملاك يستخدمون فى تنقلاتهم فيتونا ، وكأى واحد منهم كان سعادة الباشا يخرج من منزله ، فيتوقف الراجلون ، ويفسحون له الطريق ، وينطلق هو بفيتونه . ويوما وقعت الواقعة ، ان قررت شركة الترام أن تمتد أحد خطوطها فى الشارع الذى يقع فيه قصره النيف ، وبدأ خط ١٧ العمل ، وفوجئ الباشا بالدنيا تتغير ، فالترام يحمل ناسا ليسوا من أهل شارعهم ، ويخرج هو الى الطريق فلا يتوقف الراجلون ، ولا يعم الصمت كما كان يحدث دائما ، وأثاره هذا وأغاظه ، فبدأ يشاكس ويقاوم ، وأدعى أن الشارع يقع فى ملكه وتحت حكمه ، فكانت عربته تنتظر أولاده صباحا على الشريط أمام الباب ، فتمنع الترام أن يسير ، وتقف القطارات صفا طويلا حتى ينزل أولاد الباشا ويذهبون بالفيتون الى مدارسهم .

وأثار ما يحدث الشيخ على يوسف ، صاحب جريدة المؤيد ورئيس تحريرها ، فكتب مقالا ساخنا وطريفا فى الموضوع الذى نقله الباشا الأخرق الى المحاكم فأصبح واحدا من أطرف القضايا التى عرضت على القضاء المصرى ، وتابعته الصحف بلهفة ، وركاب ترام ١٧ ينتظرون الحكم بفارغ الصبر ، ويأملون ألا يكسب الباشا القضية ، فيعودون الى السير على أقدامهم المنهكة .

وكان طبيعيا أن يخسر الباشا القضية ، التى كانت دلالة على حماقة الذين يملكون ، فيتصورون أن الدنيا وما عليها ينبغي أن تسخر لخدمة عنجهيتهم الفارغة ، لا يكتفون بأن يركبوا سيارات ، بل يصرون أيضا على أن يقف المنهكون والعارقون ، وألا يجدوا حتى فرصة لحشر أجسادهم فى ترام ١٧ .

الأميرة المشاغية

كانت الأميرة « نازلى فاضل » واحدة من أغرب شخصيات أسرة « محمد على » ، فقد أثارَت من الضجة والضحج ما لم يثره أى فرد آخر من أفراد هذه الأسرة الغربية التى أنهت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حكمها .

كان والدها « الأمير مصطفى فاضل » شقيقا للخديو اسماعيل ، ويسبب لعبة اسماعيل التى غير بمقتضاها قاعدة قانون وراثة العرش من أكبر أفراد الأسرة عموما الى أكبر أبنائه هو ، ضاعت فرصة « مصطفى فاضل » فى تولى عرش مصر ، وهرب الى الأستانة وانضم الى أحرارها ، أما ابنته فقد ناصبت أسرة اسماعيل العداة التام ، ودفعها هذا الى تأييد عرابى ، إذ كانت تأمل أن تؤدى ثورته الى اقتلاع توفيق من على العرش ، فتنتم من لعبة عمها الكبير الذى أضاع العرش على والدها .

فى صباها تزوجت الأميرة المشاكسة من خليل شريف باشا ، أحد ثراة الأتراك . وعاشت معه فى باريس فترة ، ثم عادت الى مصر وبقيت بها وأصبحت نجمة لامعة . إذ كانت تفتح صالونا أدبيا فى بيتها ، وتستقبل فيه قادة النهضة الأدبية والفكرية ، ومنهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وفتحي زغلول وشوقى ، والعشرات من أمثالهم .

وعندما عادت ، كان الخديو عباس حلمى الثانى - ابن توفيق وحفيد اسماعيل - يجلس على العرش ، ولأنه كان يعادى الانجليز فى بداية حكمه ، صادقت الانجليز وأخذت تتجسس على الخديو لحساب السلطان العثمانى ، ولحساب اللورد كرومر .

وكانت « نازلى فاضل » صديقة مقربة للزعيم « محمد فريد » . لكنه اختلف معها لأنها كانت كثيرة الطعن على مصطفى كامل . وحدث فى أواخر عام ١٩٠٧ - وكان مصطفى فى فراش مرضه الأخير - أن دعت عليه أمام محمد فريد ، وتمنت موته ، فغضب منها وقاطعها برغم صلتها المتينة به . وبعدها بعامين أدلت الأميرة بحديث لصحيفة « الاجيبيشيان جازيت » - وكانت لسان دار الحماية البريطانية - قالت فيه أن الشبان المصريين تاقهون ، وأن الواحد منهم لا يساوى ثمن الحبل الذى يشنق به ، وثارت عليها الصحف ، ورد عليها محمد فريد فى « العلم » - صحيفة الحزب الوطنى - بامضاء « صديق قديم » .

وقد لعبت الأميرة نازلى فاضل دورا هاما فى حياة الزعيم سعد زغول ، حتى ان صورتها كانت من الصور القليلة التى كان يضعها بجوار سريره ، وما زالت كذلك الى الآن فى متحف بيت الأمة ، إذ كان من أصدقائها ونجوم صالونها ، وعن طريقها تعرف بزوجته صفية ابنة رئيس الوزراء - آنذاك - مصطفى فهمى باشا ، وكانت الأميرة هى الوسيط فى الزواج ، وتعتبر الفترة التى ارتبط فيها سعد بصالون الأميرة ، أكثر الفترات اعتدالا فى حياته السياسية ، إذ كان - قبلها - من المتحمسين للثورة العربية . وممن حقق معهم فى نيولها ، ثم ارتبط ترده على صالون الأميرة « نازلى فاضل » . بالسنوات التى تفرغ فيها لبناء مستقبله الفردى وصعد من طالب أزهرى فقير ينتمى لأسرة من الفلاحين الى صهر لناظر النظار ، وخالط فيها الفئات الأرستقراطية . وهى الفترة التى انتهت فى ٩ مارس ١٩١٩ عندما دخلت الجماهير الحلبية ، فأحاطت سعد زغول بحبها ، فاذا بالثائر القديم فيه ينتفض ، فيزيح عنه آثار سنوات الراحة !

وهكذا انتهى تأثير الأميرة المشاغبة فى روح سعد زغول ، بعد أن فارقت الحياة بخمسة أعوام فقط ، إذ كانت قد غادرت الدنيا عام ١٩١٤ .

الدستور يا أفندينا

فى عام ١٩٠٨ اشتدت الدعوة للمطالبة بالدستور ، وارتفعت وعلا صوتها ، حتى أصبح أكثر الأصوات السياسية ضجيجا واجتذابا للاهتمام العام .

قبل ذلك بقليل كان « اللورد كرومر » قد ترك منصبه كمعتمد بريطانى فى مصر ، نتيجة للحملة الضارية التى شنّها ضده الزعيم مصطفى كامل بعد حادث دنشواى الحزين ، وحل محله السير « الدون جورست » . وبمغادرة كرومر مصر كف الخديو « عباس حلمى الثانى » عن التظاهر بالوطنية ، وانتقلت العلاقات بين السراى ودار المعتمد البريطانى الى ما سُمى بسياسة « الوفاق » .

كان كرومر هو أول معتمدى الاحتلال البريطانى فى مصر ، لذلك كان حريصا على تأكيد سلطة الاحتلال فوق أى سلطة ، وعندما تولى الخديو عباس حلمى العرش ، كان شابا معتزا بنفسه ، وسرعان ما وقع الخلاف بين الرجلين ، حادا وعنيفا ، وانتهى بأن انتمى الخديو للقوى الوطنية ، وتحالف مع مصطفى كامل والحزب الوطنى ، ومارس العديد من المشاغبات ضد الاحتلال .

وجاء « جورست » بسياسة جديدة هى المصالحة مع الخديو ان كان الاستعمار قد أدرك بذكائه المهود ، أن الخديو يبحث عن مكان له على خريطة السلطة فى مصر ، وأنه يتحالف مع القوى الوطنية لهذا السبب وحده ، لذلك سارع « جورست » يحقق له بعض ما يريد ليسحبه من التحالف مع هذه القوى ، وقبل الخديو المساومة ، وانتهى زمن وطنيته السعيد .

وبسرعة عدلت القوى الوطنية خطتها ، وأيقن الحزب الوطنى أن مهمته الأساسية أن يتحول من تجمع هلامى ينطلق من فكرة سانحة تتوهم أن كل المصريين أعضاء فيه ، لأنهم جميعا معادون للاستعمار ، الى حزب محدد المعالم له برنامج يقوم على أعضاء محددين ، ويعادى بعض القوى الأخرى ويرفضها . وأصبح برنامجه المحدد هو الجلاء والدستور .

وقاد الحزب عملية تعبئة جماهيرية واسعة مطالبيا بدستور ، وجمع الحزب خمس وستين ألف توقيع من أعيان البلاد ووجوهها ووثقيها وطلبتها ، وقدمها الى الخديو ، واجتمعت الجمعية العمومية - برلمان ذلك العهد - ووقف الخديو خطيبا فمر على طلب الدستور دون أن يقول رأيه فى الموضوع .

ولم تسكت الصحف : صدرت جريدة « الدستور » وفي صدرها مقال من نار ، تعترض فيه على موقف الخديو ، وكان مما قالت « ان اغفال الخديو لطلب الدستور واعتباره كأن لم يكن ، هو اغفال لأعظم حادث من حوادث البلاد السياسية التي يهتم بها الملوك والقادة ، وهو الأمر الذي شغل الناس كلهم على اختلاف نزعاتهم ، واغفال نية الحكومة ازاء هذه الميول يعتبر اغفالا لأعظم المطالب الوطنية التي شغلت بال الناس ، فاذا تدبرنا الخطبة مجردة عن هذين المادتين وجدناها لا تخرج عن كل خطبة سابقة » .

في الطريق تجمع الناس ينتظرون الخديو في كل موكب يخرج فيه ، ويهتفون :

— الدستور يا أفندينا .

تسعيرة للرتب

كثيرون حملوا القاب تشريف وهم بلا شرف ، وكثيرون ادعوا لأنفسهم مقامات عليا وهم في أدنى المراتب خلقا وضميرا وسلوكا .

وكان الخديو « عباس حلمي الثاني » هو أول من أبتدع الاتجار في الرتب والنياشين ، كان رجلا بخيلا ميثا على الدنيا ، لا هم له الا اكتناز الأموال ، وكان أكبر لص في مصر ، وربما في العالم كله .

وقد دفعه حب المال الى نهب الأوقاف الخيرية ، والحرص على التنظر عليها ، ثم الى بيع الرتب والنياشين ، وأحدث هذا أزمة بينه وبين اللورد كرومر الذي كان بذكاء استعماري خبيث ومدرب يستغل جشع حاكم مصر للبرهنة على أنها ما زالت في حاجة الى ارشاد وحكمة بريطانيا العظمى في ادارة شئونها ، وهو ما كان يدفع الزعيمين « مصطفى كامل » و « محمد قويد » على التوالي — اللذين كانا يحالفان الخديو ويحاولان دفعه الى موقف وطني — الى الثورة عليه ، واسماعه قوارض الكلم ، لأنه بلصوصيته يضر قضية مصر ، ويعطى المحتلين فرصة للتدنيد بالادارة الوطنية وللقول بأن مصر لا تصلح لحكم نفسها .

وكانت مسألة الاتجار في الرتب والنياشين ، حديث كل المجالس والمقاهي ، اذ كانت موضعا لمساومات في السوق السوداء ، ولها سماسرة

من الصحفيين والشعراء والأعيان ، وكان لكل رتبة أو وسام تسعيرة خاصة ، تتراوح بين الثلاثمائة والألف جنيه ، وكانت هناك عمولة للوسطاء الذين يأتون بشخص يريد الحصول على رتبة « باشا » أو « بك » أو « صاحب عطوفة » أو « سماحة » ، وحدث مرارا أن منحت الرتب لأشخاص ثبت فيما بعد أنهم من المحكوم عليهم فى قضايا تزوير أو اختلاس أو نصب أو احتيال ، مما دعا « كرومر » الى التدخل وتسليط جريدة « المقطم » - لسان حال الاحتلال - للهجوم على الخديو وفضحه وتهديده بسحب امتياز منح الرتب والنياشين منه اذا لم يعمل على سحب الرتب من المزورين والأفاقين ، وفى الوقت نفسه شنت الصحف حملات شعواء على القصر ، وكانت النتيجة أن خشى الخديو مغبة الأمر ، فترجع ، وعمد الى حيلة يحتفظ بها بموقفه ، بأن أمر جريدة « الوقائع المصرية » بنشر بيان جاء فيه « حصل خطأ فى كشف الرتب والنياشين ، ووقع تحريف فى بعض الأسماء وبعضها أخطاء وقع فيها صفاقر الحروف فى المطبعة الأميرية ، ولذلك نعيد نشر الأسماء الصحيحة ، وأعادت الوقائع نشر الكشف بعد أن حذفت أسماء النصابين والمزورين .

ووصلت السخرية من بخل سموه الى أعضاء أسرته أنفسهم ، فعندما ذهبت اللجنة التى كانت تجمع تبرعات انشاء « مدرسة محمد على » الصناعية بالاسكندرية الى الأمير أحمد كمال ، تطلب منه التبرع للمشروع ، سألها عما دفعه الخديو ، ولما علم أنه دفع عشرة جنيهاً ، أخرج من جيبه ثلاثة قروش وقدمها للجنة ، فقبل له :

- أتمزح أيها الأمير ؟

فكان جوابه :

- لا والله . . . ولن أزيد عن هذا المبلغ مليماً . وهذا كثير اذا قيس باكتتاب الوارث لعرش محمد على بعشرة جنيهاً فقط !

عاوزين ناكل عيش

كان المرحوم الشيخ « سيد المرصفي » من أساتذة الأزهر المستنيرين ، الذين أزعجهم ما آل اليه حال هذه المدرسة العلمية العظيمة ، من تأخر وجمود نتيجة لاغلاق باب الاجتهاد ، وسيطرة التخلف والجمود على الفكر الاسلامى .

جمع « الشيخ المرصفي » حوله عددا من الطلبة المتمردين في الأزهر ، وأخذ يدرس لهم دروس النحو والبلاغة بأسلوب جديد . كان يصطدم - كما يقول الدكتور طه حسين - بغلظة الذوق الأزهرى ، وكلال العقل الرجعى ، وكان سلوك الشيخ ونقده لمشايخ الأزهر ، يؤدى الى تحطيم القيود الأزهرية فى نفوس طلابه ، وينتهى بثورتهم على الشيوخ فى علمهم وذوقهم .

وكان الشيخ يعيش حياة العالم والفنان : يسكن فى منزل بباب البحر ، يمتلىء بالكتب والمراجع ، يستقبل فيه تلامذته ، فيساعده فى بحوثه ويشاركونه ندواته ، وسمره وأحاديثه ، وكان « المرصفي » من أشد علماء الأزهر فقرا وأضيقهم يدا . لدرجة أنه كان يعيش أحيانا أسبوع أو اسبوعين على « خبز الجراية » يأكله بقليل من الملح . ومع هذا كان كثير السخرية من شيخ الأزهر ، يؤكد لتلاميذه أنه - أى الشيخ - لم يخلق للعلم ولا للمشيخة ، وإنما خلق ليبيع العسل الأسود فى « سرياقوس » ، وكان الشيخ « المرصفي » ينطق السنين ثاء ، فسمى الطلبة شيخ الأزهر « بائع العتل الأثود فى ثرياووث » .

وأثار تلاميذ الشيخ المرصفي الأزهر ، بهجائهم للشيوخ الآخرين ، وجرأتهم العلمية والفكرية ، وبتحفظهم فى اطلاق أحكام الكفر على كل من استخدم عقله ، أو ناقش مسلمات الأولين ، وأخذ عليهم الشيوخ أنهم يقرأون كتاب « الكامل » للميرود ، وهو من المعتزلة ، فضلا عن أنهم بدأوا يجذبون الطلاب الصغار اليهم ويعلمونهم استخدام عقولهم .

وفوجئ الطلبة الثائرون يوما بشيخ الأزهر يستدعيهم ليهدهم بمحو أسمائهم من الأزهر ، وصرفهم بعنف شديد ، ثم استدعى الشيخ المرصفي ، وأمره بعدم قراءة كتاب « الكامل » ، وكلفه بقراءة كتاب غيره ، ولم يهتم الطلبة الثائرون . وتحلقوا كالعادة بشيخهم المستنير . وهم واثقون بأن الدرس سيتحول كالعادة الى حلقة للمناقشة الحرة التى لا تحدها قيود ، حتى ولو كان واضعها هو بائع العسل السرياقوسى .

وهم « طه حسين » - وكان أحد هؤلاء الطلاب الثائرين - أن يتحدث بنفس لهجته القديمة مع شيخه فاذا بالشيخ يسكته فى رفق وهو يقول :

- لا . لا . عاوزين ناكل عيش .

وأحدثت الكلمة أثارا شديدة من خيبة الأمل . وعلق عليها طه حسين بقوله : انه لم يعرف انه حزن منذ عرف الأزهر ، كما حزن حين سمع هذا الكلمة من أستاذه .

مقالب الشعراء

كان الشاعر المرحوم « حفنى ناصف » من أظرف شخصيات الجيل الأسبق ، ومن أكثرها تدبيرا للمقالب الساخنة .

وأشهر مقالبه دبرها للمرحوم « توفيق البكرى » شيخ السادة البكرية ، وكان الشيخ على علاقة سيئة بالخديو « عباس حلمى الثانى » الذى كان يتهمه باستمرار أنه يدس له لدى السلطان العثمانى ، ولدى الصدر الأعظم فى استانبول ، كما اتهمه بأنه هو الذى حرض « مصطفى لطفى المنفلوطى » على كتابة قصيدته التى هاجم فيها الخديو وكان مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد وملك وان طال المدى سيبيد

ولما كان « حفنى ناصف » من أصدقاء الخديو ، فقد فكر فى تدبير مقالب ساخن لشيخ السادة البكرية ، واعتمد فى ذلك على معرفته بنفسية الشيخ ، الذى كان شديد الثقة بمواهبه الأدبية ، ومعلوماته وشاعريته الفذة . وفى أحد الأيام قال له حفنى ناصف :

- هل تبارينى فى الشعر !؟

وما كاد يتم الكلمة ، حتى قامت قيامة الشيخ ، واستفزّه أن أحدا يظن نفسه يستطيع كتابة شعر أفضل من شعره ، وصاح بحفنى ناصف أن يختار أى موضوع يرغب فى المباراة فيه ، وليثق بأنه مهزوم .

وتظاهر « حفنى ناصف » بالتفكير ، وأخذ يستعرض أغراض الشعر ، ويهون من شأنها ، ثم اقترح فى صيغة التضعيف أن يتباريا فى مدح فضيلة اللواط بالفتيان ، وتفضيلها على غيرها من ضروب المتعة الطبيعية . . هذا إلا اذا كان الشيخ لا يعرف الكتابة فيها .

وصاح الشيخ مستفزا :

- كيف ؟

وأبدى استعداداه للكتابة على الفور ، وأخرج ورقة وقلما وأخذ يمدح هذه الرذيلة ، ويستطرد ما شاءت له شاعريته ، وعندما انتهى أكد له « حفنى ناصف » أن شاعريته لا تبارى . . وأخذ ما كتبه معه .

ووصلت القصيدة الى الخديو عباس ، فسر بها سرورا عظيما ، وأخذ يشهر بالشيخ فى كل مكان ، وكان « البكرى » معروفا بصلته بدار المنسوب السامى ، فتعمد الخديو أن يعرض القصيدة على « اللورد كرومر » ومن يومها لم يدع شيخ السادة البكرية لأى حفلة من حفلات اللورد .

شيخ العروبة

العلامة « احمد زكى باشا » الملقب بشيخ العروبة ، من أعجب الشخصيات فى تاريخ الفكر المصرى ، فقد تعددت اهتماماته وتنوعت ، وتعددت الخدمات التى قدمها للغة والأدب والفكر .

وحتى عام ١٩١٢ لم تكن الكتابة العربية تعرف الرموز التى تصدق للقارئ أو لمن يخطب أو يلقى ، متى يقف عند القراءة ، ومدة الوقفات ، اذ كانت الكتابة منسوخة ومطبوعة تسترسل دون أى علامات ، مما كان يكبد القارئ مشقة عدم الفهم أحيانا ، ويدفعه الى اعادة القراءة ، لكى تستقيم الجمل والعبارة .

وقد اهتم « احمد حشمت » وزير المعارف آنذاك بهذا الأمر ، وطلب من العلامة « احمد زكى باشا » أن يدرسه ، ليتوصل الى طريقة لوضع بعض العلامات التى تفصل أجزاء الكلام بعضها عن الآخر مما يسهل فهمه ، وقد استجاب للطلب ، فعاد للمراجع العربية وقارن بين الوارد فيها والمستخدم فى اللغات الأجنبية ، ثم وضع ما يعرف بعلامات الترقيم المستخدمة فى الكتابة العربية ، مثل : الشولة (،) والشولة المنقوطة (؛) وعلامة الاستفهام (؟) وعلامة التعجب (!) الخ .

ومن اهتمامات شيخ العروبة الغربية أيضا محاولته ادخال الاختزال فى الكتابة العربية ، واختصار حروف الطباعة من ٩٠٠ الى ١٣٢ حرفا . وهو أول من أدخل الى اللغة العربية كلمات « السيارة » بدل (الأوتومبيل) و « الصحافة » بدلا من (الجرائد) و « الدراجة » مقابل (البسكليت) ، وله رسالة عن « مجالس المعدادات والندابات » فى مصر تضم أشعارهن ومراثيهن ، ومن أسف أنها فقدت ، وكان أعجب ما فى حياة شيخ العروبة ، مكتبته الضخمة التى ضمت لدار الكتب وهى المعروفة « بالخزانة الزكية » وتضم ١٨٧٠٠ مجلدا . وقد مات فى يوليو ١٩٣٤ عن ٦٧ عاما .

أخص . دا ديمقراطى

خلق الصراع السياسى فى مصر مجموعة من الأساليب الغربية فى معاملة الخصوم السياسيين الى الدرجة التى أصبح معها تشويه سمعة هؤلاء الخصوم هو القاعدة والأساس .

حدث فى عام ١٩١٣ أن رشح المفكر الديمقراطى « احمد لطفى السيد » نفسه لعضوية الجمعية التشريعية ، فى احدى دوائر مديرية الدقهلية - وكان أيامها رئيسا لتحرير « الجريدة » ومن أعيان الناحية المعروفين - وهو ما أقلق منافسه « عثمان سليط » وجعله يوقن أن الدائرة سوف تطير مائة فى المائة .

وكاد « سليط » يتنازل يأسا من الفوز ، لولا أن صديقا له أقنعه بأن هناك وسيلة تقضى على منافسه ، وعلى الفور اختارا مجموعة من أعداد « الجريدة » التى تحمل مقالات « لطفى السيد » فى الديمقراطية ، ومساواة الرجل بالمرأة ، وبدأ الاثنان يطوفان بالدائرة ، فاذا ضمهما مجلس ، قال الصديق :

- ان « لطفى بك » كفو ونزيه . بس يا خسارة !!

فاذا سأله الحاضرون :

- على ايه يا سيدنا البيه ؟

قال : لو ماكنشى ديمقراطى .

وينشط أحد أنصار « لطفى السيد » الى دفع الاعتراض ، متسائلا عن غيب « الديمقراطية » ، عندئذ يقول الصديق :

- ألا تدرى ما هى الديمقراطية ؟ انها مصيبة على الدين وعلى العادات ! ألا يطالب لطفى بك بمساواة المرأة بالرجل ؟ طيب أليس من حق الرجل أن يتزوج بأربع نساء ؟ فاذا تساوت المرأة والرجل فى الحقوق . . ألا يكون معنى ذلك أن تصبح للمرأة نفس حقوق الرجل ، فتتزوج هى الأخرى بأربعة رجال ؟ اذا كان هذا يرضيكم يا حضرات الناخبين فانتخبوا صاحب هذا الرأى المخالف لدين الله وأحكام الشرع وعادات المسلمين .

وبعد هذا يناول الصديق السامعين أعداد « الجريدة » ليقروا ويتأكدوا بأنفسهم من صدق الكلام ، وهو ما كان ينتهى عادة بالقائها على الأرض ، مصحوبة بكلمات « نعوذ بالله . . ان هذا لكفر صحيح » .

وأصبح « لطفى السيد » من يومها معروفا باسم « لطفى الديمقراطى » . اذا جاءت سيرته تصاعدت على الفور كلمة : لطفى الديمقراطى . . اخص . . دا ديمقراطى . . يدعو لاستباحة الأعراض ، واختلاط الأنساب والخروج على أحكام الشرع الحنيف .

ولم تكن المسألة فى حاجة الى مجهود بعد ذلك ، فقد طارت الدائرة .

الشعب • والشعب

فى أغسطس ١٩١٤ ، نشبت الحرب العالمية الأولى ، وبات واضحا أن الوضع السياسى لمصر على وشك التغير بين لحظة وأخرى • أيامها كان « الحزب الوطنى » يمر بمحنة شديدة ، فقد اضطرت الملاحقات المستمرة زعيمه « محمد فريد » الى الهجرة خارج البلاد ، وجاء الخلاف بين ورثة « مصطفى كامل » وبين « محمد فريد » لينتهى بخروج جريدة « اللواء » عن الحزب واستقلال أسرة « مصطفى كامل » باصدارها ، وأصدر الحزب جريدة « العلم » لتكون المنبر الذى يعبر عن آرائه ، ولكن الصدام بينها وبين المعتمد ما لبث أن أغلقها •

وفى عام ١٩١٣ أصدر « أمين الرافعى » جريدة « الشعب » لتكون منبرا جديدا من منابر النضال الوطنى ضد الاحتلال ، واستمرت تصدر حوالى تسعة عشر شهرا • لكن ما أن قامت الحرب حتى تغيرت الأحوال ، فكثرت القوانين المقيدة للحريات وعلى رأسها قانون التجمهر ، وبات متوقعا بين لحظة وأخرى أن تعلن الحماية البريطانية على مصر •

وكان على الصحف المصرية التى تصدر فى العواصم ، أن تنشر قرار الحماية الذى كان منتظرا صدوره ، وشق على « أمين الرافعى » - محرر « الشعب » اذ ذاك - أن يكتب بيده أو أن ينشر فى صدر صحيفته وثيقة الاعدام التى أعدها المحتلون لمصر •

وانتهى تفكير « أمين الرافعى » الى قرار بأن استمراره فى اصدار « الجريدة » الى أن يأتى الوقت الذى يفاجأ فيه بأن عليه أن ينشر قرار اعلان الحماية ، يعنى تلويث مجموعات « الشعب » التى كانت صوتا للحركة الوطنية وتعبيرا عن ضميرها ، كما أن الاجراءات التى ستتبع اعلان الحماية - أو تصدر مع اعلانها - لا يمكن أن تنشر فى جريدة هذه صفاتها ، لما تتضمنه من عدوان على الشعب المصرى • وببساطة قرر « أمين الرافعى » أن يخلق جريدته • وفى ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ - وقبل اعلان الحماية البريطانية على مصر بعشرين يوما - احتجبت الشعب عن الصدور ، وظلت مجموعاتها الى اليوم شاهدا على أن الصحافة يمكن أن تسقط دفاعا عما تؤمن به فالكتابة ليست أكلا للعيش ، ولكنها استشهاده فى سبيل الرأى •

كرامة الوطن

كثيرون أخذوا على « رشدي باشا » قبوله لإعلان الحماية البريطانية على مصر ، ولعزل الخديوي « عباس حلمي » واستمراره في منصبه رغم هذه الضربة القاصمة التي أصابت الوطن في الصميم .

وفي معرض دفاعه عن نفسه أكد « رشدي باشا » أكثر من مرة أنه لو رفض الحماية واستقال عند إعلانها ، فإن هذا كان سينتهي بضم مصر إلى الامبراطورية البريطانية وتحويلها إلى إحدى مستعمرات التاج البريطاني ، وبرغم هذه المبررات التي تبدو مقبولة ، فإن كثيرين يؤكدون أن واجب « رشدي » كان يفرض عليه أن يستقيل بصرف النظر عن أي شيء ، خاصة أن الحماية لم تكن تختلف في شيء عن الحاق مصر بالتاج البريطاني .

وبرغم أن الخديو عباس الثاني - الذي عزل عن العرش - قد أقر - فيما بعد - صحة تصرف رشدي ، وأرسل له رسالة شقوية يعترف فيها أن رشدي أخلص النصح له ، وأنه كان مجتونا عندما لم يصغ إلى هذا النصح ، مناقشدا رشدي باشا أن يتدخل لدى الانجليز ليحول دون مصادرة أملاكه ، رغم ذلك فإن كثيرين لاحظوا - بدهشة - أن رشدي الذي تقاعس عن الاستقالة بسبب اهدار كرامة الوطن قد هدد بها عندما فكر الانجليز في مصادرة أملاك الخديوي ، وأتى تهديده بثمره فعلية إذ عدل الانجليز عن تفكيرهم بعد ٤٨ ساعة من تهديد رشدي بالاستقالة فسحبها الرجل بعد أن حقق هدفه من تقديمها .

ليس هذا فقط بل إن « رشدي » كان قد سبق له أن قدم استقالته عندما ظن أن كرامته قد مست . إذ كان يوما مع « محمد سعيد باشا » في سراي القبة ، وشكا لهما الخديوي من زيارات اللورد كتشنر - المندوب السامي البريطاني - للأقاليم وما نظم له من استقبالات ، وعرض « رشدي » عليه أن يتجول في الأقاليم ، على أن يقدم له الوزراء ما لديهم من طلبات الأهالي .

ولم يكذ « رشدي » ينتهي من كلامه حتى ارتفع صوت الخديوي يقول :

- ما هذا النفاق .. بالأمس وزير يسئ إلى .. واليوم وزير يتظاهر بالاخلاص لي ؟

وكان الخديوي يشير بذلك إلى رفض الوزارة قبل فترة تنفيذ رغبته في تعيين ابن صديق له في وظيفة عالية بالأوقاف .

وفزع « رشدي » من الكلمة ، ونهض من مقعده ، وقصد إلى مكتب السكرتيرياتي وحرر استقالته وعاد بها إلى الخديوي ، وكان منفردا بنفسه بعد رحيل « سعيد باشا » فما كاد يقرأ الاستقالة حتى مزقها .. وقال لرشدي :

- كيف تصورت انك المقصود بالكلمة ٠٠٠ انما قصدت بها محمد سعيد باشا ٠٠ فانهب الى عملك وكن واثقا انى مرتاح كل الارتياح ٠

وهكذا غضب رشدي باشا لكرامته ولكنه لم يغضب لكرامة الوطن ٠

منطق !!

وكالة البلخ

كانت وكالة البلخ - وما زالت - أكبر سوق للمخلفات وللسلع المستعملة والقديمة ، ورمزا لعالم يثرى فيه المغامرون بالصدفة والحظ أحيانا وبالنصيب والتهريج غالبا ، لهذا يطلق المصريون اسمها أحيانا على كل الذين يرتفعون بلا سبب ، الا بضربات الحظ وخبطات الزمن ٠

فى عام ١٥٨٢ كانت ريفا - اى بيتنا كبيرا - لأحد اعيان القاهرة يقع بالقرب من شاطئ النيل بجزيرة بولاق ، وشب حريق هائل اجتاح كل ما حول الربيع من قصور وبيوت ، وبقي وحده ، تحيط به الخرائب ، ثم انقلب الربيع مع السنوات سوقا لبيع القطن ، وأطلق عليه اسم « ربيع القطن » الى أن رحل عنه تجار القطن الى الاسكندرية ، بعد أن أصبح البحر وسيلتهم لتصدير اقطانهم وليس النهر ، وحل محلهم تجار أفقر حالا ، هم تجار البلخ ، وبتوسع تجارتهم أطلق على هذه السوق الكبيرة كلها اسم « وكالة البلخ » ، وكان اسم « الوكالة » يطلق على الأسواق المتخصصة فى نوع معين من السلع ، كوكالة الصابون ٠

وفى الحرب العالمية الأولى هجر تجار الوكالة التجارة فى البلخ واشتغلوا بتوريد ما يلزم السلطات البريطانية من عدد ومواد أولية ، وتجمعت فيها مخلفات الجيوش المتحاربة من ملابس وأدوات وقطع غيار ٠

وعندما انتهت الحرب الأولى ، اشترى التجار مخلفات الجيش البريطانى وأودعها مخازنهم بوكالة البلخ ، ومن يومها انقلبت الوكالة سوقا للخردة والمخلفات ٠ واتسع نطاق العمران حولها وتعددت المتاجر وبزغ نجم تجارها خلال الحرب العالمية الثانية ، وأصبح بينهم أصحاب ملايين لا يعرفون كيف يعدونها ، لأنهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ولا حتى الحساب ٠

وفي تلك الحرب المغربية تناقل تجار الوكالة حكايات كالأساطير ، عن تاجر زجاج متجول تعاقد قبل الحرب مع إحدى شركات الأدوية على توريد ١٠ آلاف زجاجة فارغة بسعر مليمين ليكسب عشرة جنيهاً في الصفقة كلها ، وقامت الحرب وارتفع سعر الزجاج إلى أربعة قروش ، ومن ربحه في الصفقة دخل تجارة اطارات السيارات وكسب منها ملايين من الجنيهاً . وتناقل الناس أيضاً أنباء عن تجار الروبائيكيا - وهي كلمة إيطالية تعنى المخلفات - الذين أصبحوا من أصحاب الملايين ، وعن تاجر اشترى مخلفات مفسكر بريطاني بمنطقة الشط - على الشاطئ الآخر من القناة - بمائة ألف جنيه فوجد فيها ثلاثة مخازن كبيرة ملأى باطارات السيارات ، فباعها بمائة وخمسين ألفاً .

أيامها كان الناس في مصر يعانون من الجوع الذي نتج من امتلاء أرضها بالجيوش الأجنبية التي كانت تلتهم الطعام وحتى الشرف والعرض ، لكن تجار وكالة البلح لم يكن يهمهم ما يعانيه الناس ، ولكن ما يربحونه من الحرب ، لذلك كانوا يدعون دائماً أن تمتد الحرب إلى ألف عام ، وأن تبقى الجيوش الأجنبية في أرضها إلى الأبد ، طالما يربحون ، ويتحولون من تجار متجولين إلى أصحاب ملايين !

لكن أحداً لا يستطيع أن يفرض على التاريخ أن يسير كما يهوى ، فانتهدت الحرب ، وعادت وكالة البلح إلى حجمها الطبيعي ، تصنع أغنياء لا أصحاب ملايين !

الإسلام والحياة

ظلت علاقة الرجل بالمرأة لسنوات طويلة مثارا للخلاف في الرأي ، بين الذين يريدون للإسلام أن يظل - كما هو - جوهرًا نقيًا مستنيرًا ، لا يمكن أن يؤدي تطبيقه إلى تعاسة الفرد أو إلى ضياع للحقوق ، وبين الذين يسيئون إليه بالحماس للنص دون فهم الجوهر ، ولا ينتبهون أنهم بما يفعلون قد يرسون أوضاعا تسبب تعاسة للإنسان ، لا يمكن أن يقصدها الإسلام . ولا أن تكون من جوهره .

وحتى الحرب العالمية الأولى كان الزواج فى مصر فوضى ، ان لم يكن يتم تسجيله فى سجلات منتظمة ، ولم يكن يخضع لآى قيود : وقتها كان الزواج يتم بمجرد شهادة شاهدين أمام المأنون ، ولم تكن هناك شروط لسن الزواج . وهو ما انتهى بفوضى عارمة ، أصبح معها بعض الآباء يزوجون أبناءهم وهم أطفال فى التاسعة أو ما حولها ، ولم يكن وراء هذا أى رغبة حقيقية فى بناء أسرة سليمة ، ولكن كان وراءها مصالح دنيوية قصيرة النظر ، فقد كان بعض أثرياء الريف يلجأون الى عقد صفقات تضمن انتقال الارث منهم الى أعقابهم ، ويحرصون على ارتباط هؤلاء الأعقاب بأسر تتكامل معها اقتصاديا ، وأن يتم هذا فى حياتهم ، وهو ما كان ينتهى بتزوج أطفال يلعبون « الحجلة » فى حفلات عظيمة للترفيه .

وثار رجال الدين المستنيريون ، وثار الأطباء وقالوا ان فى ذلك خطرا شديدا على الأطفال الذين يتزوجون دون أن ينموا من الناحية الفسيولوجية ، وأن العيث الجنسى فى هذه السن خطر على صحتهم وعلى نفسياتهم ، وانتهت تلك الثورة ، يصدر قانون يجعل الحد الأدنى لسن زواج البنت ستة عشر عاما والفتى ثمانية عشر عاما .

وثار المتزمتون من رجال الدين وانتشرت الاتهامات بالخروج عن الشريعة والاحاد فى الدين .

ورد المستنيريون والأطباء ، فقالوا ان عدم تحديد سن الزواج يسبب تعاسة وخطرا على الصحة الجسمية والنفسية ، وأن الاسلام لا يمكن أن يكون سببا فى تعاسة للذين يؤمنون به .

واستطاع المتزمتون أن يجذبوا اليهم بعض جماهير الشعب ، باثارة مخاوفهم على الاسلام . . وأيامها انتشر موال يعكس السخرية من القانون يقول :

البنت قمر ١٤

والسن لسنة ١٣

والصدر ماشاء الله راجر

مايفوتش من بيت القاضى

أبوها راضى وأنا راضى

ومالك انت بقى يا قاضى

ومضت سنوات طويلة قبل أن يكتشف الناس أن القاضى كان يحافظ على أبنائهم وعلى الاسلام ، وأن المتزمتين لم يفهموا الاسلام ولا الحياة .

عباس جاى

عاش الخديو عباس حلمى (الثانى) فى وجدان الشعب المصرى طويلا . شاء حظه أن تنتشب الحرب العالمية الأولى وهو فى تركيا التى كانت متحالفة وقتها مع الألمان ضد إنجلترا ، وبسبب ميوله للاتراك والألمان ، عزله الانجليز وأعلنوا الحماية البريطانية على مصر .

من استانبول الى عواصم أوروبا المحايدة ، الى بزلين ، ظل « عباس حلمى الثانى » طوال سنوات الحرب يتنقل ، يتابع أنباء الحرب ويأمل أن تنتهى بانتصار الألمان والأترك فيعود الى مصر .

قبل هذا التاريخ بعامين كان الزعيم « محمد فريد » قد ترك مصر هو الآخر مهاجرا الى استانبول ، كان عملاء الاحتلال البريطانى يتآمرون عليه ويخططون لوضعه فى السجن ، ورغم أن الخديو كان قد خانه هو الآخر بين من خانوه ، فاته عندما التقى به مطرودا ومخلوعا وبلا عرش ، تحالف معه وعاد الاثنان يخططان لحملة عسكرية على مصر يقوم بها الجيش العثمانى ، تحررها من الاحتلال وتعيد كل شىء كما كان .

من بعيد : كان المصريون يتابعون أنباء الخديو والزعيم ، وتتسلل اليهم - رغم قسوة الرقابة البريطانية على الصحف - أخبار الحملة العثمانية على مصر ، فيرتجفون فرحا لأن يوم الخلاص قد قرب ، ولا يفقد المصريون الأمل ، ويصبح اسم الخديو المبعد رمزا لحرية مصر واستقلالها . فى الشوارع يغنى الأطفال أغنية تقول « الله حى عباس جاى » ، وتمر أمامهم قوات جيش الاحتلال ، فيصرخون فى وجوههم بمطلع الأغنية ويجرون ، ويدهش الجنود الذين لم يفهموا من الموضوع شيئا ، ويتشجع الأطفال فيسيرون مسافة أطول ، ثم يكتشف المحتلون اللعبة ، فيطاردون الأطفال . وفجأة أصبح اسم عباس شبحا ، يحرص بعض الآباء على تسمية أبنائهم به ، كنوع من التحدى لكل شىء .

وتفشل الحملة العثمانية . . وتخبو الآمال . . ويختفى عباس فى زحام الحياة ، ويموت « محمد فريد » وحيدا منفيا ، ولا يعود أحد يهتف « الله حى ، عباس جاى » ، لكن مصر كانت تنتفض من أقصاها الى أقصاها . . ذلك أن الشعب نفسه هو الذى جاء . .

قامت ثورة ١٩١٩ !

الشوارع والبطولة

ليست الجدران أحجاراً صماء ، لكنها تاريخ وذكريات ومودات ونشوات
وأحزان .

لكل شارع تاريخ ولكل حارة قصة ، لو رفعت أسفلت طريق ، فربما
وجدت قصة شهيد أو أثر موكب من مواكب الثورات ، أو ملجأ من ملجأ
البطولة .

• لكن الشوارع تتغير كما تتغير الأشياء والأفكار .

ولأن الزمن وغد ، فما أكثر ما تدوس الأقدام على البطولة وما أكثر
ما تزدرى الاستشهاد .

كثير من شوارع القاهرة أنشئت لأول مرة في عهد الخديو اسماعيل ،
الذي كان أول من بدأ عملية تحويل القاهرة الى عاصمة كبرى تناظر شوارع
أوروبا في اتساعها وتنسيقها . ومنها شارع عبد العزيز الذي أنشئ بمناسبة
زيارة السلطان العثماني عبد العزيز لمصر منذ حوالي مائة عام . وبعضها
أنشئ في أوائل القرن . لم يزد عمره عن نصف قرن الا قليلا . ومنها
شارع سليمان باشا - طلعت حرب الآن - الذي كان شارعاً مظلماً وكثيباً
الى عام ١٩١٥ ، ليس به محل تجارى واحد ، ان كان مجموعة من الفيلات
يملكها اغنياء اليهود والجاليات الأجنبية ، ليس بينهم مصرى واحد ، وكان
السكون يخيم على الشارع من المغرب ، حتى انه كان لسكونه وظلامه مسرحة
« لأصحاب المزاج » المغرمين من الجنسيتين ولولا أرصفته الاسفلت المعوجة
لامتد نشاطهم فيه الى ما يجاوز اللقاء .

بعد ذلك التاريخ بسنوات قليلة كان شارع سليمان ، واحداً من شوارع
مصر التي تفجرت بالثورة اللاهية في سنة ١٩١٩ ، فشهد مظاهرات لا حد
لكثافتها ، وسقط فيه شهداء ، ومات على أرصفته شبان في عمر الزهور ،
ويوماً جلس على « مقهى ريش » فى عام ١٩٢٠ شاب من طلبة كلية الطب
- وكان للمقهى شرفة عريضة تمتد الى مشارف الميدان نفسه - ينتظر وزير
الأشغال المصرى « محمد شفيق باشا » الذى كان يحاول التصرف فى ميناء
النيل بالسودان لحساب الاستعمار البريطانى ، لقتله . والقى بالفعل عليه
قنبلة لكنها طاشت ولم تصبه . ومن شارع سليمان الى الليمان ذهب الشاب
الصعيدى عبد القادر شحاتة .

• فمن ذا يذكر البطولة اليوم ممن يمرون فى شارع سليمان .

النصيحة التي لم تسمع

في عام ١٩١٦ عزل مدير البحيرة « محمد محمود باشا » من منصبه بسبب البشاعات التي حدثت أثناء توليه عمله .

أيامها كانت الحرب العالمية الأولى في قمتها ، وكانت الحكومة قد كلفت العمدة بوضع كشوف بأسماء المراقبين والمشتبه في أمرهم ، وحثمت على هؤلاء أن يبيتوا في دوار العمدة لاتقاء أخطارهم ودفع شرهم عن الأهالي . وكما هي العادة فإن المديرية والمراكز لم تدقق فيما يدرجه العمدة من الأسماء في كشوف المشبوهين ، وبسبب هذا انتهز العمدة الفرصة ، وأدرجوا أسماء خصومهم الشخصيين والسياسيين ومن يريدون تسخيرهم للعمل في اقطاعاتهم في هذه الكشوف ، ومارس كبار ملاك الأرض « ديموقراطية » من نوع فريد .

ومن أشكال « الديموقراطية » التي انتشرت هذا الوقت ما عرف بالتغريب ، وهو نفى الرجل إلى أبعد مركز عن وطنه الأصلي في المديرية ، وكان التغريب يتم بطريقة بالغة الاندال ، إذ كان المغرب يعرض على كل مراكز الشرطة التي يمر بها بحجة أنه ربما يكون متهما في حادثة من الحوادث التي لا يزال الفاعل فيها مجهولا ، وكانوا يقودون الناس لهذا الغرض مكبلين بالحديد .

كثير من هذه البشاعات حدث في مديرية البحيرة التي كان مديرها وقتها هو محمد محمود باشا . فقد تفنن رجال الإدارة في القبض على الفلاحين بتهمة الاشتباه ، وتغريبهم ، وإضافة إلى هذا ضرب رجال البوليس الفلاحين وجوعوهم وجلدوهم ويطوهم بحبل يمسكه فارس من رجال الشرطة يكرههم على العذر مسافات بعيدة ليلحقوا بجواده من ايتاي البارود التي دمنهور التي بلاد أخرى . وظهرت آثار الضرب على أرجل نحو أربعين رجلا من المتهمين ومات أحدهم من شدة الضرب .

وهكذا انغمس الاقطاعيون في ممارسة ديمقراطيتهم الفريدة ، وضع الناس بالشكوى ، وبدأوا يرفعون شكواهم إلى السلطان حسين كامل حاكم مصر وقتها ، فأمر بإحالة محمد محمود باشا إلى المعاش وتقديم حكمدار البحيرة وأمور ايتاي البارود وبعض ضباط الشرطة إلى المحاكمة . كانت قضية ساخنة انتهت بسجن الحكمدار سنتين مع الشغل . وأمور المركز عدة شهور ، وحبس بعض ضباط الشرطة لمدة سنة مع الاحتفاظ بالحقوق المدنية لأهل أحد الذين ماتوا تحت التعذيب ، وصدر قرار بفضل وكيل نيابة المركز المذكور لأنه شاهد تعذيب المتهمين وسكت عنه .

وعندما عين « باشا » جديد مديرا للبحيرة ، نشر الشاعر احمد محرم قصيدة تضمنت نصحا له كان مما قاله فيها :

ان البلاد لها حقوق جمة ، لا مفر لك منها ولا لك مهرب

الحكم أيام تمر حثيثة ، الذكر ينشر والمؤرخ يكتب

فاذكر سبيك ان تصرم عهده ، وجرى لغايته الزمان القلب

ولم يسمع للباشا التصيحة • ان عائد محمد محمود ليصبح رئيسا للوزراء وليحكم باليت الحديدية •

لماذا عزل

نشرت الهوامش واقعة عن الأسباب التي أدت الى عزل محمد محمود باشا من عمله كمدير المديرية البحرية فى عام ١٩١٦ بسبب اتهامه بتعذيب الفلاحين فى المديرية ••

فى حوار مع كاتب له تقديره واحترامه - طلب عدم ذكر اسمه (١) - روى واقعة لا شك فى صحتها ووضعها فى تحليل على النحو التالى :

« انه من الناحية المنطقية لا يجوز تصور أن حكام مصر - وكانت وقتها مستعمرة انجليزية - كان يعينهم فى شىء اضطهاد الفلاحين أو عدم اضطهادهم ، وأن السلطان حسين كامل الذى أصدر قرار عزل محمد محمود كان حاكما سوريا ولعبة فى أيدي الاحتلال ، وأن عمليات تعذيب الفلاحين كانت تتم بسبب التعليمات التى صدرت من سلطة الاحتلال لجمع العمال والمؤن والدواب لخدمة الجيش الانجليزى • ومن هنا فلا بد أن نبحث فى قضية عزل محمد محمود فى ضوء هذا الظرف السياسى العام ••

« وانطلاقا من هذا يروى الكاتب الكبير واقعة يذكرها جيدا بحكم أنه كان من أبناء المديرية وكان على صلة وثيقة بالقاضى (٢) الذى تولى تحقيق

(١) هو الاستاذ توفيق الحكيم •

(٢) ذكر لى الاستاذ الحكيم أن والده هو الذى حقق هذه القضية •

القضية في مراحلها الأولى ، تتلخص في أن محمد محمود - الذى كان شديد الاعتزاز بكرامته - كان يرفض استقبال مفتش الداخلية الانجليزى على أرضه محطة دمنهور عاصمة مديريته ، وأن موقفه ذلك من الاحتلال كان محل تقدير أهالى البحيرة ، كما كان محل سخط دوائر الاحتلال .

« ان القضية قد دبرت ولفقت لسبب سياسى هو وطنية محمد محمود وتسيكه بكرامته أمام ممثلى الاحتلال ، وعندما عرضت القضية أمام القضاء لاحظ القاضى - وهو وثيق الصلة بالكاتب الكبير - أن الأدلة ملفقة وأن الذين زعموا أن هناك تعديبا وقع عليهم . لا توجد فى أجسادهم آثار التعذيب ، كما كان واعيا بأن هناك مبررات سياسية لتلفيقها ولذلك لم يطاوعه ضميره على الحكم فيها ، فعرضت على قاض آخر حكم فيها بما حكم ضد الحكمدار » .

ومن الواضح أن الواقعة التى يذكرها الكاتب الكبير لا يتضمنها أى مصدر من المصادر التى اعتمد عليها صاحب الهوامش ، وهى تضيف رؤية شاهد عيان لا تتوفر له ، والمصادر التى اعتمدا عليها هى الصحف المعاصرة للحدث وبعض الذكريات الشخصية لمن عاصروا تلك الفترة أو كتبوا عنها . والتصحيح الذى ذكره الكاتب الكبير ينصف موقف محمد محمود فى هذه الفترة .

لكنه فى تقديرنا لا ينسحب على كل تاريخه ، فقد ساهم فى انقلابات دستورية عديدة ، معطلا بذلك الشعار الديمقراطى التقليدى من أن الأمة مصدر لسلطات ، كما انه كان ينتمى لفئات اجتماعية قد تكون أدت بعض الدور فى قضية مصر الوطنية ، لكنها تنكرت لذلك فيما بعد ، كما أنها بالقطع قد أفلست تماما ولم تعد قادرة على لعب أى دور الآن . ومن الناحية السياسية قد كان محمد محمود يمثل « جيروند » البرجوازية المصرية ، دعاة التساهل والمناورة مع الاستعمار والحصول على أى مكاسب ممكنة ، وهو موقف فى تقديرنا كان خاطئا من وجهة نظر المصالح البعيدة للشعب المصرى ، وقد نقد محمد محمود بعض ممارساته السياسية فيما بعد نفس النقد الذى نوجهه اليه ، كما أن ما ذكره الكاتب الكبير لا ينفى أن الاقطاعيين قد ارتكبوا فى حق الفلاحين من البشاعات ما لا تطيق أذن سماعه ، وبعض هؤلاء ما زال معاصرا ، ويستطيع أن يروى .

عدم تربية

ما زالت واقعة عزل محمد محمود زعيم الأحرار الدستوريين عن عمله كمدير للبحيرة عام ١٩١٦ تثير نقاشا حولها ، وكان قد سبق لنا أن نشرنا رأيا لكاتب كبير - طلب عدم نشر اسمه - حول مبررات هذا الإجراء ، وقد ظن بعض أصدقاء الهوامش أن المقصود بذلك هو الأستاذ حافظ محمود ، وهو ظن خاطيء ، خاصة أن الأستاذ حافظ له إضافات أخرى تناقض ما ذهب إليه الكاتب الكبير .

ومن المعروف أن الأستاذ حافظ محمود قد ارتبط بالأحرار الدستوريين خلال فترة طويلة من عمره ، إذ كان رئيسا لتحرير مجلتهم السياسية في أواخر عمرها ، وهو يقول انه كان خلال عام ١٩٢٨ في صفوف المعارضين لسياسة الأحرار الدستوريين وحكومة اليد الحديدية ، ولكنه يضيف معلومات جديدة حول مبررات عزل محمد محمود عام ١٩١٦ وحول الفترة المبكرة من حياة محمد محمود ، فهو يذكر أولا انه نقل من عمله كمدير للفيوم لأنه طبق القانون على أحد موظفي الخاصة الملكية، وحدث أن ذهب الخديو عباس في زيارة إلى الفيوم بعد ذلك ، وتعهد أن يقول لمحمد محمود معلقا على تصرفه مع موظف الخاصة ، ملقيا المسؤولية على أحد الضباط التابعين للمدير لكي تكون الإهانة غير مباشرة :

- أنت عندك ضباط لم يتربوا بما فيه الكفاية .

وبسبب اعتراف محمد محمود المبالغ فيه بكرامته ، فقد وضع ذراعه في خصره وقال بعنجهية :

- بالعكس يا مولاي . . . موظفي خاصتك هم الذين لم يتربوا بما فيه الكفاية .

وكأنت هذه الكلمة القاسية سببا في نقل محمد محمود من عمله إلى البحيرة التي كانت في ذلك الوقت مجرد أرض غير مستصلحة بشكل كامل . لكن الخديو عباس بعد ذلك رضى عن محمد محمود بسبب مقاومته للانجليز في مديرية البحيرة ، إذ كان المرحوم عبد اللطيف الصوفاني - أحد أقطاب الحزب الوطنى - من أهالى البحيرة ، وحدث أن أراد الانجليز تفتيش منزله ، بعد أن وصلتهم معلومات بأن لديه أسلحة مخبأة فى منزله ، ولم يعارض محمد محمود الأمر لكنه نفذه ، ورفع تقريراً بأنه لم يجد أى ممنوعات فى منزل الصوفانى فى وقت كان الانجليز معه متأكدون من وجود الأسلحة عنده ، الأمر الذى أكد لهم تواطؤ المدير مع الصوفانى ، فغضبوا منه .

ويقول الأستاذ حافظ محمود : ان موقف محمد محمود هذا هو سبب
رضى الخديوى عنه مرة أخرى ، وسبب منحه الباشوية . وهذه الحادثة
كما سبق أن ذكرنا لا تغير من تقييمنا النهائي لموقف محمد محمود السياسى
والمطبقى ، وما نأمل أن يتفق فيه معنا الجميع أن بعض المواقف المحدودة
لكبار ملاك الأرض ضد الاحتلال لا تعنى أن ذلك هو كل تاريخهم ، كما أنها
بالقطع لا تعنى صلاحيتهم لأداء أى دور الآن .

شهر البقر

فى الفترة التى أعقبت الاحتلال البريطانى لمصر ، تعددت الفرق
المسرحية ، لكن معظمها كان مجالا للنصب والاحتفال . ان انتهز مجموعة
من النصابيين والأفاقين الفرصة ليصبحوا أصحاب فرق مسرحية ، وممثلين
ومؤلفين أيضا .

وكانت الحركة المسرحية تتخذ شكل جمعيات يؤسسها هواة التمثيل ،
تحولت مع الزمن الى فرق بعضها كبير ، يعرض فنه فى القاهرة ، وبعضها
يتحرك فى الأقاليم والأحياء الشعبية . . . وكانت جميعها تعتمد على المسرحيات
المتروجة ، وكان المترجم يتقاضى جنيهين عن كل نص .

وبرواج المسرحيات توافد المحتالون والأفاقون . . . كان منهم المعلم
ميخائيل جرجس ، الذى كان يملك حانة مشهورة ببولاق فيها تخت ، وعرض
عليه أخوه أن يؤلف فرقة تمثيلية ، ورغم أن المعلم لم يكن يعرف شيئا فى
الدنيا الا خمارته ، فان فكرة الكسب زينت له الشروع فى هذا العمل ، فأقدم
عليه وأنشأ - بإدارة أخيه - فرقة ، وأقام دارا خشبية سماها مسرح المعلم
جرجس ، ولأن مطرب تخت الآلاتية كان يعرف القراءة ، فقد قرر المعلم أن
يجعل منه ممثلا ومطربا . . . وهكذا تم اعداد كل شىء ولم تبق الا الرواية ،
وسرعان ما حلت المشكلة حلا بسيطا ، فانتزع مدير الفرقة ثلاثة فصول من
ثلاث روايات مختلفة سبق تقديمها وصنع منها مسرحية واحدة ، كما يصنع
الكوكيتيل من بقايا الكؤوس . وأعلن أن أجر الدخول ثلاثة قروش للدرجة
الأولى . وزادت أرباح المعلم جرجس ، وتحولت فرقته فى أنحاء القطر ، ولم
يمض زمن طويل حتى انتزع من أشهر الفرق آنذاك ممثلها ، ومنها فرقة

المقراحي مؤكداً بذلك أن العملة الرديئة تطرد العملة الطيبة من السوق ،
وأنه لا يبقى على مداود غير شر البقر .

ولأن التمثيل كان قد أصبح نصبا فقط ، حط على مضر يوماً « الخواجا
كورتى » وفى جعبته مشروع جليل هو تمثيل مسرحية باسم « المحمل الشريف »
ورغم أن كورتى - بحكم اسمه على الأقل - لم يكن مسلماً ، ولا يهتمه المحمل
الشريف فى شيء ، إلا أنه كان مغامراً يهمله أن يكسب ، وأن يفتزع النقود ،
وقد لاحظ أن السياح الذين يفدون الى مصر فى الشتاء لا يمكنهم مشاهدة
موكب المحمل الذى كان موعده الصيف ، واتفق كورتى مع فرقة مسرحية من
الهوة على تقديم مشروعه ، وتقدم للحكومة المصرية التى وافقت على تقديم
المسرحية على خشبة دار الأوبرا عشرين ليلة ، نصفها بالاطالية والنصف
بالعربية ، وقدمت له التياترو لاجراء البروفات عليه ، وبدأ ينفق على المشروع
من الميزانية التى رصدها له وكانت تصل الى ١٥ ألفاً من الجنيهات .

وألّف « كورتى » الرواية وترجمها « الشيخ محمد نصرت » بعريسة
مسجومة ، وصرف الرجل أغلب ماله على الديكور وأعلن عنها فى جميع
أنحاء العالم ، ولأول مرة دخلت الاعلانات على الجدران الى مصر كاسلوب
جديد للدعاية . ورغبة منه فى أن تكون مسرحيته واقعية جداً ، فقد رأى أن
يستعين بمشايخ الطرق ليظهروا بأنفسهم على المسرح بدلاً من الكومبارس ،
وبيئنا هو يحاول الحصول على إذن بذلك كشف نفسه ، وبدأ العلماء يبحثون
فى الموضوع : وانتهى بحثهم باصدار فتوى بتحريم الرواية ، وفشلت مغامرة
كورتى . . . وطار واحد من النصابين . . . لكن المداود لم تزل أبداً من
شر البقر .

نهاية كل تقارير

بدأت حياة « جورج فيليبس » بصدفة وانتهت بمأساة . . .

أما الصدفة ، فقد بدأت عندما أعتيل رئيس الوزراء المصرى « بطرس
غالى » فى عام ١٩١٠ ، فقد تنبهت الحكومة الى أهمية وجود جهاز للأمن
متخصص فى الجرائم السياسية ، وهكذا أنشئ « المكتب السياسى » ، ووضع

على رأسه « جورج فيليبس » الذى كان ضابطا يونانيا من ضباط البوليس
المصرى .

وبقى هذا المكتب يعمل سنتين متواليتين دون أثر فعلى أو نتيجة ظاهرة .
ولم يرض هذا رجلا واسع الأطماع والآمال كفيليبس ، وخشى أن تلغى
الحكومة المكتب فينضب هذا المعين الذى يفيض عليه بالرزق بغير حساب ،
ومنذ تلك اللحظة دخل « فيليبس » فى لعبة تدبير المؤامرات الوهمية وتلفيق
التهم للناس .

وكانت قمة نجاحه ، تلفيقه مؤامرة شببرا ، التى قبض فيها على ثلاثة
من الشبان من أعضاء الحزب الوطنى اتهمهم بتدبير محاولة لاغتيال الخديو
عباس واللورد كتنشر ومحمد سعيد باشا رئيس الوزراء .

وينشوب الحرب العالمية الأولى طرأت على البلاد ظروف من جراء حالة
الحرب . فأصبح لفيليبس رأى مسموع فى مختلف المسائل السياسية ، ومن
ثم اتسع نطاق سلطته ، فشملت الاعتقال والنفى والبحث عن رعايا حكومات
الأعداء .

فيما بعد ثبت أن فيليبس كان يستخدم ظروف القاء القبض أو النفى
أو الإفراج أو التستر ، للحصول على موارد جديدة يتدفق منها المال عليه ، فى
أيام كان مسيطرا فيها على رقاب الناس وعلى أعراضهم وحررياتهم .

وفى عام ١٩١٧ وقع « فيليبس » فى المحذور ، وضبط متلبسا بالرشوة ،
وانتهى اميراطور الرعب السياسى الى نهايته الحتمية ، ودخل السجن مع
كثيرين ممن ألقاهم ظلما وعدوانا فى السجن دون مبرر من قانون أو أخلاق .

وكان غريبا أن يلتقى « فيليبس » فى السجن بواحد من ضحاياه هو
« محمد وود طاهر العربى » الذى كان قد حكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة خمسة
عشر عاما فى مؤامرة شببرا ، وفجأة أصبح الجلال والضحية فى زناينة
واحدة ، وقرر « طاهر العربى » أن ينتهز الفرصة ليحصل من « فيليبس »
على اعتراف بتلفيق القضية .

•• وجاء يوم عاد فيليبس بعد أن زارته أسرته فى السجن ، وكان
يحمل فى يده زجاجة صغيرة من الشمبانيا ، وشربها ، وعندما ثمل ، أخذ
« العربى » يحدثه عن القضية ، ويثير فيه الرغبة فى الاعتراف بدوره فى
تدبيرها ، ونجح بالفعل فى الحصول على اعتراف مكتوب منه بذلك ، وأرسله
الى جريدة الأهرام فآثار ضجة كبيرة •• وهكذا ينتهى كتاب التقارير ••
بكتابة التقارير •• حتى عن أنفسهم !

يا عزيز عيني

حارب المصريون كثيرا لحساب غيرهم . . . استغلهم الاستعماريون ودفعوا بهم للقتال فى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل : يموتون فى الصقيع وفى الثلوج ، دون أن يذكر الاستعماريون شيئا عن السلام أو يتغنوا به ، وما أن بدأ المصريون يحاربون من أجل وطنهم المصرى ، وأوطانهم العربية ، حتى بدأ الأوربيون - فجأة - يتغنون بالسلام ويتباكون عليه !

فى الحرب العالمية الأولى انتهى العسكريون البريطانيون الى نظرية طريفة تقول بوجود توفير الجندى البريطانى لحمل السلاح والقتال ، وذلك باعفائه تماما من كل الواجبات غير القتالية ، واسنادها الى قوة عاملة من المصريين ، تشكل فى صورة فيالق اضافية تعمل فى خدمة القوات البريطانية باستمرار . . . فتعبد الطرق ، وتمد خطوط السكك الحديدية ، وتحفر الآبار والخنادق وتقيم الاستحكامات وتمد أنابيب المياه تحت الرمال . . الخ .

وفى أغسطس ١٩١٥ بدأ تشكيل فيلق مصرى باسم « فيلق النقل بالجمال » ليقوم بمهمات النقل ، ثم شكل بعدها فيلق العمال لينفذ الأعمال المدنية والأشغال الأخرى ، واقتصرت مهمات الفيلق الأول على مساعدة الحملة البريطانية فى مصر التى كانت تحارب ضد الجيوش التركية فى فلسطين وشبه جزيرة سيناء ، أما الثانى فقد اتسعت دائرة استخدامه لتشمل كافة الجهات ، فسافر الى جزر موروشس والى العراق والى فرنسا .

وتدرجيا تحولت عملية تشكيل هذه الفيالق ، الى عملية سرقة وسخرة وخطف ، وما أن جاء صيف عام ١٩١٧ ، حتى بدأت أبشع عملية لحشد العمال والفلاحين قسرا للعمل فى السلطة ، ففى كل مركز من المراكز عين ضابط بريطانى ليعاون مأمور المركز فى جمع الأنفاس المطلوبين من أبناء الفلاحين فى قرى المركز ، وبين صراخ الأطفال وولولة النساء ، يحشد الرجال فى مضيئة العمدة الى أن يساقوا فى الصباح وهم موثقون بالحبال ، الى المركز ، حيث يتسلمهم الضابط البريطانى لي شحنهم بالسكة الحديد الى معسكر التوزيع فى الاسماعيلية . . وهناك تنقطع أخبارهم تماما .

فى تلك السنوات ، عانى المصريون رعبا هائلا ، ولجأ بعض عمد القرى الى الايقاع بخصوصهم وارسال أبنائهم الى حيث لا يعودون ، وانتشرت الرشوة ، يحاول بها الأثرياء انقاذ أبنائهم من ذلك المصير المحزن ، وهاجر كثيرون من المستورين فى الريف ليخفوا فى زحام المدن ، بعيدا عن أعين السلطة . وحدث يوما أن ترددت اشاعة خبيثة وسط عمليات خطف الرجال ، تقول ان السلطة قررت حشد جميع البنات والنساء غير المتزوجات ،

فكان لهذه الاشاعة أثر النار فى الهشيم ، إذ قام كبار الأستر بحملة لتزويج كل البنات ، ووجدت أزمة الزواج حلا مؤقتا لها .

وفى مصر كانت الأفواه مكمة ، والأحرار مشتتون ، لذلك لم يرتفع صوت بالاحتجاج ، وفيما بعد كتب « بيرم التونسي » زجله المشهور « صعيدى فى باريس » ، وأشار الى بعض رجال فيلق العمال الذين ذهبوا الى هناك :

أبكى عليك يا معوض .. مسكين والله مسكين

وحديك .. وحبائك فى البلد مبسوطين

إذا عانديك زمانك .. اللي حايمى مين

والسلطة العسكرية قطعت ايدى اليمين

أيامها لم يتحدث الاستعماريون عن السلام ، كانوا يغنون للحرب ، لأننا كنا ضحاياها . . . ومضت الأيام السوداء تازكة أغنية حزينة ، كان عمال الفيلق يغنونها وما زالت تعيش الى اليوم :

ينا عزيز عينى ونا بدى أروح بلدى

ولدى يا ولدى السلطة خبت ولدى

الفكر والكارو

فى ثلاثية « نجيب محفوظ » فكر أحمد شوكت - بطل السكرية - أن يشتغل بالصحافة ، فعارضته أمه لأنه يريد أن يعمل جرنالجا ، وفى نهاية المناقشة قال :

- ان قيادة الفكر وقيادة عربية كارو شىء واحد فى أسرنا .

نفس هذا الموقف تعرض له شاعر القطرين « خليل مطران » الذى بدأ حياته محررا فى « الأهرام » و « المؤيد » ثم أصدر مجلتين من أهم صحف أوائل القرن هما « الجوائب المصرية » و « المجلة المصرية » ثم ترك إصدار الصحف واكتفى بكتابة الشعر ، والعمل بالتجارة .

أيامها كانت الصحف تعتمد على الاشتراكات الثابتة بالدرجة الأولى ، وكانت تعين لهذا الغرض محصلين يمرون فى بداية كل عام على المشتركين

لتحصيل الاشتراك ، لكي تستمر المجلة فى الصدور ، وكان المشترك يعد نفسه صاحب فضل فى حياة الجريدة ، وفى كل ما يبلغه صاحبها من جاه أو كرامة ، ويعطى نفسه الحق فى نشر مقالاته وتفاهاته وتعليقاته ، ولم تكن الصحف قادرة على التخلص من سيطرة المشتركين ، إذ لم يكن الاعلان قد فشا فيها ليلعب نفس الدور . وفى مواعيد التحصيل الدورية كان المحصل يعود لخليل مطران لينبئه أن فلانا المشترك قال كذا ، وفلانا قال كذا من الأقوال التى - وإن امتزج المدح بها غالبا - تسيء الى النفس ، لأنها تاتى تذكيرا بالجميل وبال معروف .

ومرة عاد المحصل من رحلته ، وأبلغ « خليل مطران » أن صديقا من اصدقائه الذين كان يعاشرهم معاشرة متصلة ، استمهله فى اداء ما عليه ، ولم يكن ذلك للمرة الأولى ، وألح عليه المحصل بحكم ما يعرفه من صلته بصاحب المجلة ، فالتفت اليه الصديق المشترك واستمهله مرة أخرى ، وعندما ذكره المحصل بقيمة المجلة الفكرية وما يبذل فيها من تحرير ، ومن نفقات الطبع والبريد ، وعده خيرا . وفى المرة الأخيرة قال المشترك بضيق :

- هوا ثمن عيش !!

وأدرك شاعر القطرين أن كل الذين يرسل اليهم صحيفته يحسبونه متطفلا عليهم ، فيما يتقاضاه منهم من نقود . فصمم على اعتزال الصحافة ، وبعدها بقليل سنحت الفرصة له . فخرج من الميدان - كما يقول - « موفور العرض سليم الشرف والكرامة » وباع جريدته ومطبعته وأخذ يتاجر فى القطن ويكتب الشعر ، حتى يأتى الزمن الذى يفرق فيه الناس بين قيادة الفكر . وقيادة الكارو .

أتعبتني يا مولاي

كان « عيد العزيز فهمى باشا » من كبار المحامين فى مصر الذين شهدت لهم المحاكم صولات وجولات فى ساحاتها ، وكان شديد الاعتزاز بكرامته ومهنته الى درجة جعلته دائما شديدا الحدة اذا ما تعلق الأمر بنزاهته كمحام أو بنقاء ضميره كقاضى .

ومع انه كان على علاقة طيبة بالسلطان « حسين كافل » ، فانه لم يكن يقبل من السلطان أى نقد لسلوكة المهني . حدث مرة أن كان موكلا في قضية جنائية كبرى قدم فيها دفاعا مجيدا أدى الى براءة المتهم ، وبلغ من قيمة المرافعة أن نشرتها الأهرام كاملة ، وبرغم أن المتهم كان قد أدين في محكمة درجة أولى فقد استطاع أن يفوز له بالبراءة في الاستئناف .

وأراد السلطان أن يرضى المحامي المعجزة ، فدعاه الى مقابلته ، وأخذ يطرئ مناقبه وصفاته الممتازة ، ثم قال له :

- لقد قرأت مرافعتك البديعة في القضية . . . وأنت من أعظم المحامين وقد نجحت في تبرئة هذا المذنب .

وشكره عبد العزيز بكلمات قصيرة على مدحه ، كان واضحا فيها انه غير راض عن أسلوب المدح . . . وعاد السلطان يكرر عجيبه وأعجابه من المحامي الماهر الذي استطاع انقاذ موكله من العقاب ، وتمكن من تبرئة مذنب . . . فانتفض عبد العزيز واقفا بحدة وهو يلوح بيديه ويصيح :

- لقد أتعبتني كثيرا يا مولاي . . . لقد أتعبتني كثيرا . . . اننى لم أبرئ مذنبا ، ولكن دافعت عن برئء فحصلت له على حقه .

وذهل صديق لعبد العزيز كان يحضر المقابلة من اللهجة التي يتحدث بها المحامي اللامع مع السلطان . . . ووقف السلطان فريت على كتف المحامي الثائر ، وقال :

- نعم انه برئ .

وخرج الصديقان من حضرة السلطان فأخذ الصديق يعنف عبد العزيز فهى على تهوره بهذا الشكل . . . فصاح :

- كيف يمكن أن أقبل من أى انسان أن يتهمنى باننى اترافع لأبرئ المذنبين ، وهذه وصمة كبرى للمحامي الشريف .

ورد الصديق :

- ولكن السلطان لم يكن يقصد المساس بك كمحام بل مدحك وتكريمك .

فقال عبد العزيز فهى :

- أنا متأكد من ذلك ، ولكن على من يمدح الا يستخدم في مدحه اسبابا تدعو للذم .

وفيما بعد ذهبت كلمة عبد العزيز فهى مثلا !

ظاهرة الدكتور جيكل والمستر هايد

عاش العقل المصري مأساة التناقض بين القول والفعل بكل أبعادها ، فالثائرون في السياسة محافظون في النظر التي ظواهر المجتمع ، وبعض الذين يطالبون بتحرير مصر كلها ، يطالبون في نفس الوقت باستعباد النساء واستثنائهم من هذه الحرية . . . وكان معظم الليبراليين المصريين تنويعا أخرى علي لحن الدكتور جيكل والمستر هايد .

وهكذا عاش « أحمد سمير » طويلا بجوار الثوار العرابيين ، أن كان صديقا وصفيا « لعبد الله القديم » وتفتح في مناح الثورة الديمقراطية ثم نفى بعد فشلها وغاش سنواته في « شتوتجارت » بألمانيا ، فاحتك بالمجتمع الأوربي المتفتح الذي يدين بالمساواة بين الجميع . . . ومع ذلك فقد ظل « أحمد سمير » محافظا حتى النخاع فيما يتعلق بمسألة المرأة .

وعلى العكس منه كان صديقه « حقنى ناصف » الذي سمح لابنته « باحثة البنادية » (ملك) ، بالدراسة ، وعندما نقل قاضيا في طنطا أبقاها في مدرستها وأقامت في رعاية أحمد سمير الذي كان مدرسا للغة العربية في المدرسة التوفيقية ، وحدث أن أوصاه « حقنى ناصف » بأحد طلبته وهو « صليب سامى » - الوزير فيما بعد - وطلب منه أن يعطيه دروسا خصوصية .

ولأن الحقنى والفتاة « كانا في مرحلة دراسية واحدة ، فإن أحمد سمير كان يجمع بينهما في دروسه الخصوصية ، ولأن أسرتهما تعيشان في طنطا ، فقد كان « صليب » يصطحب ملك معه في عطلة نهاية الاسبوع ، حيث كان والتاهما ينتظرانها على رصيف المحطة ، لكن « أحمد سمير » اعترض على ذلك . . . وعندما ذهب صليب في أحد أيام الخميس ليصحب ملك كالعادة ، فوجىء باستناده ينهر الفتاة بشدة وهى تبكى ، ثم التفت إليه قائلا :

— لقد كبرت ما . . . اذهب . . . ملك لن تسافر معك .

وعندما علم « حقنى ناصف » بما حدث ضحك قائلا :

— إن « أحمد سمير » سيضوت بمرض جنون المحافظة على التقاليد !

وعندما أصدر « قاسم أمين » كتابه « تحرير المرأة » ، كان « أحمد سمير » من أشد المعارضين له ، وقد بنى معارضته على أن ما ينادى به قاسم أمين لا يقبله انسان لنفسه ، وعلى رأس الذين سيرفضونه « قاسم أمين » ذاته . . . ولكى يبرهن على نظريته ، ذهب الى منزل « قاسم أمين » ، وطرق الباب ، وعندما فتح له طلب مقابلة السيدة . . . ودعش الخادم من الطلب الذى لم يكن

مألوفاً ، فأخذ « احمد سمير » يلخص له ما أوزده صاحب البيت فى كتابه عن حق المرأة فى الاختلاط بالرجل ، وقال انه جاء يطالب بمقابلة زوجة « قاسم أمين » لكى يختبر مدى اخلاصه لما ينادى به . . . وكانت النتيجة أن طرده الخدم من البيت !

وخرج « احمد سمير » يسخر من التعاليم التى لا يطبقها صاحبها ، ونسى أن مأساة قاسم أمين هى نفسها مأساته ، هو الذى طالب بتحرير مصر كلها بحماس ، وبنفس الحماس دافع عن استعباد بعض أبنائها .

مجرد تنويعه على لحن نكتور جيكل ومستر هايد . . ما زالت تعيش الى اليوم .

انطونىادس الخالد

هبط « جون انطونىادس » مصر فقيراً مفلساً خالى الوفاض ، فنزح من ثروتها وعرقها ما جعله مليونيراً ، ثم مضى تاركاً لها اسمه لتخلده مقابل قصر وحديقة .

كان يونانى الأصل ، هبط الاسكندرية فى أواسط القرن الماضى وكانت - ككل الموانىء - مليئة بالمغامرين والأفاقيين والتجار والثوار الهاريين من أوربا ، ولأنه يريد أن يكبر فقد انضم للأولين ، وظل يصعد ويثرى ، ثم أراد أن يحفر اسمه فى التاريخ ، فاشتري قطعة أرض فضاء رخيصة السعر مجاورة لحدائق النزهة ، لتكون حديقة تحمل اسمه ، وكلف الفنان الفرنسى « بول ريتشارد » بتنسيقها ، فخططها على غرار حديقة قصر فرساي فى باريس ، ونثر فى جوانبها تماثيل من أعمال كبار النحاتين ، للعديد من الشخصيات التاريخية والهة اليونان القدماء .

كانت فكرة « انطونىادس » من انشاء الحديقة هى أن يتنزه فيها ، ويريح أعصابه المكدودة من عناء العمل من أجل الشعب السكندرى الكريم ، ثم أنشأ فيها منزلاً صيفياً لتكتمل راحته ، وحرص على أن يكون بين جمال الحديقة والبيت انسجام فزينه بالنقوش والزخارف وجعله تحفة .

ويرغم كل ما فعله السكندريون لأنطونىادس ، فانه لم يحفظ العيش والملح ، وجاءت الأساطيل الانجليزية التى هدمت حصون الاسكندرية فى

١١ يوليو ١٨٨٢ فأعانها انطونيادس باخلاص شديد كأنه كون ثروته من عرق الانجليز وليس من عرق المصريين ، واعترفت له الملكة فيكتوريا بخدماته الجليلية ، فمُنحته لقب سير في عام ١٨٨٢ ، وحز ذلك في نفوس أهل الاسكندرية فحاول أن يستعيد مودتهم فمتحوها له مضطرين ، وناقهم ما استطاع : بشق الطرق ، وبالتبرع لمشروعات الاصلاح لكن ذلك لم يجد قتيلاً .

وفى عام ١٨٩٥ - مات السير جون - وترك ثروته لابنه انطونى ، فاستثمرها وضاعفها ، ثم رأى أن يخلد ذكرى أسرته العظيمة ، فوهب القصر والحديقة لبلدية الاسكندرية فى عام ١٩١٨ ، بخطاب رقيق للسلطان فؤاد ، مشترطاً أن تحتفظ البلدية باسم أبيه عليهما .

وخلد انطونيادس اسمه فى مصر ، وظل السكندريون يرددون اسمه بمناسبة وبدون مناسبة ، فاذا عن لأحدهم أن يسأل عن مبررات تخليد هذا الانطونيادس قال الذين يعرفون التاريخ :

- لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤمكم .

قليل من التشرد وبعض السلاطة

بدأت الحمامة فى مصر مهنة محتقرة ، يبرأ منها أبناء البيوتات ، ويسمون الحمامى « بالسليط » ، وأصبحت بذلك مهنة من لا مهنة له ، ولم تكن المحاكم تشتترط فيمن يترافع أمامها أى شرط ، الا أن يكون نرب اللسان ، مدرباً على الكلام ، مشاغبا ، ووقحا .

وعندما بدأ الزعيم « محمد فريد » حياته محامياً ، استفز هذا غضب وخزن والده « احمد فريد باشا » ، وكان ناظراً للدائرة السنية ، ووصل الأمر الى حد انه ذهب لزيارة الشيخ « محمد عبده » خصيصاً يشكو ابنه ويبيكى ، ويقول للشيخ :

- هل يصح يا سيدي الأستاذ أن يهزأنى محمد فريد على آخر الزمن ، ويفتح دكان افوكاتو .

ولم تكن الصحافة أيضا ، فى بدايتها ، مهنة محترمة الاحترام الكافى ، وكان المتواتر أيامها أن المشتغلين بها هم مجرد مجموعة من المتشردين الذين يعيشون على التأفيق ونشر الفضائح .

• ومع تطور الزمن ، تغيرت النظرة للامور .

كان محمد فريد قد بدأ حياته وكيلًا للنيابة وقدم الصحفى « على يوسف » للمحاكمة أمام محكمة الجنايات بتهمة نشر تلغرافات تسيء الى سمعة الجيش الانجليزى الذى كان يحارب فى السودان ، وتكشف عن فتك الأمراض به ، وعن تراجعهم أمام الثوار السودانيين ، وكان « محمد فريد » أيامها وكيلًا للنائب العام ، فحضر الجلسة ، ثم بدرت منه ألقاظ ضد الحكومة ، عدتها جارحة لها ، فأمرت بنقله الى الصعيد ، فاستقال من وظيفته واشتغل بالمحاماة .

وفى ثورة ١٩١٩ . أصبح المحامون من أنشط الفئات التى تنظم الثورة ، وتدعو لها ، وتتصدى للدفاع عن أى متهم سياسى ، دفاعا حارا وبلا أجر مادى ، وأصبح من تقاليد المحاماة ، أن التطوع للدفاع فى القضايا السياسية هو شرف يناله المحامى ، ولا يقبل عنه أى جزاء مادى .

الشيء نفسه حدث للصحافة ، إذ تولى الصحفيون الدفاع عن القضايا الوطنية باخلاص واصرار . وكان المنطق الذى يحكم كل هذا بسيطا . . . ففى مواجهة الاحتلال والمتعاونين معه لابد من السلطة ، وقليل من التشرد وقلّة الأدب أحيانا .

زمن الفكاة السعيد

عرف الجيل الأسبق عددا من الظرفاء ، كانت لهم جلسات وندوات مشهورة ، ويبدو أن العصر كان خالى البال الى درجة ملحوظة .

وكان الشيخ « حمزة فتح الله » - عميد مفتشى اللغة العربية - قد انفق مع صديقه شاعر القطرين « خليل مطران » ألا يتحدثا الا باللغة الفصحى ، وبرغم هذا فقد أخذ كل منهما يشنع على الآخر ، فقال مطران انه ذهب لزيارة الشيخ حمزة فى منزله فسمع مطربا يغنى أغنية مطلعها :

ان كان كذا ولا كذا لأصبر على كيد العدا

فسال مضيفه عن الأغنية فقال الشيخ حمزة ان المطرب يغنى :

ان كان كذا أو كذاك أو كذلك فلأصبرن على كيد الأعداء

ومن تشنيعات الدكتور « محجوب ثابت » عليهما ، أنهما ركبا يوما ترام الرمل ، فلما جاء الكهسارى طلبا تذكرة الى محطة « معسكر قيصر » ولم يفهم الكهسارى بالطبع ، وأصررا على موقفهما ، وأخيرا اضطررا الى الذهاب من الرمل الى محطة « كامب شيزار » سيريا على الأقدام بسبب حبهما للغة العربية .

وكان معروفا عن الدكتور ثابت حبه « للقاف » ونطقه لها بطريقة مفخمة مقلقة ، وذكر خليل مطران أن الدكتور ذهب الى مقهى بلدى وطلب قهوة ، ونطق القاف بطريقته ، فقال الجرسون :

— واحد قهوة للبيه اللى بيقاى عندك !

وروى عنه أمير الشعراء أحمد شوقى أنه سأل يوما عن مصير قضية له فقال :

— القضية دلوقت فى الاستئناف .

ومن فرسان النكتة فى ذلك الجيل أيضا « حسين التوزى » ، ومن فكاهاته المشهورة التى سخر فيها من طلبة المدارس الثانوية — وكان معظمهم آنذاك من كبار السن وفيهم المتزوج — أن أحدهم تأخر فى الصباح فسأله الناظر عن السبب فقال :

— كنت بأصبغ شعرى .

وقد أطلق « حسين التوزى » على صديق له من الأطباء هو الدكتور « بكير » تشنيعة . فقال : انه ذهب لزيارته فى العيادة فراه يعلق على الباب « جثة » أحد زبائنه اعلنا عن العيادة .

الاميرالاي هارفى باشا

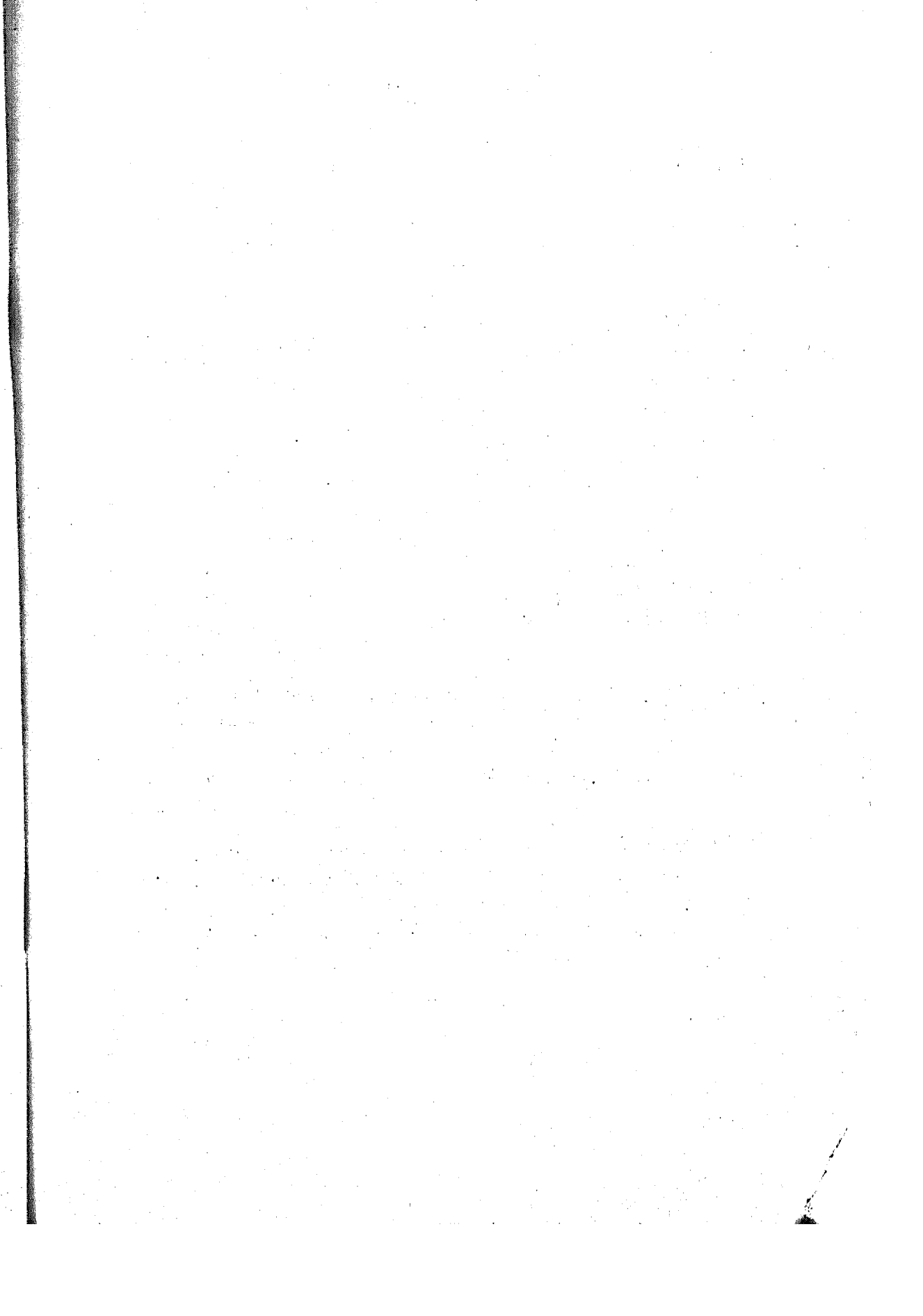
« جورج هارفى باشا » واحد من أشهر الشخصيات فى التاريخ
المصرى الحديث .

كان فى الثانية والعشرين من عمره عندما جاء الى مصر كأحد ضباط
الجيش البريطانى الذى قهر الثورة العرباية ، وبعد الاحتلال الحق بوزارة
الداخلية كأحد معاونى « اللورد كتشنر » الذى أنيطت به مهمة تطويع تلك
الوزارة لمطامع الاستعمار . وبذل « هارفى » فى ذلك مجهودا ملحوظا جعله
يترقى بسرعة الى أن أصبح مفتشا عاما لوزارة الداخلية ، وأصبح قريبا
من منصب « المستشار » ، وهو المنصب الذى كان حائزه يعتبر الحاكم الفعلى
لأى وزارة فى مصر المحتلة !

وأدت كثرة الدسائس المحيطة به الى حرمانه من منصب المستشارية ،
وعين حكمدارا للقاهرة فى فترة مد ثورى ، صاحبت حركة الزعيم « مصطفى
كامل » ، فوجه كل همه لمقاومة الحركة الوطنية وتخريبها والتجسس عليها ،
تنفيذا لسياسة الاحتلال . وتفرغ « هارفى » لهذا النشاط ، فأنشأ قلم
« المباحث السياسية » بالمحافظة ، وتوسع فى تعيين المخبرين والمرشدين ،
وتدريبهم ، ونظم أرشيف القلم بطريقة محكمة ، بحيث أصبح لديه تقارير عن
كل المشتغلين بالسياسة ، من الأمراء والوزراء والأعيان والصحفيين والموظفين
والتجار .

وكان قاسيا ومتعجرفا، من جبايرة العمل والنظام والطغيان : ترك الجريمة
تنفشى فى المجتمع المصرى ، ووجه همه فقط للذين يطالبون بتحرير بلادهم .
وعندما نشبت الحرب العظمى - عام ١٩١٤ - بقى فى مصر ، وأمضى
سنواتها الأربع ، يعمل بدون أجازة ، حفاظا على أمن الامبراطورية التى
لا تغرب عنها الشمس .

وفى عام ١٩١٨ استقال « هارفى » من عمله - وكان قد بلغ الثامنة
والخمسين - وعمل بوزارة التموين البريطانية ، وعاد الى مصر فى عام
١٩٢٨ ، وكان مختل الأعصاب بشكل واضح ، وما لبث أن مات بها فى
مايو ١٩٣٠ - بعد أن بلغ السبعين - فى إحدى مستشفيات الأمراض العقلية .



الفجر



محكمة في جبانة - المتشرد الصغير - توحيدة المصرية - الهروب في
قلب مصر - الوطن للجميع - بائعة الفجل المصرية - جبناء الأمة - الشحط
والسنة ريال - صف مكان صف - دار المصريين جميعا - المصرية الباسلة -
ابتسامة الشهيد - الباشا والأسطى - الحاج جاد الله - اللى مايكرهوهم -
الأحزان والمقنابل - الثورة والناس - محسن بن عيوشة - بس التركى -
المشغل ٠٠ شغل - المقاوله الأمريكية ٠

...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...
...the ... of ...

محكمة فى جباة

عقدت أعجب محكمة فى التاريخ المصرى جلساتها فى « قرافة » الامام الشافعى .

حدث هذا أثناء ثورة ١٩١٩ ، وكان البوليس قد تصدى لاحدى مظاهرات الثورة وقتل أثناء الاشتباك أحد الطلاب ، وكان أحد زملائه بجواره ، فأمسك بعنان حصان الضابط القاتل وصاح :

- حيدر هو الذى قتله !

وكان « محمد حيدر بك » آنذاك قومندان للسوارى بقسم عابدين ، ومن أشرس رجال البوليس فى التصدى للمظاهرات ، وحاصر المتظاهرون منزله ، فاضطروه للبقاء داخله ، ثم تحايل وخرج فى ملابس مدنية وتوجه الى منزل « زهير أئندى صبرى » الطالب بالحقوق ، وأحد زعماء الثورة أيامها ، وأقسم له أنه برىء مما نسب اليه ، وأن لديه شهودا على انه يوم المظاهرة كان فى راحته الأسبوعية ، وطالب بتبرئته من تهمة قتل الطالب ورفع الحصار عن منزله .

وبناء على اقتراح من « زهير صبرى » تألفت هيئة محاكمته ضمت عشرين من زعماء الطلبة ومندوبى العمال ، واتخذت اجراءات مشددة لابقاء مكان المحكمة سرىا عن المتهم والشهود ، ورتب الأمر بحيث اقتيد الجميع الى « حوش » فى قرافة الامام الشافعى انعقدت فيه المحكمة واستمعت لشهادة شهود النقى ، وكانوا عددا من ضباط الجيش المصرى ، أكدوا أن حيدر بك كان يمضى أجازته معهم ، وحسم شاهد الاثبات الموقف عندما تأكد من ملامح المتهم ، قال : ان الذى أطلق الرصاص ليس هو لكنه ضابط يشبهه !

وصدر الحكم بالبراءة ، ورفضت المحكمة طلبا للدعاء بمحاكمة الضابط على جرائمه الأخرى ، على أساس انها مشكلة للنظر فى تهمة معينة ، وعندما تشكك المتهم فى أن الحكم سيكف عنه المتريصين به ، طمأنته المحكمة ، وأمرته أن يخرج بملابسه الرسمية وسيكون أمنا .

بعد ربع قرن من هذه الحادثة كان زهير صبرى المحامى أحد أصدقاء جلالة الملك ومن بطانته ، وما أكثر ما يكون الزمن وغدا !

المتشرد الصغير

عندما يتعرض الوطن للخطر ، فان كثيرين يغيرون موقفهم وينتمون اليه . . حتى تلك العناصر التي عاشت فى قاع الحياة ، والتي فقدت اتجاهها تماما .

فبعد أن أطلقت مدفعية الأسطول الانجليزى أولى قذائفها على الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ ، أفرجت حكومة الثورة العراقية عن المسجونين ، ودعتهم للانضمام الى قوات المقاومة ، وهكذا انضم الأشقياء الى الفلاحين وصعاليك المدن فى صد الغزو .

وفى أثناء ثورة ١٩١٩ ، مات كثيرون لكى لا يسقط علم مصر فى التراب ، كان من بينهم طلبة صغار وشبان ومتشردون لا مهنة لهم .

ويروى الأستاذان العقاد فى كتابه عن « سعد زغلول » أن ثلاثة عشر مصرياً قد تبادلوا على علم مصر ، يسقط الواحد منهم شهيداً وهو يحمل العلم ، فيحل محله آخر يتقدم ليحمل العلم دون لحظة خوف أو تردد .

ومما نقل عن الطبيب الكبير الدكتور « على ابراهيم باشا » ، حكاية صبرى صغير ، فى الخامسة عشرة من عمره ، حملته سيارة الاسعاف الى القصر العينى يوم الجمعة ١٩ مارس ١٩١٩ ، وكانت قوات الاحتلال قد حاصرت المصلين الذين خرجوا بعد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، فأطلقت عليهم رصاص « دمدم » المحرم دولياً . وكان الدكتور على ابراهيم يعمل طبيب امتياز بالقصر العينى ، فاستقبل المصابين ، ولفت الصبرى الصغير نظره .

كان - كما وصفه - لا يبدو طالباً أو صانعاً . وعندما سألته الطبيب عن وظيفته . . قال ببساطة :

- صنعتى ١٩ أنا متشرد .

وابتسم الطبيب وقال له :

- وماله . . لكن مصرى . . ووطنى .

وقبل منتصف الليل . . دعى الطبيب لعيادته ، وكان محموداً يصيح صيحات هستيرية متقطعة وخافتة ، لكن هلوسة الحمى التى كانت تخرج من فمه كانت تلخيصاً لمشاهد المظاهرة العظيمة التى مات فيها ثلاثة عشر مصرياً . . لا لشيء الا لكى لا يسقط علم مصر فى التراب . . كان الصبرى يقول :

– اجمد يا شيخ على .. الثبات يا شيخ على .. يا بختك يا شيخ
على .. نلتها والله ومث شهيد ، هات الراية .. الراية معايا يا شيخ محمد ..
اضرب يا شيخ محمد .. ماتخافش .. الثبات .. آه يا دماغى .. خد الراية
يا شيخ محمد .

وفى منتصف الليل ، مات .. وكانت وفاته كحياته معجزة .. فقد
مات دون أن ينزف قطرة دم واحدة !

توحيدة المصرية

يتعرض الوطن للخطر ، فيكتشف الذين يعيشون فى قاع الحياة أنفسهم ،
ويعطونه عمرهم ، ذلك أنهم مركز كل ما فيه من ظلم وظلام وفساد .

مات المتشرد الصغير ، وهو يسلم الراية لآخر يموت بعده ، وفى
الصباح جاءت أسرته لتتسلم جثته ، وكانت مفاجأة للدكتور على ابراهيم
عندما اكتشف أن الصبى هو ابن « توحيدة الانجليزية » وكانت قد أخذت
لقبها ، لأنها كانت الغانية المفضلة لجنود جيش الاحتلال وضباطه ، وكان
المنزل الذى تديره فى حى البغاء يتفنن فى تقديم المتعة لهم ، لدرجة أن أصبح
لقب « الانجليزية » مشهورا ومعروفا فى حى البغاء . بل فى مصر كلها .

وطوال سنوات الحرب الأولى ، فتحت « توحيدة » بيتها للترفيه عن
جنود الاحتلال ، الذين كانوا يقيمون فى القاهرة ، أو يعودون اليها فى
أجازات قصيرة ، يشربون الخمر ، وينالون المتعة وقيمون حفلات للرقص
الشرقى ، ويستمتعون بكل ما يتيح لهم وضعهم المتسلط باعتبارهم حكام
مصر الحقيقيين .

وتسلمت « توحيدة » جثة ابنها الصبى ، ودفنته دون دمعة ، وفى اليوم
التالى أقامت فى منزلها حفلة كبرى ، دعت اليها مجموعة كبيرة من أصدقائها
الانجليز ، وتحدث حى البغاء كله بالحفلة الفخمة التى أريقت فيها الخمر ،
وسالت أنهارا ، وارتفعت نغمات الموسيقى ومألت الضحكات أرجاء الحى
السعيد .

فى صالة المنزل ، كانت توحيدة تضحك وترقص ، وهى فى قمة فتنتها ، وأخذت تترامى على ضيوفها الانجليز معابثة ، تمنح القبلات واللمسات ، وتخطف غطاء الرأس من واحد لتضعه فوق رأس آخر . وأخيرا أخذت مسدسين من وسط أحد الضباط ، وأخذت ترقص بهما . وفى غيبة الوعى لم ينتبه أحد لما تفعل ، وابتهج رواد الحفلة بمشهدها : لقد أصبحت توحيدة انجليزية فعلا ، المكاب على رأسها والمسدسات فى يديها . .

وفجأة انطلق الرصاص ، وأصيب كثيرون من الجنود والضباط ، وقتلت توحيدة ضيوفها الأعداء .

وفى الصباح كانت قد لفظت أنفاسها فى « القصر العيى » .

ويعلق الدكتور على ابراهيم الذى روى الحكاية قائلا :

– تنازلت توحيدة عن لقب الانجليزية بالدم . . أصرت على أن تموت وهى توحيدة المصرية .

الهروب فى قلب مصر

« محمد شكرى الكرداوى » واحد من أبرز الوجوه التى شاركت فى الكفاح ضد الاحتلال الانجليزى لمصر ، كان من متطرفى الحزب الوطنى قبل الحرب ، ثم واحدا من يعاقبة الوفديين بعد تفجر الثورة ، هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بأن الاستعمار لا يرفع يده الا والسلاح فى ظهره .

وكان « الكرداوى » مهندسا ثوريا ، ينظم ويخطط ، ويشرف على تنفيذ ما خططه بحيوية ذهنية خارقة ، ولا ييأس أبدا ، مهما فشلت خطته أو عجزت عن تحقيق ما رسم لها من أهداف ، فعندما قبل السلطان حسين الحكم فى ظل الحماية ، قرر أن يغتاله بنفسه ، لكن أهله اكتشفوا الخطة فاعتقلوه ، ومنعوا تنفيذها ، فظل يدبر الى أن أطلق « محمد خليل » النار على السلطان ، طبقا لخطة رسمها الكرداوى ، وفشلت الحادثة ، ولكنها كانت صرخة احتجاج على أى حال .

وبعد تفجر الثورة ، كون فى المنصورة – وهى مسقط رأسه – جمعية سرية باسم « اليد السوداء » كان أحد أعوانه فيها « أحمد أفندى جلال »

الذي اشتغل بعد ذلك في الصحافة ثم أصبح مخرجاً سينمائياً مشهوراً - وظلت الجمعية توزع المنشورات الثورية ، وتؤلب أهالي المنصورة لتستمر الثورة . وعندما جاءت لجنة ملنر ، وأصدر الوفد قراره الشهير بمقاطعتها ، كان « محمد سعيد باشا » أحد الذين قبلوا رئاسة الوزارة مخالفاً بذلك قرار الوفد بمقاطعة اللجنة ، وعدم الحوار معها ، والاضراب عن تشكيل أى وزارة تقبل التفاوض وإياها ، إلا إذا اعترفت بشرعية تمثيل الوفد للامة ، وقبلت الحديث معه ، فقرر « الكرداوى » أن يغتاله لخروجه عن ارادة الأمة ، ودبر خطته فى سرية شديدة ونفذها طالب بالأزهر هو الشيخ « سيد محمد على » .

وعقب الحادثة ، هرب الكرداوى ، وصدر عليه حكم غيايى بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً ، ورصدت جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبلغ عنه ، أما هو فقد اختفى خمس سنوات متصلة فى القاهرة وأسيوط وقابل مدير الأمن بها أكثر من مرة ، فلم يتعرف على شخصيته برغم توزيع آلاف من صورته على كل البلاد . وتزوج وهو مختف مرتين بأسمائه المستعارة ، وأنجب من الأولى ابنة سماها « رسمية » .

وظل الكرداوى مختفياً الى أن تولى الوفد الحكم وصدر عفو عام على المسجونين السياسيين فعاد من مخبئه - بعد خمس سنوات من الاختفاء - وعين موظفاً بوزارة المعارف ، وظل يدرس الى أن تخرج من مدرسة المعلمين وعمل بالتدريس .

الوطن للجميع

« الدين لله ، والوطن للجميع » واحد من أهم شعارات ثورة ١٩١٩ .

وخلال شهور الثورة - وفيما تلاها من سنوات - ساد هذا الشعار العظيم ، وفشلت محاولات الاستعمار لتطبيق سياسة « فرق تسد » التى اتبعها على مشارف القرن ، وأساءت للنضال الوطنى أبلغ أساءة .

فى ثورة ١٩١٩ خطب القسس على منابر المساجد ، وخطب الأئمة فى هياكل الكنائس ، وكان القسيس والشيخ يتصدران دائماً أى مظاهرة ثورية ، ويتعانقان أمام الجماهير وأمام جنود الاحتلال .

وفى سنة ١٩٢٠ وصلت الى مصر لجنة ملنر الشهيرة التى كلفت بدراسة أسباب الثورة ، ومعرفة مطالب المصريين ، وكان الوفد المصرى بقيادة

« سعد زغلول » أيامها في باريس ، يدافع عن حق مصر في الاستقلال ، وأصدرت لجنة الوفد المركزية بيانا دعت فيه الى مقاطعة اللجنة لاجبارها على الاعتراف بالوفد المصرى كقائد شرعى للامة ، والتفاوض معه ، واستقالت الوزارة القائمة آنذاك ، وأصدر الوفد بيانا يناشد فيه السياسيين عدم تشكيل وزارة لكيلا تجد اللجنة من تخاطبه في مصر .

ولجأ الاستعماريون للمناورة ، فكلفوا مسيحيا وهو « يوسف وهبه باشا » بتشكيل الوزارة ، فشكلها . وكانت مناورة نكية ، هدفها التفرقة بين عنصرى الأمة ، وسارع « عبد الرحمن فهمى » - سكرتير لجنة الوفد المركزية - الى الكنيسة المرقسية الكبرى ، وخطب هناك قائلا :

- اذا كان الاستعماريون قد وجدوا مسيحيا واحدا خائنا يقبل رئاسة الوزارة ، فقد وجدوا أيضا ثمانية مسلمين خونة قبلوا أن يكونوا وزراء .

وعندما قرر الجهاز السرى للثورة قتل « يوسف وهبه » تصدى الشباب المسيحي « عريان يوسف سعد » لهذه المهمة ، لكى لا يستغل الاستعماريون المسألة - لو نفذها مسلم - فى ازكاء نيران الحرب الطائفية . وقبض على عريان سعد . وحكم عليه بالسجن عشر سنوات قضى منها أربعة ثم أفرج عنه فى عفو عام .

بائعة الفجل المصرية

« توفيق العزب » فدائى قديم . كان عضوا بجمعية « اليد السوداء » التى ألفها الشيخ « مصطفى الغياثى » لمقاومة الاحتلال الانجليزى . دخل السجن مرتين ، وقضى فيه عشر سنوات كاملة من عمره .

بدأ « توفيق العزب » حياته موظفا بالسكة الحديد ، وظل بها الى أن أحيل الى المعاش ، وقد دخل السجن لأول مرة عام ١٩٢٢ فى قضية اغتيال الموظفين الانجليز ، ثم أفرج عنه فى عهد وزارة « سعد زغلول » عام ١٩٢٤ ، وعاد اليه مرة أخرى فى قضية القنابل الشهيرة خلال حكم اسماعيل صدقى .

يروى « توفيق العزب » ، أنه فى احدى عملياتهم ، تصدى لموظف انجليزى كبير هو « المستر هاتون » كبير مهندسى السكة الحديد ، وأطلق عليه الرصاص

وهو خارج من مبنى هيئة السكة الحديد ، وفى آخر لحظة ، رآته بائعة فجبل فقيرة ، كانت قد خرجت من أحد منحنيات الطريق • وعندما قبض عليه استدعى البوليس بائعة الفجل لتتعرف عليه ، وعرض عليها عرضاً قانونياً يتضمن أشخاصاً يماثلونه فى القامة والشكل ، ومرت بائعة الفجل على كل الوجوه ، ثم قالت ببلاهة متصنعة :

- مش فيهم !!

وكان البوليس كبير الأمل فى أن تكون هذه البائعة ، شاهد الرؤية الذى يقود « توفيق العزب » الى المشنقة ، ولكنها أصرت على موقفها ، فاستدعاها البوليس ، وعوض عليها مكافأة تصل الى عدة آلاف من الجنيهات ، ولكنها أصرت على أن الذى قتل الخواجة ، هو شاب طويل ورفيع ، وهى صفات لا علاقة لها على الاطلاق بتوفيق العزب ، وكرر البوليس العرض ، وكررت البائعة الانكار ، وعندما عرضوا عليها صورته وطلبوا منها أن تخرجه من الصف وتأخذ ما تريد ، رفضت •

الشيء الغريب - كما يقول توفيق - أنه فى كل مرة من مرات العرض ، كانت عينا البائعة تصطدم بعينه ، وتظهر فيها علامات تدل على معرفتها به ، بل وتشجيعها له •

وخرجت مرة أخرى لتتبع الفجل تاركة آلاف الجنيهات دون أى تردد •
وتلك - كما يقول توفيق العزب - هى مصر •

جبناء الأمة

فى ربيع ١٩١٩ كانت الحياة فى مصر عجيبة !

كان صباح القاهرة ، يبدأ بمظاهرات صاخبة ، تهتف بسقوط الاحتلال ، وتطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وكان الرصاص الاستعماري يختار للمصريين دائماً هذا الموت الزؤام ، فاذا كان الظهر ، خرجت نفس هذه المظاهرات تشيع جنازات الشهداء الذين ماتوا فى مظاهرات الصباح ، تهتف نفس الهتاف ، وتموت نفس الميتة !

وفى المساء كانت معظم العناصر النشطة تلتقي فى الجامع الأزهر الشريف ، تخطط وتناقش ، وتتصدى للمؤامرات ، وحاصرت قوات الاحتلال الجامع الأزهر لتمنع الوصول اليه ، فسدت كل الطرق المحيطة به • وتحايل طلاب الأزهر على ذلك بأن وضعوا بعضهم بجوار نقط الحصار ، ليدلوا الحاضرين على مكان الاجتماع ، فاذا جاء أحدهم همسوا له : زاوية العميان •

وعبر طريق طويل ، من شارع لحارة ومن زقاق لعطفة ، ومن سطح ربع الى خرابة ، ينتهى الجميع الى داخل الأزهر ، ليجدوا داخله أعدادا تصل الى عشرين ألفا فى بعض الليالى : طلبة من الطب والحقوق والمهندسخانة والعلمين العليا والزراعة والتجارة ، وصعاليك وعمال ومهنيون وقساوسة من السريان الكاثوليك ، والروم لكاثوليك ، والروم الارثوذكس ، وآلاف من الأقباط وكثيرون بلا مهنة ولا رزق •

ويخطب كل هؤلاء فيهاجمون « العقلاء » ودعاة الحكمة ، الذين يطالبون بالسكينة ، ويسخرون منهم ، ويسمونهم « جبناء الأمة » ويطالبون بالألا تغمض عين ولا تقف يد ، ولا تخفت حنجرة ، قبل أن يعلن الانجليز عزمهم على الرحيل عن البلاد • وترتفع درجة الحماس ، فيطالبون الناس ألا يكفوا عن الاستشهاد • وكانت الأسماء التى تخطب غريبة ، لا يجمعها سوى جبهها للوطن ورغبتها فى الموت فى سبيله : الشيخ الزنكلونى والشيخ ابو العيون ، والقمس سرجيوس والايجومانس قرفوريوس •

• ويتفق الجميع •

ثم يتفرقون من حيث جاءوا فى هدوء • يتبادلون السخرية من جبناء الأمة ، ويتسللون من « زاوية العميان » الى « طريق النور » ، ويشرق الفجر بعد قليل ، ويبدأ يوم جديد ، بالمظاهرات والاستشهاد والجنائزات ، ويعود الجميع فى الليل - وقد كفكفوا دموعهم - الى زاوية العميان ليسخروا من جبناء الأمة •

الشحط والستة ريال

كان « بيرم التونسى » صعلوكا نبيلًا • عاش مع الفقراء ، ونبض شعره بكل ما فى حياتهم من معاناة صادقة ، وصبر طويل ، وسخرية مرّة ،

ترك محل البقالة الذي كان يعمل صبيبا به ، وانطلق يكتب عن الشعب ويسخر من كل أعدائه : الاحتلال والسلطان والشركات ، ورجال الدين الأزوريين الذين يدافعون عن امتيازاتهم بتفسير الاسلام لحسابهم والمتاجرة بالقرآن .

وبينما كان الشعب كله يلتف حول قيادة « سعد زغلول » يشذ الشيخ بخيت مفتى الديار المصرية ، ومعه عدد من الارستقراطية الدينية التي كانت ترتبط بالسلطات الحاكمة وتعارض الثورة ، ويكتب بيرم على الرئاسة قائلا :

أول ما نبدي نصلي على النبي
نبي وطني يلعن أبوك يا بخيت

ويتصدى للشيخ بأزجاله ، فما يكاد يقرأ في الصحف خبرا عن أن الشيخ قد ضبط وهو يخرج من قصر الدوبارة - مقر ممثل الاحتلال - حتى يكتب له :

يا بخيت يا أبو دومة ، يا أبو خلقة مشومة
ضبطوك متييل ، ع القصر محول
اظم أحسن لك .. دا الشعب قاعد لك

وينفى « بيرم » الى باريس بسبب زجله الذي هاجم فيه السلطان فؤاد ، ويظل عشرين عاما طويلة في بلاد الغربة ، ومع ذلك يكتب عن مصر ويرسل أزجاله لتنتشر في صحفها ، ويتصدى للمتاجرين بالدين ، فعندما اتسعت الدعوة لانشاء الجمعيات التعاونية تطوع الشيخ « زفتزاني » - وكان من مشايخ الطرق الصوفية - لمقاومة الدعوة ، وكتب على صفحات « الاهرام » يتهم أصحابها بالالحاد والخروج على الدين ، ويقول أنهم « بلاشفة لا يؤمنون بدين ولا يعترفون بالله » .

ومن منفاه ، كتب بيرم ساخرا من الشيخ ، محرفا اسمه الى « زفتزاني » وخاطبه قائلا :

لا في الجوامع رأيت مثلك ولا في الدير
عالم ومسلم ويتعارض في فعل الخير
ما دام فضيلتك بتاكل كستليته وطيير
يبقى الدريس والسدره والفجل للخرفان
طرب وانك مالك بتتفلس وتتفلسف
وتخش في اللي ما هو لك ليه وتكشف
هي نهار البلبل دي لما تتبلشف
هاتجرك م القاون والجبة والقفطان !؟

وسخر « بيرم » منا يفعله بعض رجال الدين ، الذين يعيشون على
عرق الآخرين ، ولا يعطونهم أجرا . . . فقال يصفهم :

يشغلوا الشحط فى الجامع بستة ريال
يكنس ، ويمسح محلات الأدب ، عال العال

وأخر الشهر يتحاسب على الأهمال
يطلع من الدين . . . والدنيا كمان خسران

وهكذا عاش بيرم التونسي فى المنفى ونبض قلبه مع الوطن .

صف مكان صف

اتخذت جماهير الشعب المصرى من المسجد والكنيسة مقارا للاجتماع
والحوار ورسم الخطط أثناء ثورة ١٩١٩ ، حتى أصبح بيت الله هو المكان
الذى يسع الجميع ويضمهم ، ويتيح لهم أوسع الحرية للتعبير عن حبهم للوطن
واستعدادهم للموت فى سبيله .

وبعد أن قطعت الثورة مرحلة من مراحلها ، وبدأ الاختلاف بين صفوف
الوفد ، لم يبق هذا الخلاف على أساس « طائفى » ، ولكنه قام على أساس
« سياسى » ، فبعد أن عرض « اللورد ملنر » مشروعته الذى انتهت اليه
مباحثاته مع سعد زغلول ، رأى بعض أعضاء الوفد أن المشروع مقبول
ورأى سعد أنه أقل مما يطمح اليه الشعب ، وأنه مجرد تنظيم للحماية ، واشتد
الخلاف فى الرأى بين سعد ومعارضيه ، وانتهى بخروج معظم الأعضاء عن
الوفد . وبقي سعد مع أربعة أعضاء ، كان بينهم اثنان من الأقباط هما واصف
بطرس غالى وويصا واصف .

وقاد سعد حملة معارضة لوزارة « عدلى يكن » التى شكلت لتتفاوض
مع الحكومة البريطانية حول مقترحات اللورد ملنر ، وطلب أن يكون للوفد
رئاسة ممثلى مصر فى المفاوضات ، وأن يكون معظمهم من أعضائه ، وظلت
المعارضة تتصاعد حتى نشبت ثورة أخرى فى مصر ، ونفى سعد للمرة الثانية
ونفى معه « مصريون » لم تفكر قوات الاحتلال لحظة فيما إذا كانوا نصارى
أو مسلمين .

وفى يوم من شتاء ١٩٢١ ، أوفدت السلطة العسكرية البريطانية سرية من الجنود الانجليز فحاصرت بيت الأمة ، وصعد قائدها - وهو ضابط بريطانى - الى غرفة نوم سعد زغلول ، وخرج به من المنزل منفيا الى عدن . وفى نفس اللحظة كانت قوات أخرى تعتقل سينوت حنا ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، وفتح الله بركات .

وتجتمع لجنة الوفد المركزية ، وتضم اليه أعضاء جدد ، منهم « مرقص حنا » ، وتصدر قرارا بمقاطعة البضائع الانجليزية ، يوقع عليه أعضاء الوفد بالكامل ، وتقبض سلطات الاحتلال عليهم جميعا ، وكان بين المعتقلين الثمانية أربعة من الأقباط ، والحركة الوطنية فى هذا كله تتبع أسلوب « صف مكان صف » ، تعتقل لجنة الوفد فتحل مكانها لجنة أخرى ، ذهب الثمانية سجناء الى ثكنات قصر النيل ، فحلت محلهم قيادة أخرى للوفد كان من أعضائها اثنان من الأقباط : سلامة ميخائيل وفخرى عبد النور .

وتمضى أيام الثورة : مظاهرات وقتلى ومشائخ وشهداء ، وجنازات لجان تعتقل وأخرى تنفى ، وفى كل هذا لا يتذكر أحد الا أن مصر فى خطر .

دار المصريين جميعا

منذ الثورة العراقية ، ومعظم الوثائق السياسية المصرية تنظر الى مصر باعتبارها دولة قومية ، وعلى أساس أنها « دار المصريين جميعا » لا اختلاف بينهم فى ذلك على أساس أديانهم أو لغتهم .

وفى ديسمبر ١٨٨١ نشرت الصحف برنامج أول حزب مصرى ، وهو « الحزب الوطنى » الذى أسسه الثوار العراقيون ، وجاء فى المادة الأولى منه أن « الحزب الوطنى » حزب سياسى علمانى ، مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذاهب وجميع المسلمين والنصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ، ويتكلم بلغتها منضم اليه ، لأنه لا ينظر الى اختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع اخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية .

وبانتكاس الثورة العراقية ووقوع مصر تحت أقدام الاحتلال ، عادت النغمة الطائفية للارتفاع ، واقترن هذا بهزيمة الثورة وانتكاس أحلام الديمقراطية والتحرر التى عايشها الجيل الذى ساهم فى اشغالها .

وظلت المسألة تتفاقم الى أن عادت الى وضعها الطبيعي والصحيح ،
تفجرت الثورة الوطنية الديمقراطية فى سنة ١٩١٩ ، وغاد الجميع يفتون
متجاورين من أجل مصر ، لم يفرق الرصاص الانجليزى بين المصريين حسب
أديانهم ، ولم تفرق المناقى بين المصريين حسب الدور التى يتعبدون فيها ،
نفى مكرم عبيد وسينوت حنا كما نفى سعد والنحاس ، ولكنها تفرق بين
الخنونة والوطنيين ، وتعانق الشيخ الزنكلونى مع الشيخ أبو العيون مع القمص
سرجيوس ٠٠ وكتب الشيخ أبو العيون يقول : « سار القسيس بجانب الشيخ
وجموع المتظاهرين من خلفهم قائلين : الى الأمام ٠٠ الى الأمام ٠٠ الى
الشهادة » .

أما سرجيوس فقد خطب من فوق منبر الجامع الأزهر فقال : « اذا كان
الانجليز يتمسكون ببقائهم فى مصر بحجة حماية القبط ، فأقول ليمنت القبط
وليحى المسلمون أحرارا . »

المصرية الباسلة

كانت « شريفة رياض » واحدة من أوائل السيدات المصريات اللواتى
خرجن للعمل العام ، وناضلن من أجل قضية المرأة وأدركن بوعى أن تحرر
المرأة المصرية ليس عملا منفصلا عن تحرر الوطن المصرى ، وليس قضية
جزئية أو فرعية .

بدأت نشاطها فى أوائل القرن عندما بدأت تجمع تيرعات من الأسر
المصرية الثرية لمساعدة الأتراك فى حرب البلقان ، وكان عملها تحديا سافرا
لسلطات الاحتلال الانجليزى ، فقد كانت أى مساعدة لتركيا تعتبر - أيامها -
عملا عدائيا لانجلترا . وبرغم أنها كانت تنتمى لأسرة محافظة - بل ورجعية -
فانها خرجت الى الطريق ونشطت اجتماعيا وسياسيا بجسارة نادرة .

كانت ابنة لحسن راسم باشا محافظ الاسكندرية ، وزوجة محمود بك
رياض ، أحد أبناء مصطفى رياض باشا - رئيس الوزراء المصرى قبل الثورة
العراقية وبعدها - وكان الثلاثة - والدها وحموها وزوجها - شديدى
المحافظة ، بل ان زوجها لم يكن يهتم أى اهتمام بالعمل العام أو السياسى .
وبرغم ذلك حاولت أن تشكل لجنة نسائية للحزب الوطنى بزعامة مصطفى

كامل ، وفشلت فى ذلك - بسبب محافظة الحزب فى المسائل الاجتماعية
عموما - فانتقلت الى الخدمة العامة وأنشأت « جمعية المرأة الجديدة » لتعليم
وتدريب الفتيات .

وفى مجرى ثورة ١٩١٩ العظيمة ، وفى تيارها الوطنى والديمقراطى
النقى ، وجدت « شريفة رياض » نفسها ، فكانت العمود الفقرى لنشاط
السيدات المصريات خلال الثورة ، وكانت صاحبة الدعوة الى الاجتماع الذى
عقد فى الكنيسة المرقسية الكبرى وأسفر عن تشكيل لجنة السيدات التى قامت
بنشاط يأسل خلال الثورة . فهذه اللجنة هى التى حركت سيدات مصر
للخروج فى المظاهرات الكبرى اثناء ثورة مارس العظيمة . وهى التى جمعت
الاكتتابات لمساعدة أسر الشهداء والضحايا ، وساهمت بدور بارز فى مقاطعة
السياسيين المصريين للمناصب الوزارية عام ١٩٢٠ ، ولعبت « شريفة » دورا
محركا فى تنظيم اضراب الكناسين الذى كان من أبهر وأعظم أعمال الثورة .

وكانت تتميز بشجاعة فائقة ، ولباقة نادرة ، مكنتها من أن تعارض
سعد زغلول - الذى كان يقدرها ويحترمها - فى بعض آرائه . وحدث أن
ذهبت ضمن وفد نسائى لمقابلة المندوب السامى البريطانى محتجات على
اعتقال سعد زغلول ومطالبات بالافراج عنه ، وقال لهن الخوجا بصلف
أوربى :

- ان المرأة المصرية التى لا تزال تضرب وتركل فى بيتها لا يحق لها
أن تنادى بالحرية قبل أن تتحرر هى .

وردت « شريفة رياض » بعنف ، فذكرت الخوجا بقضية كانت مثارة
وقتها فى انجلترا اتهم فيها أحد اللوردات الانجليز بضرب زوجته .
قالت :

- ان صرح منطقتك وجب أن تكون انجلترا محتلة حتى تتحرر نساؤكم
من ضرب أزواجهن . . .
وبلع الخوجا الالهانة ساكتا .

واستمرت « شريفة » تناضل ضمن حركة لجنة ملنز ، وأثناء انقلاب
صدقى على الدستور - فى أوائل الثلاثينيات - لعبت دورا هاما فى المقاومة
وساندت نضال عمال العنابر والترسانة من أجل التحرر والديمقراطية ،
فنظمت لجان للمساعدة والاسعاف ، وحضرت معظم المحاكمات تشجع وتدفع
الغرامات وتوكل المحامين .

وفى عام ١٩٣٦ اعتزلت العمل العام بعد وفاة ابنتها ، وكانت غروسا ،
وماتت هذه المصرية الجميلة الشجاعة فى سبتمبر ١٩٥٤ بعد أن حقرت اسمها
فى وجدان مصر .

ابتسامة الشهيد

كانت المعركة بين جماهير الشعب المصرى وبين الاستعمار البريطانى متشعبة الميادين متعددة الأساليب ، استخدم فيها الطرفان كل ما لديهما من امكانيات ووسائل ، العنف والشراسة أحيانا .. والذكاء والطرافة فى أحيان أخرى .

وكانت المظاهرات اسلويا من أساليب الاحتجاج على الاستعمار وعلى عملائه من الخونة الذين كانوا يكتمون الأفواه ويدوسون القانون ، ويسلبون الناس حقوقهم فى وضوح النهار .

يروى اللواء « رسل باشا » - وهو انجليزى تولى منصب حكمدارية العاصمة سنوات طويلة - فى مذكراته أنه علم يوما أن هناك مظاهرة تنوى مهاجمة فندق الكونتنتال حيث يقيم عدد كبير من الضباط الانجليز وزوجاتهم ، فصحب فصيلة من جنوده ، وأحاط بالفندق انتظارا للمظاهرة ، التى ما لبثت أن ظهرت : شديدة الازدحام عنيفة الهتافات ، وزاد الطين بلة - فى رأى اللواء رسل - أنها كانت جنازة شهيد ، وهو ما قلق له الحكمدار الانجليزى ، الذى كان يعلم أن الجنازات المصرية لها حرمة ولا تجوز مهاجمتها لأن ذلك يستثير الغضب العام .

وعندما وصل المتظاهرون الى مدى الرؤية ، شاهد الحكمدار عددا من الشبان يحملون نقالة عالية ، تمددت عليها جثة صفراء تحيط بها الأزهار ، وقد تهدل ذراعها على حرفى النقالة ، وتقدم هؤلاء الى مدخل الفندق وأحاط بهم المتظاهرون كحرس قوى لهم ، واشتدت الهتافات ، وعنقت ، وبات واضحا أن الضباط الانجليز الذين يقطنون فى الفندق سيتعرضون لما لا يحمد عقباه ، وترك الحكمدار مكانه على الشرفة ، وتقدم الى حيث وقف رجاله ليقوى عزائمهم ، وليحاول التفاهم مع المتظاهرين بالحسنى ، وأشعل سيجارة ليخفى توتره ، وبينما هو يتفاهم مع قادة المظاهرة ، خيل اليه أن الشهيد الميت على النقالة والمغطى بالزهور يبتسم ، وخطرت له فكرة ، فاستمر فى حوارهم معهم ، بينما كانت كفه المسكة بالسيجارة تقترب من كف الشهيد المدلاة من النقالة ، وبعد برهة فوجيء المتظاهرون بالشهيد يصرخ وينزل من فوق نقالته هو وزهوره ، ويندفع جاريا وخلفه المظاهرة كلها .

كان الذكاء المصرى المدرب قد ابتكر هذه الفكرة أيامها ، ليحمى مظاهراته من العدوان عليها .

وجرى المتظاهرون ضاحكين يبحثون عن نعش يملأونه بالحجارة ، ويحاولون فيه بذكاء المصرى ، الذى لم يطقوه جوع أو يقهره طفيان بريطانيا .. وكانت أيامها عظمى .

الباشا والأسطى

كان رجلا نحيلًا قصيرا لا تساوى ثيابه أكثر من خمسة قروش ، يرتدى عادة - سترة ممزقة وجلبايا رثا ويضع على رأسه طربوشا ، كان يرتقى منبر الأزهر فى بعض أيام الثورة ثم يقف على المنصة فاذا هو عملاق ، وإذا بالألوف المؤلفة من الذين يحتشدون فى الأزهر تصمت ويستقر ضجيجها لتصفى الى ما يقوله بأسلوبه العامى الساذج فى خفوت واعتزان .

كان الأسطى « احمد » بطلا عظيما من أبطال المقاومة الشعبية ، كان يسيطر على واحدة من المنظمات الفدائية التى كانت تتريص بجنود الإحتلال وتفتك بهم ، وتمد نشاطها لتقاتل المترددين والضعفاء وطلاب الوظائف الذين تركوا الثورة فى منتصف الطريق خوفا أو اغراء .

وجاءت لجنة ملنر الى القاهرة ، لتحطم قوى الثورة ، وتمهد الطريق الى خيانات لا حصر لها . وكان ظاهر مهمتها البحث عن مطالب المصريين وهى فى حقيقتها أحيولة من أحيابل الاستعمار يهدف منها الى تفتيت صخرة الوطنية واضعاف روح المقاومة ومغالبة الشعور الوطنى الفياض .

ويوما ترامت الى الأسطى احمد أنباء عن باشا ارتبط بموعد محدد فى الساعة العاشرة صباحا ليلقى اللورد ملنر ، مخالفا بذلك القرار الذى أجمعت عليه الأمة بأن تعلن رأيها الموحد بمقاطعة اللجنة .

وفى الثامنة صباحا ، كان الأسطى احمد وعدد من طلاب الأزهر - كان منهم الصحفى المخضرم المرحوم محمد على غريب - ينتظرون الباشا أمام باب قصره ، ليقولوا له أنهم يرجونه أن يعتذر عن الذهاب الى هذا الموعد لأن مصلحة الوطن تقتضى ذلك . وغضب الباشا الذى لم تكن تهمة مصلحة الوطن فى شئ ، وساءه أن يقدم اليه أسطوات ومجاورون فقراء ملوثون بطين الحقول طلبا كهذا ، وسبهم سعادته بالعثمانلى بكلمات فاض بها - ويفيض بها دائما - لسان أمثاله . ولم يرد الأسطى وسكت المجاورون . . . تركوا الباشا حتى ركب عريته التى كان يجرها جوادان فارهان ، وقيل أن يتحرك المسائق أمسكوا بالجوادين وقادوهما الى الاسطبل - وهو يقع تحت السراى - وأدخلوا العرية وفى جوفها الباشا ، ثم أقفلوا عليها الباب وتركوا عددا منهم لحراسة سعادته والاطمئنان على راحته فى الاسطبل ، ولنعاه بالطبع من الخروج ، ومنع أى مخلوق من الإفراج عنه . وظل الباشا يصرخ بالتركى ، ويستغيث بالعثمانلى ، فيجتمع المارة لانقاذه ، ويهدوء كان الأسطى احمد يشرح الموضوع لهم ، فيبصقون على الأرض ، وينضم بعضهم الى فرقة الحراسة التى ظلت تتضخم . . الى أن أفرج الأسطى عن الباشا فى الثانية

عشرة ٠٠ ويعد ساعتين من موعده مع اللورد ملنر ٠٠ وهكذا كان الشعب يحرس قضيته !

الحاج جاد الله

بطولة الشعب هادئة ٠٠ صامته ، لا تعرف الضجيج ولا الدعاية ، لا تبحث عن شهرة ، ولا تنتقص فضلا ليس لها ٠٠ انها حتى لا تنتظر جزاء على تضحياتها ، والمأساة أن التاريخ أحيانا يعتمد الضجيج كشهادة للبطولة ، وينسى الذين قاتلوا في صمت ، وضحوا دون ضجيج ، وتعذبوا دون اعلان !

في مصلحة السكة الحديد كان « الأسطي احمد جاد الله » يعمل ، وكان قد تنازل عن لقب الأسطي عندما مكنته الظروف أن يحج الى بيت الله ، وعرف من وقتها بـ « الحاج جاد الله » .

وتأتى ثورة ١٩١٩ وينغمس فيها الأسطي بكل ثقله ، يهبها كل طاقته ، ويتمرن على اطلاق الرصاص الى أن يحذقه ، ويصر على أن يرفع من درجة استعداده ، فيواصل التمرين وينجح أخيرا في إصابة الهدف بالتوجيه ، وليس بالنيشان فقط ، وكان طبيعيا أن ينغمس في حركة المقاومة السرية ، وأن ينطلق رصاصه ليصيب الذين كانوا يحتلون مصر ، ويمتهنون كرامتها وينهبون خيراتها .

في ضاحية الزيتون كان هناك ضابط انجليزي يقوم بالدور الذي يقوم به كل المحتلين : يعذب الأمالي ، ويغلظ في معاملتهم ، فاعتزم الحاج جاد الله أن يجعله هدفا لرصاص مسدسه ، فيريح من شروره كل الذين كانوا يقاتلون من أجل حرية مصر .

ورسم الحاج خطته ٠٠

في صباح يوم التنفيذ توجه الى « محطة مصر » ليستقل منها القطار الى هدفه ، وبينما هو في انتظار القطار فوجيء بضابط بريطاني يركب جواده ويتربص للمتظاهرين . وعلى الفور قرر أن يحرمه من القيام بالدور الذي كان يستعد للقيام به ، وأن يقوم بذلك قبل تنفيذ مهمته الأصلية ، لكن مشكلة ما

قد واجهته ، ان كان هناك جندي بوليس مصرى يقف فى المنطقة ، وعيناه ترقبان كل ما يقع فيها ، وكان معنى اطلاق النار على الضابط الانجليزى أن يتعرض الجندى لرصاصه ، ولم يهن على الحاج جاد الله أن يطلق مصريون الرصاص على مصريين ، وخاصة اذا كانوا من نوع ذلك الجندى الفقير الغلبان ، الذى دفعه الجوع لأن يكون عوناً لجلاديه ، رغماً عن ارادته ودون رغبة منه .

فى لحظة خاطفة كان الحاج جاد الله قد قرر أمراً ٠٠ عاد الى منزله وطلب من زوجته أن تلبس ملابسها وتستعد للخروج ، وكانت الزوجة فى شهور حملها الأخيرة ، وعندما أخطرها الحاج بما يريده منها ، تحمست على الفور وارتدت ملابسها وصاحبتة الى محطة السكة الحديد ٠٠ كان الحاج قد قرر أن ينقذ الجندي اعتماداً على شىء يعرفه فى كل مصرى ٠٠ هو طبيته وحرصه على مساعدة الضعفاء .

وما أن هلت السيدة الحامل ، داخلة الى المحطة ، وراها الجندى تتهاوى اعياء ، حتى اهتم بأمرها ، وخاصة عندما طلبت منه أن يوصلها الى رصيف المحطة ، وأن يحضر لها كوب ماء ٠٠ وما أن ترك النقطة التى كان فيها حتى كان الحاج جاد الله يطلق رصاصه على الضابط الانجليزى ويدخل بهدوء الى حيث يركب القطار ٠٠ الى مهمته الأصلية : قتل ضابط انجليزى آخر .

الى مايكرهوهم

كل تجارب الشعب المصرى مع الطغاة والمستعمرين تؤكد أنهم بلا ضمير ولا أخلاق وأنهم يقتلون ويذرفون عليه دموع التماسيح ويمشون فى جنازته ٠٠

ومرة فى اثناء ثورة ١٩١٩ قامت معركة ضارية بين الجنود الانجليز ومتظاهرين غزل من حوارى القاهرة ومدارسها ، وفتح قراصنة الحضارة الانجليزية النار على المتظاهرين ، وتصدى هؤلاء لخط النار بشجاعة وفروسية ، وحصدت النار الطلبة حصداً ، وهوت جثثهم الى أرض المعركة من كل جانب كالحمام الراقد .

انتهت المعركة بقتل عدد كبير من المتظاهرين ، ولم يبق منهم الا نفر قليل يعد على الأصابع ، ونقلت جثث الضحايا من الشهداء الى المشرحة ،

وكانت تقع فى ذلك الوقت فى مبنى قديم غادرته مدرسة الحقوق فتركته
للمشرفة ، ومكانه الآن جزء من سراى عابدين يطل على شارع حسن الأكبر ،
وتجمع حوله فى معظم أيام الثورة أمهات ثكالى وآباء يبكون أبناء فى عز
الشباب ٠٠ وجاء حكمدار القاهرة الانجليزى « اللواء رسل باشا » ليشرف
على تسليم الجثث للاهالى ، وكان يفعل ذلك فى ظرف شديد ، وتهذيب بالغ ،
ولا ينسى أن يقدم عزاءه الى أهالى الموتى ٠ وكان ظرفه الانجليزى البارد
يستثير غضب الأهالى ، ويزيد من أحزانهم إذ ما الذى يعنيه أدب القتلة ٠٠
وتهذيب السفاحين ٠٠ الا أنهم يستهينون بالضحية ؟

وانتهى الى بعض الثوار يوما أن الأمير « محمد على توفيق » يستقبل
الانجليز فى قصره ، وتنبه الطلبة الى اجبار الأسرة المالكة على أن تبدى رأيا
صريحا فى القضية الوطنية ٠ ولهذا السبب ذهب وفد منهم الى سراى الأمير
بالميل ، واستصدروا منه - بعد مناقشة حادة - تصريحا لصالح الاهداف
الوطنية ، وكتب سكرتيره التصريح ، ووقع عليه ، وأخذه الطلبة ونشروه
فى الصحف ، فعلقته عليه بعضها مرحبة ، وتورط بعض الكتاب الوطنيين
فى مدح تصريح الأمير ٠٠ ولم تمض أيام الا واتصل قائد القوات البريطانية
بالأمير ، وفى اليوم التالى كذب سموه التصريح ٠٠ رغم أنه بخط سكرتيره
وتوقيعه !

وكان هذا درسا آخر ، على أن الطغاة والمحتلين مهما تظاهروا بأدب
مزيف ، فان الشاعر لم يخطيء عندما دعانا لأن نكرهم ٠٠ ونكره الذين
لا يكرهونهم ٠

الأحزان والقنابل

كان فى الثلاثين من عمره عندما اختفى فجأة ودون سابق إنذار ٠٠
ومضت ست سنوات طويلة قبل أن تكتشف أسرته أين ذهب ٠

اسمه اليوزباشى (الرائد) « مصطفى حمدى » ٠٠ فى عام ١٩١٤
- وكان فى الرابعة والعشرين - التحق بخدمة البوليس ، لكنه لم يبق فى
منصبه سوى ثلاث سنوات فقط ، ثم فصل لأنه كان يهرب أسلحة من مصر
الى المجاهدين فى ليبيا ، وببساطة تحول من ضابط بوليس الى سجين فى

سجن الأجنبي ، ومضى عام قبل أن يخرج مرة أخرى الى الحياة • وكانت ثورة ١٩١٩ قد نشبت ، فألقى بنفسه فى تيارها الى أن خمدت جذوة العنف الشعبى التى صاحبت ميلادها ، فذهب الى إحدى العزب فى قلب الريف ، واختفى فيها يعمل ناظرا لها •

وذات صباح ترك عمله المستقر وعاد الى القاهرة ، وانغمس فى حركة المقاومة السرية ضد الاحتلال ، وبسبب خبرته كضابط بوليس سابق ، تولى تدريب الفدائيين ، واختار لذلك منطقة صحراوية فى آخر حدود حلوان ، فكان يجتمع مع زملائه عند حافة الصحراء ، ثم يتوجهون الى جبل يبعد نصف ساعة عن المدينة ركوبا ، فاذا ما أدركوه تركوا ركائبهم واعتلوا الجبل سيرا على الأقدام ، حتى اذا ما بلغوا قمته ، أخذوا يتمرنون على اللقاء القنابل من المرتفع الى أهداف فى الوادى المنخفض •

وفى يوم شتاء بارد من ديسمبر ١٩١٩ كان « مصطفى حمدى » يدرّب عددا من الفدائيين على اللقاء القنابل ، وفى اللحظة التى ألقى فيها القنبلة هبت زوبعة هواء مفاجئة حرفت مسار القنبلة ، وبدلا من أن تقع فى سفح الجبل ، وقعت فوق نتوء فى قمته ، وتطايرت شظاياها فأصابت الفدائي الشجاع ، وأسرع اليه أصدقاؤه وأرادوا اسعافه بتضميد جروحه ، فلم يتمكنوا ، فأسلم الروح بين أيديهم وحفروا له قبرا فى ثرى مصر •

بعد ذلك التاريخ بخمس سنوات ، قتل السردار سير لى ستاك ، وهجمت الدوائر البريطانية فى البوليس المصرى على كل تجمعات الفدائيين ، وحطت بكل ثقلها عليهم ، وكشف التحقيق مع النائب شفيق منصور عن سر مقتل « مصطفى حمدى » ، وعثر البوليس على جثة الشهيد ، وقبض على أمه وعلى خاله ، فوجد فى منزل الخال ١٨ قنبلة •• وشيعت رفات مصطفى حمدى بلا مشيعين سوى قلب مصر ، الذى ظل يذكره الى اليوم •

الثورة والناس

فى أيام الثورات ترتفع القيم ، وتسود الاستنارة ، فيكشف عديدون عن معادنهم الحقيقية ، وعندما يصبح الوطن هو القضية ، تكف مظاهر السلوك العدوانى التى يمارسها الناس فى ظروف حياة ذليلة يفرضها عليهم المستعمر ، فتتصرف عداوتهم لا الى العدو ، ولكن الى النفس أو الاصدقاء •

قبل ثورة ١٩١٩ ، كان طلاب الأزهر يعانون كثيرا من مظاهر السلوك العدوانى ضدّهم ، فقد كانوا فى الأغلب الأعم من طبقات فقيرة ، أقعدّها فقرها عن مصاريف التعليم المدنى الباهظة ، فرغبت فى أن ترسل أبنائها الى معهد مجانى ، يتلقون فيه العلم الشريف ، فيصبح من حقهم الحصول يوميا على ثلاثة أرغفة من الخبز ، كانت تعرف « بالجرابية » ، وينفق على تصنيعها من أموال الأوقاف التى اشتراط أصحابها انفاق ريعها على هذا العمل الخيرى ، تقربا الى الله بمساعدة الذين يطلبون العلم بشريعتة .

فى الحوارى التى تحيط بالجامع الأزهر كانوا يعيشون حياة عسيرة ، ويأكلون طعاما رديئا ، يتزاحمون بالعشرة والعشرين فى حجرات ضيقة لا يصلها ماء ولا كهرباء ، يستحمون فى المساجد ، ويعانون شظف العيش ، تشرب أجسادهم الرطوية من الجلوس الطويل على الأرض لتلقى الدروس ، ويعانون مع هذا كله الاحساس بالغربة ، اذ كان المجتمع المصرى يتحول تدريجيا فى تلك السنوات الى مجتمع مدنى ، فانتشر فى شوارع القاهرة نشيد يسخر من مجاورى الأزهر ، فقد كان من المعتاد أن تتجمع جوقة من الأطفال خلف طالب ازهرى لتهتف : « يا مجاور عمّك دابت ٠٠ من الطرشى والفلول النابت » ٠٠ ساخرة من طعام « المجاورين » الفقير مثلهم ، والذى لم يكن يتعدى هذين الصنفين الذين لا يشبعان من جوع .

وحول أعمدة الأزهر كان الطلبة الصغار يعيشون أسرى وقار لا يناسب أعمارهم ، فيضحكون فى خشية وتوجس ، اذ ما كان ينبغى لطالب العلم الشريف فى الأزهر ، أن يرسل القهقهات عالية مدوية ، لأن ذلك يتنافى مع كرامة أهل العلم وحرمة المساجد .

وتقوم الثورة عام ١٩١٩ وتهدى بسرعة الى مقرها الطيبعى وهو الأزهر ، ويشتعل بيت الله حماسة ، وتتأجج فيه الوطنية المشبوبة ، وتلتقى فيه عشرات الألوف من القلوب الثائرة ، واذا ما قصده أى انسان فى أى وقت من الأوقات نهارا ، أو ليلا ، وجد فيه منبرا وخطيبا يبعث بكلماته النارية فى نفوس الناس جذوة الوطنية .

وخرج الأزهريون فى المظاهرات يموتون من أجل مصر ، وفى الأزهر الشريف رددت الجماهير الثائرة الحان سيد درويش ، وكانت تلك أول مرة يغنى فيها الناس فى بيت من بيوت الله ، فحين تكون الثورة لاهية لا يهتم الناس بظواهر الأمور ، لكن بجوهرها ٠٠ لذلك لم يعتبر أحد المتغنى بالوطن فى أحد بيوت الله جريمة .

وانطلق الأزهريون فى كل مكان يخطبون فى الجماهير ، ويتحدثون اليهم كدعاة للثورة ، وزايلهم الجمود والتزمت ، وراحوا يغشون المقاهى

والمنتديات العامة ، على غير ما تعود الناس منهم فى الماضى ، فقد كانوا يعدون الجلوس فى المقاهى عارا ومسبة وحراما ، وأحس أهل المدينة نحو طلببة الأزهر بحب وتقدير ، انعكس فى سلوكهم تجاههم ، وكف الأطفال عن السخرية من المجاورين ، وقل احساس هؤلاء بالتضاؤل ، وشمخوا برؤوسهم ، ولم لا : اليسوا بعض الذين أشعلوا الثورة ، اذ كان معهدهم مقرها ومركز قيادتها •

كانت النفس المصرية تتغير بالثورة ••

تغير الأزهريون وتغير الناس

محسن بن عيوشة

غريبة هى مصر •• نكى هو شعبها •• قادر وجبار •• عنيد وطيب ••
مظهره الخارجى يبدو للمتعجل السطحى ، كأنه نائم أو مستهتر ، كأن شيئاً مما يجرى لا يعنيه •

يتصور المحتلون انه مات أو نسى ، يتخيل المنافقون أنه يصدق نفاقهم ، يتوهمون أنه يحترمهم أو يصدق ما يقولون •• فجأة يصددهم بالحقيقة المرة ، يسخر من وطنيتهم المدعاة ، من جاسوسيتهم الزرية •• من الأخذية التى لعقوها حتى تشققت أسنتهم من لعق الجلود !

من الحوارى والشوارع الجانبية والحقول ، يخرج كتاب وشعراء يكتبون عن الشعب ، يعيشون وسطه ، يعبرون عنه ، يسخرون من أعدائه ، شعرا بلغته : يعبرون به عنه ، ويدفعون به اليه ، فيرده ساخرا من غفلة المنافقين ، وغباء المحتلين، وفجر الجواسيس •

واجد من هؤلاء كان « بيرم التونسي » ، ابن اليفالطة السليط اللسان بالحق ، وعدو الجواسيس والخونة والمنافقين والطغاة ، الرجل الذى أودى به عداؤه للسراى ، فنفاه عن مصر عشرين عاما ، لأنه سخر من « الملك فؤاد » المبروم الشوارب ، الذى كان يزف الى « نازلى هانم صبرى » فى عز أيام الثورة •

وهو فى منفاه قرأ كثيرا عن الجواسيس الذين كانوا يعملون لحساب المخابرات البريطانية ، ويشهدون فى المحاكم بما يؤكد الاتهام ضد الثوار والمناضلين •

فى واحدة من هذه المحاكمات قرأ بيرم التونسى عن جاسوس اسمه
« احمد عبد المحسن » ، تقدم للشهادة ضد بعض الوطنيين ، ونقل معلومات
عنهم أودت بهم الى السجن ، وكتب « بيرم » من باريس قصة نثرية زجلية
بعنوان « الجاسوس » نشرت فى مصر وقدم لها بمداعبة قال فيها انها بقلم
الكاتب الذائع الصيت « لطخ » ، وأضاف ساخرا أن الذى نقلها الى لغة
التجديد هو الدكتور طه حسين ، وحاكى « بيرم » فى قصته أسلوب د. طه
حسين فى تكراره ذى الجرس الموسيقى ، وختمها بزجل يدعو لضحك كالبكاء .
وفى زجله تحدث « بيرم » عن الجاسوس « محسن » ، الذى أخذ يبتز
الناس :

محسن عدوك من أعيان البلد ضبع
والبغل فى الأيام دى ما بين الغنم ربيع
المجلس اللى مايدفعولوش فى يوم أربع
تنزل مصيبة تفرق جمعهم فى خميس

وروى الزجل قصة زواج محسن ، والطريقة التى أثرى بها : نصب
على احدى الأسر ، وتزوج منها ، تاركا زوجته الأولى بعد أربعين يوما من
زواجه الجديد :

الأربعين انتهت والواد نقل عفشه
فى بيت حماته وفات اللى بنت عشه
وبالطلاق بالثلاثة بيتها ماتخشه
جاسوسنا حتى على أهله لئيم وخسيس -
حماة الجاسوس الجديدة استقبلته بالترحيب ، كانت مثله سيدة
بلا أخلاق :

لكن لسانها فشر عقرب وفرقلة
تسب الدين وقت الشر والملة
وفى الهزار بخراب البيت بتتسلى
وكل منزل تخشيه يدخله ابليس
وكان طبيعيا أن ترحب بالجاسوس ذلك أنه :

سيدنا عمال ينهب م البلاد ويجيب
يحقق له حكم عرفى فى البلد والبوليس

وتتغير الدنيا ..

يأتي « سعد زغلول » ويذهب الجاسوس ، ويهتف بيرم :

يا سعد ياللي دهست الجيارين بالرجل
وشلت يا سعد منها كل عجل وعجل
محسن صبح مايلقيش حق حزمة فجل
ولا اللي يطلب له حتى كاس زبيب ع الكيس

وتغير الحماة نعمتها :

قالت حماه يا محسن يا بن عيوشة
تقعد هنا عندنا اقعد وانتي برطوشة
وان كنت تخرج مافيش مانع ولا حوشة
روح على أمك يا خويا هات لها ديبايس

مجرد موعظة من الشعب !

يس التركي

في سنة ١٩١٩ كانت مصر بلا دستور ، ولكن « ولي الأمر » عظمة السلطان فؤاد ، كان أسدا حبيسا ، وقتها كانت السلطة شركة بين « الفرغاء » في الشارع ودار المندوب السامي في قصر الدويارة - وتحت ضغط تشعان المقاطعة السياسية لتشكيل الوزارات التي تزعمها الوفد ظهرت أيامها موضة « الوزارة الادارية » ، وهي وزارة لا علاقة لها بالسياسة ، وليست طرفا في علاقة مصر ببريطانيا العظمى ، فهي تكتفي بتصريف المسائل اليومية تاركة للوفد المصري الشئون السياسية ، وكانت الوزارات الادارية ، وزارات ضعيفة لا احترام لها ولا هبة ، تضم في الغالب وزراء كانوا موظفين تدرجوا في مناصبهم حتى أصبحوا وزراء بالأقدمية !

أيامها كانت الثورة على أشدها ، والشعب كله ضد السلطان ، يتهمه بالتضامن مع حكومته وبالتالي مع الانجليز في قمع الحركة الوطنية والتدنيل بزعمائها ، وقيل « يوسف وهبة باشا » أن يكون رئيسا لوزارة ادارية لا شأن لها الا بالموظفين ، وطلب السلطان من الوزارة أن تبرز شعبيته ، وأن تتغلب على مقاطعة الجماهير للتشريفات الملكية ، وفشل « يوسف وهبة » في

ذلك ، فتقدم « توفيق نسيم » ليكون الفارس المعلى ومورد الجماهير العبقري ، ونجح المديرين والمحافظون فيما كلفهم به « توفيق نسيم » ، وأصبحت جماهير وزير الداخلية تحمل التندر والفكاهة : مخبرون يرتدون ملابس الأعداء ، ومساجين يرتدون ملابس صحفيين ويدخلون السراي الملكية لإعلان المتأييد الشديد ، ولما زادت الحكاية عن حدها وجه « يوسف وهبة » نظر « توفيق نسيم » مطالبا آياه بالتزام حدود اللياقة في تلك الحركة والعمل فيها بمنتهى التحفظ والإحتياط :

بسبب هذه الكلمة غضب السلطان من يوسف وهبه ، فهو لم يفشل فقط - في جلب الناس للسراي ، ولكنه أيضا يعترض على ذلك ، وتقرر بالفعل أن يقلش رئيس الوزراء المسكين ، ولأن بدعة أقالة الوزارات لم تكن قد نشأت بعد ، فقد أخذ السلطان يفكر في طريقة لطرد وزيره الأول ، وأحس يوسف وهبه أن الحالة غير طبيعية ، فبسمات السلطان أصبحت لنسيم وحده ، أما هو فلا يلقي إلا « الركنة » في صناديق مكتب السلطان :

ويوما قرر يوسف وهبه أن يستقيل ، فالتمس مقابلة السلطان وحدد له موعدا قبل الظهر ، ولشد ما كانت دهشته عندما دخل حجرة المكتب فوجد محمود شكرى رئيس الديوان في حضرة السلطان ، وقد جرت العادة على أن يستقبل السلطان رئيس الحكومة على انفراد ، جلس وهبة وهو يظن أن رئيس الديوان لن يلبث طويلا لينصرف ولكن جلسته طالت ، وكان عظمة السلطان يتحدث معه باللغة التركية مع ما لقي ذلك من جرح لكرامة رئيس الحكومة الذى يجهل هذه اللغة ، وشعر يوسف وهبه بخرج موقفه ، وأراد أن يشعر السلطان بهذا فاستأذن في الانصراف حتى ينتهي عظمته من حديثه مع رئيس ديوانه :

ولكن السلطان لم يدعه ينصرف بل قال له : « يا يوسف ، أنت رجل عظيم ، ولكن عليك قاعدة يا باشا ، أنا فليس ضرر من وجودك ، فانتسبم وهبه باشا وقال : « يا سيدي ، أنا فليس ضرر من مولانا مافيش ضرر ، لأنى لا اعرف التركى ، وعلتى القور قال السلطان :

- هو يس التركي اللى ماتعرفوش ، ؟
والمتقع وجه رئيس الوزراء وقال :
- لا شك أن غيرى يعرف أكثر منى ، ولذلك جئت لإرفع استقالتي إليكم عظيمكم !!

الشغل .. الشغل

عالم السياسة من عالم بلا قلب .. والناس يشتغلون بها يعلمون أن العواطف لا علاقة لها بها .. والمجاملات لا تدخل فيها .. وبين الابتسامات تطلق الخناجر ، وحتى القتل يشيعه قتلته إلى الدار الآخرة يدموع الخزن عليه .. كان « عبد الخالق ثروت باشا » سياسيا داهية ، من النوع الذي لا يعرف الإنسان أسراره ، لدرجة أن أحد كبار الصحفيين وصفه مرة فقال : « إنه واحد من ثلاثة أو أربعة في تاريخ مصر كله يمكن أن يوصف بالسياسي الداهية »

حدث في عام ١٩٢٠ ، أن كان « عدلي يكن » يتفاوض في لندن مع « لورد كيرزون » في حل القضية المصرية ، وكان ثروت رئيسا بالنيابة لمجلس الوزراء ووزيرا للداخلية ، وكانت وكالات الأنباء تنقل كل يوم أخبار الولايم والمآدب التي يقيمها الانجليز للوفد المصري في المفاوضات ، لكن الأستاذ حسن الشريف - وكان محررا أيامها في جريدة وادي النيل - سمع من أحد كبار المصريين معلومات محزنة عن سير المفاوضات علم منها أن اللورد كيرزون يهين بعض أعضاء الوفد الرسمي ويزجرهم في بعض الأحيان وانهم تحملوا منه ما لا ترضاه كرامة رجال يمثلون حكومتهم وأمتهم في بلاد أجنبية .

وتناول حسن الشريف قلمه ، وكتب مقالة من نار ، افتتحها بطعن شديد على الوزارة ووفدها الرسمي واحتمها بتفكر المعلومات المحزنة التي بلغته ، ونشرت المقالة في « وادي النيل » ، وذهب الكاتب الى شرفة فندق كازينو سان استيفانو ، وجلس مع أحد كبار الأجانب المقيمين في مصر وهو يراجع اللهجة الشديدة التي كتب بها مقالته ، متوقعا انها ستغضب الحكومة لا محالة . وبينما هو يفكر في ذلك اذا بثروت باشا ينزل من سيارته أمام السلم . فقام هو وصاحبه تلبية له ، فأتسبه وزير الداخلية اليهما وسئم عليهما ودعاهما الى الجلوس معهما ، فاستجابا له ، وحاول « حسن الشريف » أن يعرف رأي ثروت باشا في المقالة ويتبين مدى غضب الحكومة منهما ، ولأن الحديث يقول : موضوعات مختلفة ، وأفاض ثروت في الحديث وتثر في حديثه الكثير من اللحكات ، وغلب على ظن « حسن الشريف » أن الرجل لم يقرأ المقالة ، وفي نهاية اللقاء حاول « حسن الشريف » أن يدفع الحسبان فرفض ثروت وقال :

« يا هذا ، لم يقرأه احد ، فكيف يدفع الحسبان ؟ » وقال له ثروت : « يا هذا ، اقرأها ، وبعثت منها ، ولكنه ما كان يتلقى بالحمد فريد رفاعي - الذي كان شكرتيرا بطرود - حتى ناز في وجهه وقال له : يا هذا ، لا تسترنا .. »

- ان ثروت قرأ المقالة وغضب منها غضبا شديدا حتى انه تكلم مع
النائب العام بشأنها وطلب منه ان يحقق معك فيما جاء بها .

وظن الصحفي ان سكوتير الوزير يمزح معه ، فقد كانا صديقين ، فرد
قائلا انه كان مع ثروت. يائسا منذ دقيقتين ولم يذكر له شيئا من هذا بل ولم
يقين من لهجة حديثه معه ولا من ملامح وجهه شيئا .

ولم يرد « فريد رفاعى » بشيء ، ومضى تاركا « حسن الشريف » الذى
استكمل سهرته فى الكازيتو ، ثم عاد الى منزله ، وما كان يدخل حتى وجد
فى انتظاره ضابط بوليس يحمل امرا من النائب بالقبض عليه بسبب مقالته .

وفى صباح اليوم التالى كان حسن الشريف سجينا على نمة التحقيق
فى سجن الحدراء . . يضرب كفا بكف دهشة من رجل يلاطفه ويجمله ويدفع
له ثمن مشروبه ، وهو يعلم انه وقع قرارا بالقبض عليه والزج به فى السجون ،
لكن الشغل . . شغل .

المقابلة الأمريكية

ما اكثر المقالب والطمعانات التى تلقتها الحركة الوطنية المصرية من
الولايات المتحدة الأمريكية .

لم يكن اول هذه « المقالب » اعتراف الرئيس الأمريكى « ولسن » بالحماية
البريطانية على مصر ، فى الوقت الذى كان الوفد المصرى فيه يشهد الرجال
الى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ، استنادا الى المبادئ
التي أعلنها « ولسن » ، ومنها مبدأ حق تقرير المصير . فقد سبقتها
تصريحات الرئيس الأمريكى « تيودور روزفلت » عام ١٩١٠ التى دعا فيها
مصر الى قبول الاحتلال والاعتراف به .

وبعد اعتراف « ولسن » بالحماية البريطانية على مصر حاول الوفد
المصرى ان يتدارك الأمر ، فطلب سعد زغلول مقابلة ولسن ، ولكنه
اعتذر عن المقابلة مرتين ، ثم حاول الوفد ان يستعين ببعض أعضاء
الكونجرس ليعارضوا المواد التى تعترف بالحماية البريطانية على مصر فى

اتفاقيات الصلح ولكن المحاولة فشلت ووافق الكونجرس على احتلال إنجلترا
لمصر .

ومن أطرف محاولات الوفد مع الامريكيين ، محاولة استئجار « محامى
امريكى » للدفاع عن استقلال مصر لدى الكونجرس الأمريكى ، وقد انتهى
بحثه بالوصول الى المستر « جوزيف فولك » وكان متخصصا فى القانون
الدولى وعمل فترة مستشارا قضائيا لوزارة الخارجية الأمريكية ، ثم تولى
حكم ولاية ميسورى .

وقام المستر فولك بدعاية صحفية واسعة فى أمريكا ، ليعيد الأفكار لتلقى
القضية المصرية قبل طرح تفاصيلها أمام لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس ،
وقدم مذكرة جامعة عن مطالب مصر ، وانبرى يرد على كل ما ينشر فى
الصحف الأمريكية من أنباء أو آراء عن قضيتها .

والغريب أن « المستر فولك » ، قد رفع قضية على الوفد المصرى بعد
ذلك ، مطالبا ببقية أتعابه ، وقال محاميه : إن الوفد قد اتفق معه على أتعاب
محددة ، لم يأخذها بالكامل ، ورد محامى الوفد بأن « المستر فولك » كان
مستأجرا للعمل على اقتناع الكونجرس الامريكى بعدم الاعتراف بالحماية ،
وأنه لم ينه « المقالة » كما ينبغي .

أعمالها وأبحاثها، وقد ترجمت بعضها إلى العربية، ومنها: «الوطن والسياسة» (بيروت ١٩٧٤)
و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤)

و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤)
و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤)
و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤) و«السياسة» (بيروت ١٩٧٤)

١ - الثورة العراقية :

الطبعة الأولى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٤
الطبعة الثانية : دار المستقبل العربي - القاهرة ١٩٨٣

٢ - حكايات من مصر : (المجموعة الأولى) - نفذة دار المستقبل العربي - بيروت ١٩٧٤

الطبعة الأولى : دار الوطن العربي - بيروت ١٩٧٤

٣ - الإخوان المسلمون : الأسباب الحاضرة والمشكلة المستقبلية - بيروت ١٩٧٤

الطبعة الأولى : مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٧٧

٤ - مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا (رواية سياسية) - بيروت ١٩٨٠

٥ - البرجوازية المصرية وأسلوب المفاوضة - بيروت ١٩٨٠

الطبعة الأولى : دار ابن خلدون - بيروت ١٩٨٠

الطبعة الثانية : مطبوعات الثقافة الوطنية - القاهرة ١٩٨٠

٦ - أفيون وبنادق - نشرت مسلسلة في مجلة ٢٣ يوليو - لندن ١٩٨٠

٧ - محاكمة فؤاد سراج الدين باشا (دراسة ووثائق) - القاهرة ١٩٨٣

الطبعة الأولى : مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٨٣

الطبعة الثانية : مقدمة المؤلف لنصوص المحاكمة وقد صدرت مستقلة

بعنوان « البرجوازية المصرية ولعبة المطرد خارج الحلية » دار التنوير - بيروت ١٩٨٢

٨ - فلسطين : الأرض والمقاومة (بالاشتراك مع خيرية قاسمية وحسناء مكداشي)

الطبعة الأولى : دار الفتى العربي - القاهرة ١٩٨١

الطبعة الثانية : أمانة الاعلام بحزب العمل - القاهرة ١٩٨٢

٩ - حكايات من مصر (المجموعة الثانية - هوامش المقریزی)
الطبعة الأولى : مطبوعات القاهرة - القاهرة ١٩٨٣ .

١٠ - رجال مرج دابق (الفتح العثماني لمصر والشام)
دار الفتى العربى - القاهرة - بيروت .

تحت الطبع :

١١ - خمسة وجوه اءعد باطل (قصة وعد بلفور - بلاشتراك مع جميل عطية) - دار الفتى العربى - القاهرة - بيروت .

١٢ - حكايات من مصر (المجموعة الثالثة - هوامش المقریزی)

١٣ - حكايات من مصر (المجموعة الرابعة - البرنسيصة والأفندى)

١٤ - عبد الرحمن الجبرتى (الانتلجسيا المصرية فى عصر القومية)

١٥ - أفكار شكرى مصطفى الحقيقية (دراسة لتيار التكفير والهجرة - مع أول نص ينشر لأفكار الجماعة) .

١٦ - اغتيال مصطفى خميس (الصدام الأول بين العسكريتاريا والبروليتاريا)

١٧ - أسطورة فرج الله الحلوى (وثائق التحقيق فى قضية تعذيبه واغتياله - مع دراسة عن الخلاف بين الشيوعيين وعبد الناصر حول قضية الوحدة العربية) .

١٨ - الصحافة المصرية فى معركة الديمقراطية (١٩٥٠ - ١٩٥٤)

١٩ - مذكرات عربى باشا وأوراقه (الجزء الأول من المذكرات)

٢٠ - مذكرات عربى باشا وأوراقه (الجزء الثانى من المذكرات)

٢١ - مذكرات عربى باشا وأوراقه (الأحاديث والمقالات والرسائل)

٢٢ - وثائق الحركة الشيوعية المصرية (دراسة - وثائق)

٢٣ - والجروح قصاص (أمين عثمان - أنور السادات - خالد الاسلامبولى)

٢٤ - جنرالات بلا جنود (قصص قصيرة)

٢٥ - الأزهر والحركة السياسية فى مصر

٢٦ - محاكمة فؤاد سراج الدين (الجزء الثانى)

٢٧ - محاكمة فؤاد سراج الدين (الجزء الثالث)

رقم الايداع ٨٣/٤٤٨٣

دار ماجد للطباعة
٢ شارع بلال - القصيرين - الوايلي - القاهرة





● بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٥ كانت
« هوامش » زاوية ثابتة تنشر كل صباح
على صفحات جريدة « الجمهورية » القاهرية ،
تسوق ال قارئها للقطعة مركزة من تاريخ
مصر ، أشبه بالصومعة ، استعار كاتبها
« صلاح عيسى » اسم المؤرخ العربي القديم
« المقرئ » ليولمها به .

ومع أن « هوامش » كانت تسمى
لقارى ، فقدته أجهزة الاعلام الرسمية وبعه
بتاريخه ، ونفته بنفسه ، والأخطر من هذا
بوطنه ، وتحاول - عن طريق التراكم الكمي -
الحرية والعدل ، وبين ما يواجهه من مؤامرات على حقه في التحرر من القهر القومي
والاجتماعي ، الا أن المناخ السياسي الذي تشتت في ظله - على مشارف حرب أكتوبر
وبعدا بقليل - الحتم في الصراع السياسي الضاري الذي شهدته مصر حتى منتصف
عهد السادات بين قوى الردة وطلالغ التقدم والاستنارة ... تصدرت فيها منشورات
سرية .. وتقارير بوليسية .. ولاحقها الرقابة .. وانتهى المصير حولها بمنع
نشرها ، ثم بفصل كاتبها .

وهذا الكتاب - الذي يصدر بعد سبع سنوات من اعداده للنشر - يضم ٢٠٠
الصومعة من التاريخ المصري ، تغطي الفترة بين العصور الوسطى وحتى ثورة ١٩١٩ ،
وفي مقدمته المطولة ، يكشف المؤلف بعض ما كان يعسر في كواليس السياسة
والصحافة آنذاك ، واختصار أن ينشرها مجموعة ثانية ، لكتابه « حكايات من مصر » ،
وهي سلسلة يعلم أن تمكنه الظروف من مواصلة كتابتها بتوجه بها ، بالدرجة
الأولى ، لجيل الشباب ، أملا أن يزيد من وسائله التي تربطه بتاريخ وطنه
واحلام امته . ●

